

الأنوار ومصباح السرور والأفكار

في

ذكر نور محمد المصطفى المختار

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

تأليف

أبي الحسن أحمد بن عبد الله البكري

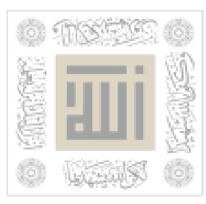
رحمه الله تعالى

يشمل :

" ذكر أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، وتنقل النور المحمدي من الأصلاب الفاخرة إلى الأرحام الطاهرة ، وتزويجه السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وحديث انشقاق القمر له . . . وغير ذلك مع البسط الشافي والنقل الوافي "

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر





الطبعة الثانية

١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م



نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ
[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق روح حبيبه محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل خلق الأرواح ، وجعل جسمه اللطيف ونوره الشريف أحسن الصور والأشباح ، وأخرج درّة نوره الأنور من صدف بحر الأنوار ، واستخرج جوهرة عقله الأقدس من معدن الصدق واليقين ، توّج هامة همّته بتاج النبوّة والإمامة ، وشرّف قيم قامته بتشريف الرسالة والكرامة ، شرح صدره بأنواع المحبة واللطف والكرم ، وروّح على قلبه حقائق العلوم ودقائق الفهم ، كما أشار إليه بقوله جلّ وعلا - وعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ - جعل نفسه الكريمة واسطة عقد الوجود ، وصيّر ذاته الشريفة عالية على درجات جميع النبيين ، أطلع شمس نبوّته مطالع أقمار المرسلين ، من فوق سماء العزّ والتمكين . قال صلى الله عليه وسلم « كُنْتُ نَبِيّاً وآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّينِ » أجلس روحه المقدسة ونوره الأنور على حجاب القرب والسعادة ، والمجد والسيادة ؛ ثم بعثه بعد حين فى هذا الشهر الشريف ، والموسم المبارك المنيف ، عالم الغيب والشهادة ، فنوّر بظهور نوره أقطار الأرض وأكنافها ، فظهر لقدوم قدمه السعود ونقاه عن الدنس على وجه الأرض وأطرافها ، زين رباع العالم بظهور أنوار شهر ربيع ، وبين عند العالمين مراتب أقدار هذا الشهر الرفيع .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، إله العالمين ، وباعث الرسل أجمعين .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، الذى جعله كاشف الغمة ، وشفيع الأمة ، وناصرا للحق ، ومبشرا وآمرا للخلق ، صلى الله عليه وسلم صلاة وسلاما ما عسعس الليل وأضاء النهار .

وبعد : فاعلم أيها الراغب لاستماع الأخبار الواردة فى شأن فضائل النبى الأمى القرشى الهاشمى ، فى شمائل الرسول المكى المدنى ، ومناقب ذاته الأطهر أكثر من أن تُعدّ وتُحصى ، ومراتب وجوده الشريف أكثر من أن تُحدّ وتُستقصى . إلا أن بحر ذاته الكريمة لاتدرك نهاياته ، وبرّ صفاته المنيعة لاتعلم غاياته ؛ كل مدح مدحه المادحون ذرّة من عالم كمالاته ، وكل وصف وصفه به الواصفون قطرة من بحار ذاته الأقدس . ولكن لما جرت عادات العلماء الكبار ، وسنة أئمة الأمصار الصغار والكبار ، أنهم يعقدون فى هذا الشهر المبارك الرفيع ، المسمى بربيع ـ المجالسَ الشريفة ، والمحافل المباركة المنيفة ، لإظهار الفرح والسرور وإعلان الخير والحبور ، كل يذكر بعضا من الأخبار التى وردت فى ظهور نور هذا النبى المعظم ، ونشر طرف من الآثار التى ثبتت فى شأن هذا النبى المكرّم ، تحير الخاطر الفاتر ، أن أتشرّف بذكر بعض من شمائله ، وشرح نبذ من فضائله صلى الله عليه وسلم ليقرأه فى بعض المجالس التى تعقد فى هذه الليالى والأيام ، ويطيب أوقات من حضر فيها باستماعه من الخاص والعام ، وتصل بركات هذه الأخبار إلى سائر المؤمنين والمؤمنات ، ويدوم بديمته العافية بين المسلمين والمسلمات ، إنه ولىّ الخير والإنابة ، ومنه التوفيق والإجابة . فأقول :

قال أبو الحسن أحمد بن عبد الله البكرى رحمه الله وغفر له : هـذا كتاب

الأنوار ومصباح السرور والأفكار

وذكر نور محمد المصطفى المختار ، صلى الله عليه وسلم

قال الشيخ العالم أبو الحسن بن عبد الله البكرى : حدثنا أشياخنا وأسلافنا الرواة للأحاديث والأخبار ، عن عمر الأنصارى قال : سمعت كعب الأحبار وهو يصف مذهب الإسلام ، وما رأيت أحدا من بنى آدم أحفظ منه للأخبار وأرتب منه فى اللفظ ؛ قال أبو الحسن بن عبد الله البكرى : فسألناه عن نور رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فحدثنا عن بدء خلقته فى علم الله سبحانه وتعالى ، وبما شرّفه الله به وتنقله وحمله ودلائل أمره ، فلم نسمع أبلغ ولا أفصح منه .



عن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وابن عباس رضى الله عنهم قالوا جميعا : لما أراد الله عزّ وجلّ أن يخلق سيد المرسلين وأشرف الأولين والآخرين قال للملائكة ـ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ـ أفضله على الخلائق أجمعين ، وأشفعه فيهم يوم الدين ، فلولاه ما زخرفت الجنان ولا سعرت النيران ، فاعرفوا محله وإكرامه ، وأكرموه لكرامتى ، وعظموه لعظمتى ، فقالت الملائكة : إلهنا وسيدنا ومولانا وما يراد اعتراض العبيد على مولاهم ، نعوذ بشرف جلالك أن نعصيك ، سمعنا وأطعنا ؛ فعند ذلك أمر الله تعالى طاوس الملائكة وهو الروح الأمين جبرائيل عليه السلام أن يأتيه بالطيب المبارك فهبط الرّوح الأمين جبرائيل عليه السلام ومعه صف من الملائكة من الصف الأعلى وحملة العرش ، فقبضوا تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع ضريحه . وقد قضى الله سبحانه وتعالى أن يخلقه من التراب ويميته فى التراب ، وأن يحشره على التراب ؛ فقبضوا من تربة طاهرة نقية لم يمش عليها قدم إنسان إلى معصية ، فعرج بها الرّوح الأمين جبرائيل عليه السلام إلى السماء وغمسها فى عين السلسبيل حتى صارت كالدرّة البيضاء، وكانت التّربة المقدسة كل يوم تغمس فى نهر من أنهار الجنة وتعرض على الملائكة فتشرق أنوارها مثل نور الشمس سبعين مرة ، فتستقبلها الملائكة بالتحية والإكرام . وكان يطوف بها الأمين جبرائيل عليه السلام فى صفوف الملائكة ؛ فاذا نظروا إليها قالوا : إلهنا وسيدنا ومولانا ، إن أمرتنا بالسجود سجدنا . واعترفت الملائكة بفضله وشرفه قبل خلق آدم عليه السلام بألف عام .

ولما خلق الله تعالى آدم عليه السلام سمعت الملائكة فى ظهره نشيشا كنشيش الطير ، وتسبيحا وتقديسا وتحميدا ؛ قال آدم عليه السلام : يا رب ما هذا النشيش فى ظهرى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم هذا تسبيح النبى العربى محمد سيد الأوّلين والآخرين وحبيب رب العالمين ، فالسعيد يا آدم من اتبعه وأطاعه ، والشقى الغَوِىّ من خالفه وعصاه ، فاحذر يا آدم أن تودعه إلا فى الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية ؛ قال آدم عليه السلام : إلهى وسيدى ومولاى ، سمعت وأطعت وقبلت العهد والميثاق ، فلا أودعه إلا فى أصلاب الرجال الطاهرين ، والأرحام المطهرة ، والنساء الطاهرات الحافظات



الصفات ؛ ثم قال آدم عليه السلام : إلهي وسيدي ومولاي ، لقد زدتني بهذا المولود شرفا وكرما ونورا وبهاء ووقارا .

وكان نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يرى فى وجه آدم عليه السلام مثل نور الشمس المضيئة فى حال كونها فى قبة الفلك ، وكنور القمر المضيء إذا تجلى فى حال تمامه وسط السماء ، وقد نارت من نوره السموات والسرادقات والعرش والكرسى .

وكان آدم عليه السلام إذا أراد أن يغشى زوجته حواء عليها السلام أمرها أن تتطيب بالطيب والمسك والعنبر ، فيقول لها الله عز وجل : إنى مودعك يا حواء نور حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومخصك به دون الحور العين والنساء ، وإنى مودعك أمانتى وعهدى وميثاقى . فلم يزل نور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غرة وجه آدم عليه السلام حتى حملت حواء عليها السلام بشيث عليه السلام ، وكانت الملائكة عليهم السلام يأتون حواء عليها السلام ويهنونها بشيث عليه السلام ، فلما وضعته رأت حواء بين عينيه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرحت بذلك واستبشرت ، وضرب جبرائيل عليه السلام بين حواء وبين إبليس حجابا من النور غلظه مسيرة خمسمائة عام ، وطوله مثل ذلك قبل وضعها لشيث عليه السلام . ولم يزل إبليس لعنه الله محبوسا عن حواء عليها السلام حتى وضعت شيثا عليه السلام ، وبلغ سبع سنين ، والنور يشرق من غرته إلى السماء .

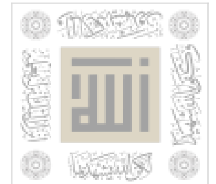
فلما علم آدم عليه السلام أن ابنه شيثا عليه السلام قد بلغ مبلغ الرجال قال له أبوه آدم عليه السلام : يا بنى إنى مفارقك عن قريب ، فادن منى حتى آخذ عليك العهد والميثاق الذى أخذه الله تعالى على أبيك من قبلك ، ثم رفع آدم رأسه إلى السماء وقد علمه الله سبحانه وتعالى أسماء الملائكة كلهم ، وأمرهم الله أن يمسكوا أجنحتهم ، وأشرفت الجنان ، وأشرفت سكانها من غرفها . وسكن صرير أبوابها ، وسكن جريان أنهارها ، وبطل تصفيق أوراق أشجارها ، وتطاولت لاستماع ما يقول آدم عليه السلام لابنه شيث عليه السلام ، ونادى مناد من السماء من قِبَل العلى الأعلى : قل كل ما أنت قائل لابنك شيث عليه السلام ،



قال آدم عليه السلام بأعلى صوته : يا شديد البطش ويا منير الشمس ، خلقتني كيف شئت ، وقد أودعتني النور الذي أرى منه التشريف والكرامة ، وقد صار النور مني لولدي شيث ، وإني أريد أخذ العهد عليه والمواثيق كما أخذته من قبل عليّ أنت الشاهد عليه ؛ وإذا بالنداء من قِبَل الله تعالى : يا آدم خذ على ولدك شيث العهد والميثاق ، وأشهد على ذلك جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والملائكة عليهم السلام . قال : فأمر الله تعالى جبرائيل وميكائيل أن اهبطا إلى الأرض ومع كل واحد سبعون ألفا من الملائكة ، وبأيديهم ألوية الحمد ، ومعهم حريرة بيضاء ، وقلم مكنون من قدرة الله تعالى ومشيئة رب العالمين . قال : فأقبل الرُّوح الأمين جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام وقال : يا آدم ربك يقرئك السلام ويقول : اكتب على لسان ولدك شيث عليه السلام كتاب العهد والميثاق ، وأشهد عليه الله تعالى وملائكته وجبرائيل وميكائيل والملائكة عليهم السلام أجمعين . قال : فكتب الكتاب وأشهد عليه الملائكة وختمه الرُّوح الأمين جبرائيل عليه السلام بخاتمه ، ودفعه آدم إلى ولده شيث عليه السلام ، وكساه قبل انصرافه حلّتين خضراوين ، أضوأ من نور الشمس وأرق من الماء ، لم يفصلا ولم يقطعا ، قال لهما الجليل جل جلاله : كونا فكانتا ؛ ثم إن آدم وشيثا قبل بعضهما بعضا ، وقبل شيث من أبيه آدم العهد والميثاق .

ولم يزل النور يلمع بين عينيه ، ويضيء وجه شيث بن آدم عليهما السلام إلى أن تزوّج شيث بالمخاولة البيضاء ، وكانت بطول حوّاء وجمالها ، واقترن بها بخطبة جبرائيل عليه السلام ، فلما وطئها شيث عليه السلام وحملت بأنوش عليه السلام سمعت مناديا من السماء : هنيئا لك يا بيضاء ، فقد استودعك الله نور سيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، وأكرم الأولين والآخرين . فلما ولدته أمه وبلغ مبلغ الرجال أخذ عليه أبوه شيث العهد والميثاق كما أُخذ عليه من قبل .

ثم انتقل النور إلى ولده قينان ، ومن قينان إلى مهلائيل ، ومنه إلى أدد ، ثم إلى أخنوخ وهو إدريس عليه السلام ، ثم إلى متوشلخ ، ثم إلى لمك ، ثم إلى




نوح عليه السلام ؛ ومن نوح إلى ولده سام ؛ ثم إلى ولده أرفخشذ ، ثم إلى ولده عابر ، ثم إلى فالغ ، ثم إلى غوانم ، ثم إلى شاروغ ، ثم إلى ناحور ، ثم إلى تارخ ، ثم إلى إبراهيم ثم إلى إسماعيل ثم إلى قيدار ، ثم إلى هيمع ، ثم إلى يخشب ، ثم إلى آدن ، ثم إلى عدنان ، ثم إلى معد ، ثم إلى نزار ، ثم إلى مضر ، ثم إلى إلياس ، ثم إلى مدركة ، ثم إلى خزيمة ، ثم إلى كنانة ، ثم إلى قصى ، ثم إلى لؤى ، ثم إلى غالب ، ثم إلى فهر ، ثم إلى عبد مناف ، ثم إلى هاشم . لأنه هشم الثريد لقومه ، وكان اسمه عمرو العلاء ؛ وكان نور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه تضىء منه الكعبة وتكتسى من نوره نورا شعشعانيا ، ويرتفع من وجهه نور إلى السماء ، وخرج من بطن أمه عاتكة بنت مرة بن فالج بن ذكوان ، وكان له ضفيرتان كضفيرتى إسماعيل عليه السلام يتوقد نورهما إلى السماء ، وكان أهل مكة يتعجبون من ذلك ، وسار الركبان وقبائل العرب من كل جهة ومكان ، وصاحبته من أجل ذلك النور الكهان ، ونطقت الأصنام بفضل النبى المختار . وكان هاشم لايمر بحجر ولا شجر إلا ويناديه : أبشر يا هاشم ، سيظهر من ذريتك أكرم الخلق على الله تعالى خاتم النبيين . وكان هاشم إذا مشى فى الظلام نارت منه الحنادس ، ويرى من خلفه كما يرى من أمامه مثل ضوء المصباح . فلما حضرت عبد مناف الوفاة أخذ عليه العهد والميثاق على أنه لايودع نور رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى الأرحام الزكية ، فقبل هاشم العهد وألزمه نفسه . وجعلت ملوك العرب تتطاول إلى هاشم ليتزوج منهم ، ويبذلون إليه المال الجزيل وهو يأبى عليهم .

وكان كل يوم يمضى إلى الكعبة ويطوف بها سبعا ويتعلق بأستارها . وكان إذا قصده قاصد أكرمه ، وكان يكسو العريان ، ويطعم الجيعان ، ويفرج عن المحزون ، ويوفى عن المديون دينه ؛ وكان بابه لايغلق عن الصادر والوارد ، وإذا أولم وليمة وأطعم طعاما وفضل منه يأمر به إلى الوحوش والطيور ، حتى حدثوا بكرمه وجوده فى الآفاق كلها ، وعظمه أهل مكة بأجمعهم وشرفوه وسلموا إليه مفاتيح الكعبة والسقاية والرفادة ومصادر أمور الناس ومواردها ، وسلموا إليه لواء نزار وقوس إسماعيل وقميص إبراهيم ونعل شيث وخاتم نوح .



فلما احتوى على ذلك كله ظهر فخره ومجده ، وكان يقوم بالحجاج ويرعاهم ويتولى أمورهم ويكرمهم ، ولا ينصرفون عنه إلا وهم راضون .

قال أبو الحسن البكرى : وكان هاشم إذا استهل هلال ذى الحجة يأمر الناس بالاجتماع إلى الكعبة ، فإذا تكاملوا قام فيهم خطيبا قائلا : يا معاشر الناس ، أنتم جيران الله وأهل بيته ، وإنه سيأتيكم فى هذا الموسم زوّار بيت الله ، وهم أضياف الله ، والأضياف هم أولى بالكرامة ، وقد خصكم الله بهم وبإكرامهم . واعلموا أنهم يأتونكم شعثا غُبرا ، يأتون من كل فج عميق ، يقصدونكم من كل مكان سحيق ، فوقّروهم وأكرموهم يكرمكم الله تعالى .

وكانت قريش تخرج المال الكثير من أموالهم ، وكان هاشم ينصب أحواض الأديم ويجعل فيها ماء من ماء زمزم ، ويملأ باقى الحياض من سائر الأبيار ، ويشرب الحاج ، وكانت عادته أن يطعمهم من قبل التروية بيوم ، وكان يحمل الطعام إليهم إلى منى وعرفة ، وكان هاشم يثرد لهم باللحم وبالسمن والتمر ويسقيهم اللبن إلى حين تصدر الناس من منى ، ثم يقطع الضيافة .

قال البكرى : بلغنا أنه وقع بأهل مكة ضيق وجدب ، ولم يكن عندهم ما يطعمون الحاج ، فبعث هاشم إلى الشام غزل معز ، فباعها واشتروا كعكا وزيتا ، فلما قدم الحاج أطعمهم هاشم من ذلك كله كما جرت العادة ، ولم يترك عنده من ذلك قوت يوم واحد ، كله أطعمه للحاج وصدر الناس عنه يشكرون ، وفيه قال الشاعر :

يا أيها الرجل المحيل رحيله ... هلا مررت بدار عبد مناف

ثكلتك أمك لو مررت بدارهم ... لعجبت من كرم ومن أوصاف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... والقوم فيها مسنتون عجاف

بسطوا إليه الراحتين كليهما ... عند الشتاء ورحلة الأضياف

قال : فبلغ خبره إلى الملك النجاشى ملك الحبشة وإلى قيصر ملك الروم فكاتبوه ، وأرسلوا له أن يهدوا إليه بناتهم رغبة فى الذى كان فى وجهه ، وهو نور محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن رهبانهم وكهانهم أعلموهم بأن ذلك النور نور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى هاشم ذلك ، وتزوج من نساء قومه



ورزق أولادا ، وكان أولاده أسدا ونظرا وعمرا وصفادا ؛ وأما البنات فصعصعة ورقية والشفاء وخلادة ، فهذه جملة الذكور والإناث . وبقى نور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غرته لم يزل ، فعظم ذلك عليه وكبر لديه ، فلما كان فى بعض الليالى وقد طاف بالبيت دعا الله تعالى أن يرزقه ولدا يكون فيه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه النعاس فمال إلى البيت ، ثم اضطجع فأتاه هاتف يقول له فى منامه : عليك بسلمى بنت عمرو فانها طاهرة مطهرة الأذيال ، فخذها وادفع إليها المهر الجزيل ، فلن تجد لها شبها فى الناس ، فانك ترزق منها ولدا يكون منه النبى العربى صلى الله عليه وسلم ، فصاحبها ترشد ، وسارع إلى أخذ الكريمة عاجلا ، قال : فانتبه هاشم فزعا مرعوبا ، فأحضر بنى عمه وأخاه المطلب وأخبرهم بما رأى فى منامه وبما قال له الهاتف ، فقال له أخوه المطلب : يا ابن أمى إن المرأة المعروفة كبيرة فى نفسها ، طاهرة مطهرة الأذيال ، قد كملت عفة وملكت اعتدالا وهى سلمى بنت عمرو بن خداش بن زيد بن خدام بن عامر بن غانم بن مازن بن النجار ، وهم أهل الأضياف وأهل العفاف ، وإنك أشرف حسبا ونسبا منهم ، وقد تطاولت إليك الملوك والأكاسرة . وإن شئت كنا خطابا ، فقال لهم هاشم : الحاجة لاتقضى إلا بصاحبها ، وقد جمعت التجارات وأريد أن أخرج إلى غزة الشام للتجارة ، ثم الاتصال بهذه المرأة ، فقال له أصحابه وبنو عمه : نحن نفرح لفرحك ، ونسر بسرورك ، وإنا منتظرون ما يكون من أمرك ؛ قال : ثم إن هاشما أمرهم أن يتهيئوا إلى السفر ، فخرج وخرج معه العبيد يقودون الخيل والجمال عليها أحمال الأديم ، ومعهم الدروع والبيض والجواشن وأخذوا معهم الأوتار ، وهم يومئذ أربعون سيدا من بنى عبد مناف وعامر ومخزوم ، وسار والقوم حوله ، وكان قد نودى بأهل مكة ، فخرج معهم السادات والأكابر والفتيان حتى العبيد والنساء تودع هاشم بن عبد مناف ، ثم أمرهم بالرجوع ، وسار هو وبنو عمه إلى يثرب طالبين بنى النجار .

قال البكرى : فلما ساروا سهل الله سفرهم حتى أشرفوا على يثرب ، فلما وصلوا قدح نور رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرة هاشم حتى دخل المواقد والبيوت ، فلما رآهم أهل يثرب بادروا إليهم مسرعين وقالوا لهم :



من أنتم أيها الناس ؟ فانا لم نر أحسن منكم وجها وجمالا ، ولا سيما صاحب هذا النور الساطع والضياء اللامع . قال المطلب : نحن أهل بيت الله الحرام ، وسكان زمزم والمقام ، نحن بنو كعب بن لؤى بن غالب ، وهذا أخونا هاشم بن عبد مناف ، وقد جئنا إليكم خاطبين وفى ابنتكم راغبين ، وقد علمتم أن أختانا قد خطبته الملوك الأكاسرة والأشراف من ملوك العرب ، وما رغب إلا فيكم ، ونحب أن ترشدونا إلى سلمى . وكان أبوها قد سمع الخطاب ، فقال لهم : مرحبا بكم ، وإنكم أرباب العلا والمآثر . ومنبع الشرف والمفاخر وأنتم السادات الكرام والمطعمون الطعام ، لكم عندنا كل ما تحبون وأفضل ما تطلبون . اعلموا أن المرأة التى جئتم لها خاطبين هى بنتى وقرة عينى وثمرة فؤادى غير أنها مالكة نفسها ، ومع ذلك فإنها خرجت بالأمس إلى سوق من أسواقنا ومعها نسوة من سادات قومها يقال له سوق بنى قينقاع ، فان أقمتم عندنا فأنتم فى العناية والكرامة ، وإن أردتم المسير إليها فذلك هو المراد والنهاية ، ومن منكم الخاطب لها والراغب فيها ؟ فقالوا بأجمعهم : هذا صاحب النور الساطع والضياء اللامع ، سراج بيت الله الحرام ، ومصباح الظلام ، الموصوف بالجود والإكرام هاشم بن عبد مناف صاحب رحلة الإيلاف وصاحب ذروة الأحقاف ، فقال أبوها : بخ بخ ، لقد أعلمتونا قدركم وفخركم ، واعلموا يا من حضر أنى قد رغبت فى الرجل أكثر من رغبته فينا ، غير أنى أخبركم أن أمرى دون أمرها ، أنا أسير معكم إليها ، فانزلوا يا كرام العرب زوارا ، وارحبوا يا أشرف وأفضل وأفخر بنى نزار ؛ قال : فنزل هاشم وأصحابه وحطوا رحالهم ومتاعهم ، وسبق عمرو أبوها وقومه ونحر لهم النحائر ، وأصلح لهم الأكل والطعام ، وخرجت لهم العبيد والإماء بالأجفان ، فأكل القوم من الزاد حسب الكفاية والمراد ، ولم يبق حينئذ أحد من أهل يثرب إلا وخرج ينظر إلى هاشم وإلى النور الذى يلمع فى وجهه ، وخرجت الأوس والخزرج وإلياس وربيعة ومضر وجميع الناس كلهم يتعجبون من ذلك النور المضىء فى وجه هاشم ؛ قال : وخرجت اليهود وأحبارهم ، فلما نظروا إليه عرفوه بالصفة والعلامة المذكورة عندهم ، فعظم ذلك عليهم وكبر ما لديهم ،



وبكوا بكاء شديدا ، فقال لهم بعض أصحابهم : يا ساداتنا مالكم تبكون ؟ فقال أحبار اليهود لأصحابهم : بكاؤنا وحزننا من هذا الرجل الذى يظهر ، قالت لهم أصحابهم : وما صفته حتى نعرفها ؟ فقال لهم أحبارهم : اعلموا أنَّ هذا الرجل يظهر من ذرِّيته رجل يكون منه بواركم وخراب دياركم واسمه فى كتبنا السفاك الهتاك الذى تقاتل معه الأملاك ، المعروف فى الكتب بالماحى ، مشكور الوقائع فى سائر النواحى . قال : فبكى اليهود من قولهم وقالوا : يا ساداتنا هل هذا الذى تذكرونه نصل إلى قتله ونكفى شرَّه ؟ فقالوا لهم : هيهات هيهات ؟ حيل بينكم وبين ما تشتهون ، ولقد عجزتم والله عما تأملون ، إن هذا المولود الذى نذكره لكم تقاتل معه الأملاك فى الجوّ ، ويخاطبه الملك الأعلى من السماء ، وينزل عليه الملك بالوحى من رب العالمين ، فيقول للناس : قال جبرائيل عن الله عز وجل هذا ، ويكون الولد أعز من الوالد ، هو أكرم أهل الأرض على الله تعالى وأكرم أهل السموات ، فقالوا : نحن نسعى فى إطفاء ذلك النور قبل أن يتمكن ويحدث لنا منه مكروه ؛ وأضمر القوم لهاشم البغض والعداوة ، وكان سبب البغض والعداوة من اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الزمان وذلك اليوم إلى يومنا هذا .

فلما أصبح الصباح أمر هاشم أصحابه أن يلبسوا أفخر ثيابهم وأن يظهروا زينتهم ، فلبسوا كل ما كان عندهم من الثياب الفاخرة وما كان عندهم من الزينة ، وأظهروا البهجة والجمال ولبسوا التيجان والدروع والمغافر والجواشن والبيض وتقلَّدوا بالسيوف واعتقلوا بالرماح وركبوا الخيل العتاق ، وأقبلوا يريدون سوق بنى قينقاع وقد شدوا لواء نزار على رمح طويل معتدل الأنابيب مستقيم الكعوب ؛ وحمله هاشم على يديه ، وأحاطت به قومه وهاشم بينهم كالقمر المضىء الطالع فى السماء الصاحية ، وهم عن يمينه وشماله ؛ والعبيد أمامه وأبو سلمى وأصحابه وأشراف أهل المدينة وأكابر قومه وجماعة من كبار أحبار اليهود . فلما أشرفوا على سوق بنى قينقاع ، وكان يجتمع فيه الناس من أقصى البلاد وأقطارها البدو والحضر ، ولما أشرف هاشم وأصحابه إلى السوق ونظر إليهم أهلها ، تركوا معاشهم وبيعهم وتجارتهم وأقبل جميعهم ينظرون إلى هاشم وأصحابه ، ويتعجبون من حسنه وجماله ، وكان هاشم بين أصحابه كمثل



البدر الطالع بين الكواكب وعليه الهيبة والوقار ، فذهلت عقولهم وطاشت نفوسهم حين نظروا إليه وإلى جماله وكماله والنور الذى يزهو بين عينيه .

قال أبو الحسن البكرى : هذا وسلمى بنت عمرو واقفة مع الناس تنظر إلى هاشم وإلى هيبته وحسنه وجماله وكماله وقدّه واعتداله وحسن صورته وما عليه من الهيبة والوقار ، وهى قبل ذلك اليوم تتعجب فى نفسها من حسن صورتها وجمالها ، فلما نظرت إلى هاشم ورأت النور يلمع من جبينه كنور الشمس ندهش لبها وطار عقلها وحقرت عند ذلك نفسها واستصغرت حسنها وجمالها ؛ فلما دخل عليها أبوها قالت : يا أبتِ بشِّرنى ، قال أبوها : اعلمى يا سلمى أن هذا هاشم صاحب الوجه الصبيح والعقل الرجيح والأنامل الكريمة ، قد أتى فيك راغبا ولك خاطبا ، وهو يا سلمى من الكفاءة والعفاف المعروف عند قبائل العرب بالجود والإنصاف هاشم بن عبد مناف ، وإنه لم يخرج من الحرم لغيرك ، فلما سمعت سلمى من أبيها ذلك الكلام أعرضت وجهها وأدركها الحياء منه وسكتت عن رد الجواب ساعة ، ثم قالت يا أبت : إن النساء يفتخرن بالحسن والجمال والبهاء والكمال ، فاعلم إذا كان زوج المرأة جميل الوجه نقىّ العرض كريم الأنامل مليح المنظر سيدا من سادات العرب ، فما يكون عذرى وقد تعلم ماجرى بينى وبين أحيحة بن الجلاح الأوسى وكيف خلّصت نفسى منه ، لما علمت أنه لم يكن من أهل الكرم ولا من أهل الكفاءة والعفاف . واعلم يا أبتِ أن هذا الرجل الكريم يدل على مروءته وإحسانه ونور وجهه وفخره ، فإن كان القوم كما ذكرت قد خطبنى الأشراف ورغبوا فىّ فإنى فيهم راغبة ولهذا الرجل الكريم من دونهم طالبة ، والآن لابد لى منه يا أبت أطلب المهر الجزيل ولا أصغر حالى بين الناس ، وسيكون لنا ولهم خطاب وجواب ، وكان ذلك القول منها لأبيها محالا ؛ لأنها لم تنطق بذلك إلا حياء من أبيها . فلما نزل هاشم قريبا من السوق وقد اعتزل بأصحابه ناحية من الناس فى خيمة من الخز الأحمر ، ونصب له كرسى ليجلس عليه وكراس لأصحابه من حوله ؛ فلما دخل هاشم فى الخيمة وأصحابه قد تفرّقوا إلى السوق : عنه وجعل يسائل بعضهم بعضا عن أمر هاشم ، ويسألهم أهل السوق ما الذى أقدم هاشما من مكة إلى المدينة ؟ فقالوا لهم : إنه قد جاء خاطبا لسلمى ، فحسدها عليه



جميع الناس ، وكانت سلمى أيضا أجمل أهل زمانها وأحسنهم وأكملهم ، وكانت لطيفة القد قائمة النهد معتدلة ، لها منظر حسن كاملة الحسن والأوصاف ، ناعمة الوجه والأطراف ، سريعة الجواب بديعة الآداب ، عاقلة ظريفة لطيفة شريفة لبيبة عفيفة منزهة عن الأرجاس ، مطهرة من الأدناس ، وكلهم حسدوها على هاشم حتى إبليس لعنه الله قد حسدها ، وكان قد تصوّر بصورة رجل كبير محني الظهر ، ثم أقبل يمشي إليها يتعكّز على عصاه وقال لها : ياسلمى اعلمي أني من أصحاب هاشم بن عبد مناف ، وقد جئت إليك بصحة خبره ، وهي نصيحة مني إليك : اعلمي يا سلمى أن صاحبنا هذا قد أعطى حسنا وجمالا وبهاء مما قد رأيت ، ولكنه ملول لنكاح النساء ، وليس تقيم الجارية عنده أكثر من شهر إن زاد ، وإلا عشرة أيام لاغيرها ، وهو قد تزوّج من جواري بنات العرب كثيرا ، ولا تقيم عنده المرأة غير ما ذكرته لك ، وبعد هذا فانه جبان في الحرب ، فقالت له سلمى : إليك عني يا هذا ، إن كانت هذه صفته فوالله لو ملأ لي حصون خيبر ذهبا وجوهرا ما أجبته ولا رغبت فيه لما ذكرت لي من خصاله ، وقد قلّت رغبتي فيه ، انصرف أيها الرجل إلى صاحبك فليس لي فيه رغبة .

قال الراوي : فانصرف إبليس عن سلمى وتركها في همها وغمها ؛ قال : ثم إن إبليس لعنه الله تصوّر أيضا إلى سلمى بصورة شاب حسن الثياب وأقبل إليها وقال : أنا من أصحاب هاشم ، وذكر لها كلاما أفحش من كلامه الأوّل ، فقالت : قل لصاحبك لايرسل إليّ رسولا بعد ذلك ولا يخطبني فاني لاأريده ، وإن أرسل بعد ذلك رسولا ضربت عنقه ؛ فعند ذلك خرج إبليس لعنه الله فرحا مسرورا ، وقد طرح في قلبها البغض والعداوة لهاشم ، وظنّ إبليس لعنه الله أنه إذا قال هذا الكلام رجع هاشم خائبا من تزوّج سلمى .

قال الراوي : فلما أصبح الصباح دخل عليها أبوها فرآها تبكي وتصفق بيديها وهي في محنة عظيمة وحيرة شديدة ، فقال لها أبوها : يا سلمى وما الذي حلّ عليك من البلاء ؟ وإن هذا اليوم يكون فيه فرحك وسرورك ؛ قالت سلمى : ياأبت لاتزدني هما وغما وقد فضحتني وشهرت أمري وتريد أن



تزوجنى برجل ذليل فى الحرب جبان عند لقاء الأبطال ملول للنساء كثير الطلاق والتزويج بخيل بالطعام . فلما سمع أبوها ذلك الكلام منها ضحك فى وجهها ضحكة الغضب وقال : والله يا سلمى ما فى هذا الرجل مما ذكرتيه شىء ، هذا مليح الوجه ، وليس له مناظر فى الجود والكرم ، وإنما سمى هاشما لأنه أوّل من هشم الثريد للضيفان ، وأما قولك إنه ملول النساء كثير الطلاق فإنى مطلع على خبره ما طلق امرأة أخذها قط فى عمره ، وقولك إنه جبان فى الحروب خوار عند لقاء الأبطال فهو واحد عصره وفريد زمانه وقليل مثله فى الشجاعة ، وإنه معروف عند الناس فى الحروب بالموت الصائب والنجم الثاقب . قالت سلمى : يا أبت لو جاءنى من عنده رسول لقلت إنه عدوّ حاسد ، إلا أنه جاءنى منه اثنان كل واحد يقول مقال الأوّل ، فقال أبوها : والله ما رأيناه أرسل رسولا ولا جاء من عنده خبر ، ثم خرج أبوها من عندها وتركها فى همها وغمها ، وقد صح عندها قول إبليس الملعون وأخذ بعقلها ، وكان الشيطان فى ذلك الزمان يظهر للناس جهرا ويأخذ بعقولهم ويأمرهم وينهاهم ويظنونه من بنى آدم . هذا وهاشم لايعلم بشىء من ذلك ، وكان قد عوّل على خطبتها . قال : ثم إن سلمى خرجت فى بعض حوائجها وهى مشتاقة إلى نظر هاشم ، فجمع الله بينه وبينها فى الطريق ، وكان قد وقع فى قلبها من حبه شىء عظيم ، وكان ذلك الزمان لاتستحى النساء من الرجال ، ولا يضربن عليهن حجابا إلى حين بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم .

قال الراوى : فلما اجتمعت سلمى وهاشم فى الطريق عرفته بالنّور الساطع والضّياء اللامع ، وعرفها هاشم كذلك ، فقالت له يا هاشم : قد أحببتك وأردتك ، فاذا كان غدا فاطلبنى من أبى ولا يعز عليك ما يطلب منك من المهر ، فان لم تصله يدك ساعدتك . قال : فلما أصبح الصباح تأهّب هاشم مع أصحابه وتزينّوا بزينتهم ، وإذا بأهل سلمى قد قدموا عليهم ، فقام كل من فى الخيمة إجلالا لهم ، وجلس هاشم وبنو عمه فى صدر الخيمة ، فتطاول القوم إلى هاشم بالأعناق ، ثم ابتدأهم المطلب بالكلام فقال : يا أهل الشرف والإكرام والفضل والإنعام ، اعلموا بأنّا نحن أهل بيت الله الحرام ، والمشاعر



العظام وزمزم والمقام، وإلينا تسعى الأقدام ، وأنتم تعلمون شرفنا وسؤددنا وما قد خصنا الله به من النور الساطع والضياء اللامع ، ونحن بنو لؤى بن غالب قد انتقل هذا النور إلى عبد مناف ، ثم إلى أخينا هاشم وهو سيدنا ، وهذا النور الذى ترونه نور خلقه الله فى وجه آدم إلى أن صار إلى هاشم سيدنا، وهو يجرى من ظهور طاهرات إلى بطون مطهرات ، وقد ساقه الله لكم وقدّمه إليكم ، فنحن لكريمتكم خاطبون وفيكم راغبون . فقال أبو سلمى : ولكم التحيّة والإكرام ، ولكم الإجابة والإنعام ، وقد قبلنا منكم خطبتكم وأجبنا دعوتكم ورضينا وسيلتكم ، وأنتم تعلمون عاداتنا ولا تخفى عليكم أحوالنا ،ولا بد من تقديم المهر كما كان حال أسلافنا وأسلاف أجدادنا ، ولولا ذلك ما واجهتكم بشىء من ذلك ولا قابلتكم به أبدا . قال : فعند ذلك تكلم المطلب وقال : لكم عندى مائة ناقة سود الحدق حمر الوبر لم يعلها بعل من الجمال .

قال الراوى : فبكى إبليس لعنه الله تعالى ، وكان جالسا فى جملة من حضر قبال أبى سلمى وأشار إليه بأن يطلب الزيادة ، فقال أبو سلمى : يا معشر القبائل والسادات ما هذا قدر ابنتنا عندكم ، فقال المطلب : ولكم عندنا ألف مثقال من الذهب الأحمر ، فغمزه إبليس إلى الزيادة من هاشم ؛ فقال أبو سلمى : يا فتى قصّرت فى حقنا بما ذكرت وقللت فيما بذلت ، فقال : ولكم عندى حمل بعير من العنبر وعشرة ثياب من أقباط مصر وعشرة ثياب من العراق فقد أنصفناكم ؛ فغمز إبليس أبا سلمى لطلب الزيادة ، فقال أبو سلمى للمطلب : يا فتى لقد قاربت ؛ قال المطلب : ألف نعمة لكم وألف كرامة ، ولكم أيضا خمس وصائف برسم الخدمة ، فهل تريدون أكثر من ذلك ؟ فأشار إليه إبليس اللعين بطلب الزيادة ؛ فقال أبو سلمى : يا فتى الذى بذلتموه لنا هو راجع إليكم ؛ فقال المطلب : ولكم عندنا عشر أواق من المسك الأذفر وخمسة أقداح من الكافور الخاص فهل رضيتم بهذا أم لا ؟ فهمّ إبليس اللعين أن يغمزه ، فصاح أبو سلمى صيحة عظيمة وقال : قم واخرج يا شيخ لقد جئت شيئا نكرا ، فوالله إنك قد أخجلتنى وقد أسرفت فى المقال ؛ فقال له المطلب اخرج يا شيخ السوء ؛ قال : فقام الشيطان وقال : يا عمرو الذى أعطوك مهر ابنتك قليل ، وإنما أردت أن تطلب من القوم ما تفتخر به ابنتك



على نساء قومها، ولقد هممت أن أشير إليك أن تشرط عليهم أن يبنوا لها قصرا يكون طوله عشرة فراسخ وعرضه مثل ذلك ، ويكون ذلك القصر شاهقا في الهواء باسقا في السماء ، وفي أعلاه مجلس تنظر منه إلى إيوان كسرى وإلى المراكب المنحدرات في البحر ، ثم يجلب إليه نهر من الدجلة أو الفرات تجرى فيه المراكب ، ثم يغرس على باب القصر نخلات معتدلات لاينقطع ثمرها لاصيفا ولا شتاء . فلما سمع المطلب ذلك الكلام منه قال : لقد أسرفت في قولك يا شيخ السوء ، من هذا الذى يصل إلى ما نطقت به ؟ قال : فصاح من كان حاضرا ، وكان مراد إبليس لعنه الله انفساخ المجلس ، ثم قال : أرملون بن قيطور ، وكان من اليهود ، وكان في ذلك المجلس بجماعة معهم قال اليهودى : يا قوم إن هذا الشيخ عندنا من الحكماء وهو معروف في بلدنا من العلماء ، وفي بلاد العراق والشام ، ولا نزوّج بناتنا إلا بمشورته ، ولا نزوّج بناتنا لرجل غريب ، ثم قامت اليهود بأجمعهم وهم أربعمائة يهودى وفيهم إبليس ، وسادات الحرم كانوا أربعين سيدا ، فقاموا من وقتهم وساعتهم وجرّدوا سيوفهم ، ثم قال هاشم لأصحابه : دونكم اليهود فان هذا تأويل رؤياى ، فقامت الصيحة في اليهود ، ووثب المطلب على أرملون بن قيطور وهو كبيرهم ووثب هاشم على إبليس ، فأراد إبليس الهرب من هاشم فلحقه وجذبه ورفعه في الهواء وضرب به الأرض ، فصاح إبليس صيحة عظيمة لما غشيه من نور النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم إن إبليس لعنه الله قام من الأرض واستوى على دخان أسود وطار في الهواء والناس ينظرون إليه بأجمعهم .

قال الراوى : فالتفت هاشم إلى أخيه المطلب فوجده قد قتل أرملون بن قيطور وقسمه نصفين ،وهاشم وأصحابه قتلوا من اليهود خلقا كثيرا ، ووقعت الرجفة في المدينة ، وخرجت النساء والرجال ، وانهزمت اليهود على وجوههم ورجع أبوسلمى وقال : مزجتم الفرح بالترح ، وكان سبب الفتنة إبليس لعنه الله تعالى ، فرفع السيف هاشم والمطلب عن اليهود بعد أن قتل منهم سبعين رجلا ، وكان ذلك سبب عداوة اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم . قال : ثم إن هاشما قال لأصحابه هذا تأويل رؤياى ، ثم إن اليهود افتقدوا الحبر فلم يجدوه ، فقال هاشم : يا معاشر اليهود إنما أغواكم الشيطان الرجيم



فانظروا إلى أصحابكم ، فإن وجدتموه فأنتم غاوون ، ولكن اعلموا أنه قد حيل بينكم وبينه ، وظننتم أنه حبر من أحباركم وما هو إلا الشيطان الرجيم الغوىّ قد أغواكم ؛ ثم إن أبا سلمى عمد إلى صلاح شأنه ، ورجع القوم إلى مكانهم وحطوا أسلحتهم وقد امتلئوا غيظا وحنقا على اليهود . قال : فلما جلس هاشم وأصحابه مضى أبو سلمى إلى منزله ، وأصلح الولائم ونحر الإبل والغنم ، وأمر العبيد أن تملأ الأجفان من اللحم واللبن والخبز والفواكه ؛ ثم إن عمرا أبا سلمى مضى إلى بيته وقال لها : يا ابنتى إن الرجل الذى قال لك إن هاشما لجبان فى الحرب فقد نطق بالمحال والإفك ، والله لولا أنى أمسكته وأقسمت عليه وعلى أصحابه ما كان ترك من القوم أحدا ، فقالت سلمى : يا أبت افصل الأمر معهم على كل حال ولا تطع ملامة اللائم . قال : فلما أكل هاشم وأصحابه الطعام ورفعوا أيديهم أقبل عليهم أبو سلمى وقال : يا معشر السادات الكرام اصرفوا عن قلوبكم الغيظ ، وأزيلوا عن نفوسكم كل همّ وغم وحزن ، فنحن وابنتنا لكم هدية ؛ فقال المطلب : يا أيها السيد الكريم لك عندنا كل ما ذكرنا وزيادة ، ثم قال لأخيه هاشم : أرضيت يا أخى بما تكلمت به عندك ؟ فقال هاشم : رضيت بما شرطت علىّ ؛ قال : فعند ذلك تصافحوا ثلاثا لجرى عادتهم بذلك لعقد النكاح . قال : فعند ذلك مضى أبو سلمى لمنزله وأخرج مكتلا من دنانير ودراهم ونثرها على رأس هاشم ، ونفض عليهم سحيق المسك الأذفر والكافور والعنبر حتى غمر أطمارهم ، ثم قال أبو سلمى لهاشم : أتحب الدخول على زوجتك فى هذه الليلة أو تصبر عنها حتى تصلح شأنها ؟ فعند ذلك أمر بتقديم مطاياهم وتهيّئوا إلى الخروج ، ثم إنه دفع إلى أخيه المطلب كل ما حضر عنده من الأموال وأمره أن يدفعه إلى سلمى . قال : فلما وصل إليها المطلب وأخبرها بالخبر كله وبعقد النكاح فرحت سلمى واستبشرت ورضيت بذلك الأمر ، فدفع المال إليها فقبلت وقالت : يا سيد الحرم وأكرم من مشى على قدم ، سلم لى على أخيك وقل له إن رغبتى فيه ، ثم قالت سلمى للمطلب ما أقوله لك من كلام خفى يكون سرا بينى وبينك ، فقال لها قولى ما أنت قائلة يا سلمى ؛ قالت : قل لأخيك هاشم إنى امرأة كثيرة



الغضب ولست أطيق الجفاء من الرجل أبدا ، وكان لى بعل كثير المال وسيد من سادات قومه اسمه أحيحة بن الجلاح الأوسى ، وكان أميرا فى قومه ، فلما تزوّج بى شرطت عليه أنه متى أساء إلىّ بكلمة الغيظ فارقته فى الحال ، وكان من قصتى أنى رزقت منه ولدا ، فلما أردت أن أفارقه لم أجد لى حيلة عليه ، غير أنى أخذت خيطا وربطته فى رجل الولد ربطا قويا حتى صاح الولد من ذلك طول ليله وأبوه راقد إلى حين انتبه ، فقال لى يا سلمى اجلسى أرضعى ولدك فقد آذانى ببكائه ؛ فلما سمعت منه ذلك الكلام امتلأت منه غيظا وحنقا ففككت الخيط من رجل الصبى فنام ونام أبوه ، فلما علمت أنهما قد رقدا قمت وانحدرت من على السرير ، وكان قد مضى ثلثا الليل ، فمشيت تحت الليل حتى أتيت إلى أهلى ، فلما أصبح الصباح انتبه من نومه فلم يجدنى معه ، فعلم أنها كانت حيلة عليه ولم يقدر بعد ذلك على وصالى أبدا ، وأنا يا مطلب قد حدثتك بهذا الحديث لتحذر به أخاك هاشما لكى لايخفى عليه شىء من ذلك ولا يشتغل عنى بنسائه ؛ قال : فعند ذلك قال المطلب : اعلمى يا سلمى أن أخى هاشما قد خطبته نساء الأشراف وبنات الأكابر والعرب من قريش وغيرهم وقد تطاولت إليه الملوك يخطبونه لبناتهم ورغبوا فى تزويجه فأبى عليهم حتى أتاه هاتف فى منامه ثلاث ليال وأخبره بخبرك ؛ فرغب فيك وقصد أن يستودعك النور الذى فى وجهه نور النبى الشريف الذى أسكنه الله فى صلب ظهره ، ذلك أمر من الله تعالى إليه ، وهو مستودع نور خاتم الأنبياء ، فنسأل الله تعالى أن يتم لكما الهناء والكرامة والفرح والسرور والإكرام والحبور وكفاكم الله الشر والمحذور ؛ قال : ثم إن عبد المطلب خرج من عند سلمى ومضى إلى أخيه هاشم وأخبره بما قالت له من الجواب ، فضحك هاشم من كلامه وقال : يا أخى قد بلّغت رسالتك .

قال الراوى : ثم إن هاشما أقام بعد ذلك عشرة أيام ، ثم دخل على زوجته سلمى فى مدينة يثرب ، وحضر عرسها جميع الحاضرين فى البلاد من جميع الآفاق من الأعاجم والأعراب . فلما دخل عليها رأى منها كل ما يسره من الحسن والجمال والبهاء والكمال ؛ ثم إن سلمى دفعت إليه جميع المال الذى دفعه إليها هاشم للمهر وزادته عليه مقدار ذلك المهر عشر مرات ، فلما جامعها



هاشم حملت منه فى ليلتها بعبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ثم إن هاشما أقام معها فى عز وخير ، وبقى أهل يثرب كل يوم يعملون الولائم
ويطعمون الناس إكراما لهاشم وأصحابه . وأما سلمى فانها قد زاد حسنها وجمالها
على نساء يثرب وهم يهنونها بالشرف العالى الذى خصها الله تعالى به من دون
النساء ، والله أعلم .

إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ،
يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

قال البكرى : لما تزوّج هاشم بن عبد مناف ودخل على سلمى بنت عمرو
ابن يزيد النجارى حملت منه بعبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فانتقل النور الذى كان فى وجه هاشم إلى وجه سلمى بنت عمرو ، فزاد حسنها
وجمالها ، وشاع فى جميع الأقطار والأمصار ، وكانت إذا مشت فى شوارع
المدينة تناديها الأشجار والأحجار بالتسليم ، ولم تزل تحدث الخلق بما ترى
وهاشم يحذرها ويكتم أمرها عن الناس ، فلما كانت ليلة من الليالى سمعت
سلمى هاتفا :

لقد سعدت بأكرم من مشى ... بخير النّاس من حضر وباد
محمد النبي فدته روحى ... شفيع النّاس فى يوم التناد

قال : فلما سمعت ذلك من الهاتف علمت بالحمل وأخبرت هاشما بذلك .
قال : ثم إن هاشما أقام فى المدينة أياما قلائل حتى اشتهر أمر سلمى بالحمل ، ثم
عزم على السفر إلى غزة بالشام وأوصى زوجته سلمى وقال لها : إنى قد
أودعتك الوديعة التى أودعها الله تعالى لآدم عليه السلام ، وآدم أودعها لولده
شيث ، وشيث أودعها لولده ، ولم يزالوا يتوارثونها من واحد إلى واحد ،
ومن جدّ إلى جد حتى وصل إلينا ، وأنا أوصيك بأن تحفظيه ، وإذا أتيت به
وأنا غائب فليكن عندك بمنزلة الحدق من العين والروح بين الجنبين ، وإن
قدرت أن لا تراه عين فافعلى ، فإن له حُسَّادا وأضدادا ، وأشدّ الناس عداوة
له اليهود ، وقد رأيت ما جرى بيننا وبينهم فى خطبتك ، وإن لم أرجع من
سفرى فليكن عندك محفوظا مكرّما إلى أن يترعرع ، واحمليه إلى الحرم عند



عمومته فى دار عزه ونصره ؛ ثم قال لها : سمعت وأطعت ماقلت لك ؟ قالت نعم سمعت وأطعت ، ولك عندى كل ما سألت ، ولقد أوجعتنى بكلامك وآذيتنى بنطقك ، وأنا أسأل الله تعالى أن يردك سالما . قال : ثم خرج هاشم وأصحابه وأخوه المطلب وقال لهم : يا بنى أبى وعشيرتى من بنى لؤى ، إن الموت لابد منه ، وأنا مسافر عنكم ولا أدرى أأنا راجع إليكم أم لا ؟ وأنا موصيكم : فإيَّاكم والتفرُّق والشَّتات ، فتذهب حميَّتكم وتقلّ قيمتكم وتهون مقدرتكم عند الملوك ويطمع فيكم الطامع ، فهل أنت يا أخى لما أقول لك سامع ؟ وأنتم يا إخوتى وأبناء عشيرتى ؟ إنى مخاف فيكم ومقدم عليكم أخى المطلب شقيق لأبى وأمى وأعز الخلق عندى ، فان سمعتم وصيتى فقدموه عليكم ، وسلِّموا إليه مفاتيح الكعبة وسقاية الحاج ولواء نزار والأوتار ونعل شيث وقميص إبراهيم الخليل وقوس إسماعيل وخاتم نوح والحجابة والرفادة ، وكل ما كان من مكارم الأنبياء ، وكل ما كان لعبد مناف ، فان فعلتم ذلك فقد سعدتم ، وإننى أوصيكم بولدى عند سلمى ، فان له شأنا عظيما ومجدا رفيعا فلا تخالفوه فى القول ، فقالوا كلهم سمعنا وأطعنا غير أنك كسرت قلوبنا بوصيتك وأزعجت أفئدتنا بقولك . قال : ثم إن هاشما سافر إلى غزة الشام بالتجارة ، فحضر الموسم وباع أمتعته واشترى لسلمى تحفا سنية ، ثم تجهز للسَّفر ، فلما كان فى الليلة التى عزم على الرحيل إلى وطنه راجعا طرقته حوادث الزمان وأصبح مثقلا وارتحل عنه أصحابه وغلمانه وعبيده بعد أن أمرهم بالمسير ، فقال لهم : الحقوا بأصحابكم وأهلكم فإنى هالك لامحالة ، وارجعوا إلى مكة ، وإن مررتم بيثرب فاقرئوا سلمى منى التحية والسلام وأخبروها بخبرى وعزُّوها فى شخصى وأوصوها بولدى فانه أكبر همِّى ، ولولاه ما نلت أمرى .

قال الراوى : فبكى القوم بكاء شديدا وقالوا : لن نبرح عنك حتى ننظر ما يكون من أمرك . قال : وأقاموا عنده يومهم وليلتهم ، فلما أصبح الصباح ترادف عليه المرض واشتد عليه القلق ، فقال له أصحابه : كيف تجد نفسك ؟ فقال : لامقام لى معكم أكثر من يومين مضى يوم وغدا توسِّدونى فى التراب ،



فبكى القوم كلهم لمقالته وعلموا أن روحه مفارقة الدنيا . قال : فلم يزالوا ساهرين معه حتى طلع الفجر الأول واشتد به القلق والمرض ، فقال لهم هاشم : أقعدونى وأسندونى وائتونى بدواة وقرطاس ، فجعل يكتب وأصابعه ترتعد وهو يقول : باسمك اللهم هذا كتاب كتبه العبد الذليل الذى أمره مولاه بالرحيل ، أما بعد : فإنى كتبت هذا الكتاب وروحى تجذب ، وما لأحد عن هذا مهرب ، وإنى قد أنفذت إليكم جميع أموالى تقاسموها بينكم بالسوية ، ولا تنسوا المرأة الجميلة الفاضلة الجليلة النازحة الغريبة الغائبة عنكم التى أخذت نوركم وحوت عزكم سلمى وولدها ، فلا تنسوهما ، وأوصيكم بولدى الذى منها ، وقولوا لخالدة وصفية ورقية بناتى يبكيننى بالكآبة والحزن والفجاعة ، ويندبننى ندب الثكالات ، وبلّغوا عنى سلمى وولدها إذا وضعت التحية والسلام الخاص والعام وقولوا : آه ثم آه على وصالها ، فانى كنت لأشبع من وصالها ولا من النظر إليها ولا إلى ولدى ، والسلام عليكم يا أهلى وأخواتى وأولادى ، سلام مودّع إلى يوم النشور . قال : ثم إنه طوى الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إلى أصحابه وقال لهم : أضجعونى ، فأضجعوه ، فشخص ببصره نحو السماء ثم قال : رفقا أيها الرسول بحق ما حملت من نور محمد المصطفى ، فكأنّ وجهه مصباح وانطفأ ، فمات رحمة الله عليه ، فقاموا إليه وجهّزوه ودفنوه ، وقبره معروف هناك ، ثم قام غلمانه وعبيده وتباكوا عليه وحملوا متاعهم وهمّوا بالرحيل ، وعلى هذا المعنى أنشأ المؤلف يقول :

اليوم هاشم قد مضى لسبيله ... يا عين جودى منك بالعبرات
وابكى على البدر المنير بحرقة ... وابكى على الضرغام طول حياتى
إن ابن كعب قد مضى لسبيله ... يا عين فابكى الجود والحسنات
سمح العريكة لا به لوم ولا ... فشل غداة الرّوع والكربات
يا عين إبكى جود غيث هاطل ... أعنى ابن عبد مناف ذا الخيرات
ابكى لأكرم من مشى فوق الثرى ... فلفقده قد أذرفت العين بالعبرات

قال الراوى : وساروا وناحوا بأعلى صوتهم حتى قدموا على يثرب ، فلما أشرفوا عليها بكوا ونادوا بأعلى صوتهم : يا هاشماه يا عزّاه ، فخرجت الناس إليهم من كل ناحية ومكان ، وخرجت سلمى حاسرة الرأس والثياب ، وأبوها

وقومها نظروا إلى مطاياهم التي كانت لهاشم قد جزوا نواصيها وشعورها وكل جنيبة ومطية عليها خيال من ثياب هاشم، وعبيده وأصحابه يبكون عليه من حول المطايا . قال : فلما سمعت سلمى بكائهم على هاشم لطمت خدها ونشرت شعرها وأعلنت بالويل والثبور وصاحت وقالت : واحزنى عليك يا هاشم ، واكربتي عليك ، واحسرتي من بعدك ، فقد مات والله الكرم والفضل والجود والشجاعة ، يا هاشم يا نور عيني ، واحزنى يا أسفى على ولدك المحبوب عندك من دون أولادك كلهم ولم تره ولم يرك . قال : فلما سمع الناس بكاء سلمى ونحيبها أعلنوا بالبكاء والصياح والعويل والحزن . قال : ثم إن سلمى أخذت سيفا من سيوف هاشم وأقبلت على مطايا هاشم فعقرتها وحسبتها على نفسها من مال التركة ، وقالت لوصيّ هاشم : أقرأ المطلب مني التحية والسلام ، وقل له إني على عهد أخيك هاشم مقيمة ، وإن الرجال عليّ بعده حرام . قال : ثم إن العبيد والغلمان ساروا إلى مكة وقد سبقهم الناعي إلى أولاده ونسائه ، فأقبل أهل مكة وقريش وهنّ ناشرات الشعور مشققات الجيوب ، وسادات بني عبد مناف لابسين ثياب العزاء ، وتقدمت خالدة بنت هاشم تلومهم حيث لم يحملوه إلى بيت الله الحرام ، ثم أنشأت تقول :

يا أيها الناعون أفضل من مشى ابكروه فهو الفاضـل الكامل
أسد الشرى ما زال يحمى آله من ظالم أو معتـد بالباطل
ماضى العزيـمة أروع ذو همّة عُليا وجود كالسحاب الهاطل
زين العشـيرة كلها وعمادها عنـد الهزاهز طاعن بالذّابل
إن السميدع قد ثوى فى بلدة بالشام بين صـفائح وجنادل

قال الراوى : فلما فرغت خالدة بنت هاشم أتت إليهم زوجة هاشم بنت سنمار وحثت على رأسها التراب وقالت : بئس العشيرة قد ضيعوا سيدهم وأسلموا عمادهم ، أما كان هاشم عليكم شفيقا إذ نزل به الموت ولم تحملوه إلى بلده وعشيرته حتى نشاهده ، ثم أنشأت تقول :

يا عين جودى وسحى دمعك الهطلا على كريم ثوى فى الشام مرتحـلا
زين الورى الذى عمّ القرب فضله ولم يرى فى يديه مذ نشا بخـلا

فلما فرغت من شعرها أقبلت طليعة زوجة هاشم وهى تبكى وجعلت تقول :

ألا يا أيها الركب الذين تركتمو كريمكم فى الشام رهن مقام
ألم تعرفوا قـــدره وفخاره ألا إنكم أولى الورى بسلام
أيا عبرتى لاتمكثى فقد مضى أخو الجود والأضياف تحت خيام

قال : وكان آخرهن بكاء رقية بنت هاشم تقول :

أيا عين جودى بالبكا والعويل على أخى السخا والفضل الجميل
طيب الأصل فى العريكة مأمن سمهرىّ فى النائبات صقيـل

فبكى القوم لذلك ، وفكّوا كتابه وقرءوه وجدّدوا حزنهم عليه ، ثم إنهم قدموا عليهم أخاه المطلب وسيّدوه عليهم ؛ قال : إن أخى عبد شمس أكبر منى ، وهو أحق بهذا الأمر منى فى هذا المقام ، فقال عبد شمس : والله إنك خليفة أخى هاشم ، قال : فرضى به أهل مكة ، وسلّموا إليه مفاتيح الكعبة والسقاية والرفادة وقوس إسماعيل ونعل شيث وقميص إبراهيم وخاتم نوح وكل ما كان لهاشم من الآلات ، ومواريث الأنبياء السابقة ، وأقام المطلب أياما كثيرة يأمر وينهى .

قال البكرى : فلما أتت ولادة سلمى واشتد بها حملها وجاءها المخاض ، لم تجد لولادتها ألما ولا وجعا ، وإذا هى قد سمعت هاتفا يقول : يا زينة النسوان من بنى النجار بالله عليك اسبلى عليك حجاب الأستار ، واحجبيه عن عيون النظار ، تسعدى بسعد كبير فى جميع الأقطار . قال : فلما سمعت كلام الهاتف أغلقت عليها بابها ، وأسبلت على نفسها حجابها ، وكتمت أمرها ، فبينا هى تعالج بنفسها ما هى فيه ، إذ نظرت إلى حجاب من نور ، وقد ضرب عليها من عنان السماء إلى الأرض إلى أسفل البيت ، وقد حبس الله عنها إبليس وأولاده ، فبينا هى تتفكر فى وحدتها ، إذ أرسل الله إليها ملكا فنفخ فيها فولدت سلمى يومئذ شيبة الحمد ، فقامت من وقتها وساعتها وتولّت أمر نفسها ، فلما وضعته سطع من غرّته نور لامع وضياء ساطع شعشعانى ، وكان ذلك نور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين ولدته أمه سلمى تبسّم ضاحكا ، فتعجبت منه أمه غاية العجب ، فنظرت فى وجهه وإذا فى رأسه شيبة تلوح ، فقالت له : صدق أبوك هاشم حيث سماك شيبة الحمد ، فأنت كما سماك أبوك . ثم إن سلمى أدرجته فى ثوب من الصوف الأبيض



وقمطته ولم تعلم به أحدا من قومها ، حتى مضت له عشرة أيام وهى تلاعبه وهو يضحك فى وجهها . فلما كمل له شهر وعلم الناس بولادته ، أقبلت القبائل إليها فوجدوه يلاعب أمه . فلما صار له شهران مشى ولم يكن يومئذ على اليهود أشد منه عداوة وضررا ، وكان إذا نظر إليه اليهود امتلئوا عليه غيظا وحنقا ، وحسدا وكمدا ، لما يعلمون من صفته فى كتبهم ، وما يظهر منه لتدميرهم وتخريب ديارهم ، وقطع آثارهم وتهديم أساسهم ، وكانت أمه سلمى يركب معها أبطال الأوس والخزرج ، وكانت مطاعة فى جميع قومها وبلادها ، وإذا وقفت به أمه يقف الناس من حوله عكوفا وصفوفا خوفا عليه من أعدائه اليهود .

قال البكرى : وكان شيبة الحمد إذا خرج يلعب مع الصبيان يخرج الناس إليه بجميع أولادهم ، ويفرحون به دونهم لعظم شأنه ونور وجهه ، وكانت سلمى إذا خرج ولدها للملعب أرسلت معه جماعة من قومها يحرسونه ولا تأمن عليه أحدا أجنبيا أبدا . قال : فلما تمت له سبع سنين ، اشتدت قوته وقوى بأسه وعظم مراسه،وظهر للناس كرامته وشجاعته وفضله،وكان شيبة الحمد يحمل الشىء الثقيل بيديه ويصرع الرجل النشيط ، فيشكون إلى أمه مما يفعل بأولادهم من كسر ضلوعهم .

قال البكرى : قد بلغنا أن رجلا من بنى الحارث دخل يثرب فى حاجة له ، فرأى ابن هاشم يلعب مع الصبيان وقد غمرهم بنوره ، فوقف ذلك الرجل ينظر إليه وهو يقول : ما شقى من أنت فى ديارهم ساكن . وكان يلعب بالحصى ويرمى الحجارة الكبيرة فى الهواء ويقول : أنا نبت زمزم والصفا ، أنا ابن هاشم وكفى ؛ قال : فأجابه الرجل وناداه ، فقال له شيبة الحمد : لبيك وما تريد ؟ فقال له الرجل : ما اسمك يا غلام ؟ قال : اسمى شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف ، وأبى مات بالشام ، وقد جفانى أهلى وعمومتى وأقاربى ونسبى من آبائى ، وبقيت يتيما عند أمى ، وأنت يا عم من أين جئت ؟ فقال الرجل : قد أقبلت من مكة ، فقال له شيبة الحمد : يا عم هل تتحمل لى رسالة وتتقلد لى أمانة ؟ فقال الحارث : وحق أبى وأبيك إنى أفعل ما أمرتنى به ، قال : يا عم إذا رجعت إلى بلدك سالما ورأيت أعمامى ، فأقرهم منى



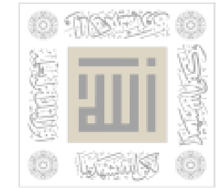
التحية والسلام ، وقل لهم إني معي رسالة من غلام يتيم مات أبوه وجفاه أعمامه وأهله وأنسابه وأقاربه ، يا بني عبد مناف ما أسرع ما نسيتم وصية هاشم ، وضيعتم نسله ، فاذا هبت الرياح من نحو بلد هاشم فروائحهم مثل روائح المسك الأذفر والكافور والعنبر .

قال الراوي : فلما سمع الرجل مقالة شيبة الحمد بن هاشم بكى بكاء شديدا حتى غشي عليه ، فلما أفاق من غشيته قال : إن شاء الله ما أنسى وصيتك . ثم إنه ركب على ظهر ناقته وسار حتى وصل مكة وأدى الرسالة . قال : فلما قصد مجالس بني عبد مناف ، وجدهم كلهم حول الكعبة جلوسا ، فأنعمهم صباحا وقال : يا إخوة الفضل والأشراف وكرام بني عبد مناف ، أراكم غفلتم عن كنز عز ، وتركتم مصباحكم يستضيء به غيركم ، قالوا له : وما ذاك ؟ فأخبرهم بوصية شيبة الحمد بن هاشم ، فقالوا : والله ما ظننا أنه قد صار إلى هذا الأمر كله ، فقال الحرث : والله إن هذا الصبي تعجز الفصحاء عن فصاحته ، ويعجز الليث عن شجاعته ، وإنه والله لفصيح اللسان ، جريء القلب والجنان ، فائق على آداب الغلمان ، في عقله الكفاية ، وفي جماله وبهجته النهاية ، فقال المطلب بن عبد مناف :

أقسمت بالأنفس الماضين من مضر   وهاشم الفاضل المشهور بالكرم
لأمضين إليه الآن مجتهدا   وأقطع السير دون الصحب في الظلم
للسيد الماجد المعروف من مضر   زين الأنام وأهل البيت والحرم

قال الراوي : وكان المطلب أشد أهل زمانه بأسا ، فقال له إخوته : نخشى عليك أمه سلمى ما تدعه يخرج معك إلينا ، لأنها اشترطت على أخيك ذلك ، قال : يا قوم إن لي في ذلك أمرا أدبره إن شاء الله تعالى . قال : ثم إنه تهيأ للخروج ، فأفرغ على نفسه لامة حربه وركب مطيته ، وخرج خفية عن الناس حتى لا يشعر به أحد فيخبر سلمى . ثم إنه سار يجد السير ليلا ونهارا حتى أشرف على يثرب فضيق لثامه ودخل المدينة فوجد شيبة الحمد يلعب مع الصبيان ، فعرفه بالنور الذي أودعه الله فيه ، وهو حينئذ قد رفع صخرة عظيمة وقال : أنا ابن هاشم المعروف بالعظائم .

قال الراوي : فلما سمع عمه كلامه أناخ ناقته وناداه : ادن مني يا ابن أخي




أنا عمك ، فأسرع إليه شيبة الحمد وقال : من أنت من عمومتى ؟ قال : أنا عمك المطلب ، فأسبل عبرته وجعل يقبله وهو يقول : يا ابن أخى إنى أحب أن تمضى إلى بلد أبيك وعمومتك ، وتكون فى دار عزك ونعمتك ، فقال شيبة : نعم يا عم أمضى معك . قال : فركب المطلب ناقته وركب شيبة الحمد معه وسارا ، فقال شيبة الحمد : يا عم أسرع بنا فى السير إنى أخشى أن يعلم بنا قوم جدّى أبى سلمى وعشيرته فيلحقوا بنا ، ويأخذونى منك قهرا ، أما علمت أنه يركب لركوبه أبى سلمى أبطال الأوس والخزرج ؟ فقال له : يا ابن أخى فى الله الكفاية ، وساروا على الجادة الكبيرة ، فأدركهم المساء بذى الحليفة ، فنزلا وسقيا مطيتهما ؛ ثم إن عبد المطلب استوى على مطيته وحط شيبة الحمد قدامه وسارا ، فبينما هما كذلك يسيران ، وإذ قد سمعا صهيل الخيل وقعقعة اللجم وهمهمة الرجال فى جوف الليل ؛ فقال المطلب : يا ابن أخى دُهينا وربِّ الكعبة ، فما الذى تريد أن نصنع ؟ فقال شيبة : يا عم ألم أقل لك إن القوم يلحقون بنا لامحالة ؟ فاخرج بنا عن الجادة إلى الطريق الأوسط ، قال المطلب : وكيف أمرنا ونورك يلمع ، وشعاع وجهك يسطع كالشمس المضيئة ، فانه يدل علينا القوم ، فقال شيبة الحمد لعمه : يا عم استر وجهى بثوبى ، فانى أرجو أن يغيب نظرهم عنى ، ويخفى أمرى عنهم . قال : فأخذ المطلب ثوبا وطواه ثلاث طيات وستر وجهه ، فاذا بالنور قد علا من وجهه ؛ فقال المطلب : يا ابن أخى ، إن لك عند الله شأنا عظيما ومجدا رفيعا ، فان الذى أعطاك هذا النور المضىء ، يصرف عنك كل سوء ومحذور . قال : فبينما هو يخاطب شيبة الحمد وإذا قد أدركتهما الخيل ، وكانوا من اليهود ، فلما نظروا نور شيبة الحمد علموا أنه يخرج من ذرِّيته من يسومهم سوء العذاب ، ويكون منه خراب ديارهم ونهب أموالهم ، وتخمد آثارهم على يديه ، وكان قد بلغهم خروج المطلب بابن أخيه ، فأدركهم الطمع فى قتله فخرجوا فى أثره ، وكان قد خرج فى جمعهم سيد من ساداتهم يقال له لاطية بن دحية اليهودى ، لأنه خرج يوما من الأيام ورأى شيبة الحمد يلعب مع الصبيان ، وقد أخذ شيبة الحمد عظم بعير وضرب ابن لاطية فهشَّم رأسه . قال : فلما علم اليهود أنه خرج مع عمه ولا ثالث معهم ، أسرعوا

وتبعوهم بالأثر ، وكانوا يومئذ سبعين فارسا من اليهود ، فأطلقوا نحوهم الأعنـّة وتقوّموا الأسنـّة ، ولحقوا بشيبة الحمد وعمه ؛ فقال شيبة الحمد : يا عم إن اليهود قد لحقونا لامحالة ، وهم أشد عداوة من دون الناس كلهم . واعلم يا عم أنهم ما جاءوا إلا فى طلبى ، فقال له عمه المطلب : يا ابن أخى لاتخف ولا تحزن ، فوحق رب الكعبة الحرام لايصلون إليك بسوء ولا مكروه أبدا ، فقال شيبة : يا عم أنزلنى عن ظهر المطية إلى الأرض حتى أريك كيف تكون قدرة الله تعالى الذى خلقنى وخلق هذا النور المضىء فى وجهى .

قال الراوى : فأنزله عمه إلى الأرض ، فلما رآه اليهود على الأرض قصدوه ، فجثا على الطريق وجعل يمرّغ وجهه على التراب ويقول : اللهم رب الظلام الغابر والفلك الدائر والبحر الزاخر ، ورب السبع السموات الطّباق ، ويا مقسم الأرزاق ، بحق الشفيع المشفع والنور المستودع أن تردّ عنا كيد أعدائنا . قال : فما استتم كلامه حتى كادت الخيل تهجم بهم ، فبقيت الخيل فى وحل لاتقدر على المسير ، فناداه لاطية بن دحية اليهودى وقال : يا ابن هاشم اصرف عنا هذا الخطاب وكثرة الجواب ومطاولة العتاب ، وأنت يا ابن عبد مناف نسل السادات والأشراف وأهل الكرم والإنصاف ، إنا خرجنا طالبين شيبة الحمد نردّه إلى أمـّه لأنه كان مصباح بلدنا ؛ فقال شيبة : يا ابن دحية أنتم تنظرون إلىّ بعين العداوة والبغض فكيف تقدح المحبة فى قلوبكم لنا ؟ إن ذلك محال أنتم لما رأيتم قدرة الله فيكم علمتم أنكم إلينا لاتصلون ، وإن الله قد حال بيننا وبينكم ، ثم تركهم وأقبل على عمه فقال له عمه : إنك عند الله من الأشراف ومن أهل الفضل . قال : فلما رأت اليهود ذلك من شيبة الحمد وعمه ولـّوا راجعين ، فقال لهم لاطية : يا قوم ألم تعلموا أن هؤلاء القوم معدن السحر والكهانة وهم يتوارثونها جيلا بعد جيل ، فقال له اليهود : نعم يا سيدنا صدقت ، فقال اليهود بأجمعهم : وحق الجبل العظيم إنه قد سحرنا هذا اليتيم وعمه ، وقد سحروا خيولنا ، وإن هذه لمصيبة كبرى أن نرجع عن رجل وصبى خائبين مما قد أردناه فيهما من القتل ، فانما هما اثنان ونحن سبعون فارسا من أبطال اليهود .

قال البكرى رضى الله عنه : فلما علمت اليهود أن خيولهم لاتقدر على الوصول إليهما نزلوا عن خيولهم وجرّدوا سيوفهم ومشوا على أقدامهم حتى



قربوا من شيبة الحمد وعمه . قال المطلب : الآن حقّت الحقائق ولاحت البوارق وزالت العوائق ، فأخذ المطلب قوسه ، وكان قوس إسماعيل عليه السلام وحط فيه نبلة ورمى بها اليهود فقتل رجلا منهم ، وكان عبد لاطية بن دحية اليهودى ، فأتاه سيده وجذب النبلة منه فأخرجها مع روحه قال : فبينما هم متحيرون فى أمورهم إذ رماهم المطلب بنبلة أخرى فأصاب رجلا منهم فى جبهته فخرجت النبلة من قفاه ، فجاء إليه اليهود فوجدوه ميتا ، فصاحوا عليهما بأجمعهم وهمُّوا بالرجوع . فقال لهم لاطية بن دحية اليهودى : هيهات ترجعون وقد كان ما كان بعد قتل هؤلاء ، فعار عليكم الرجوع ؛ فقالوا له : أيها السيد الكريم والبطل العظيم فما الذى تراه لنا من الحيلة فى إهلاكهما ؟ قال لهم لاطية : وكم يا قوم تكون النبل عسى أن تكون عشرة فتصيب منا عشرة ويبقى منا ستون بل يكونون عشرين نبلة فيبقى منا خمسون فارسا ، واعلموا أن النبل ليس يصيب كله ويقتل ، وإذا فرغ النبل ظفرنا بهما وقتلناهما ، وعارٌ علينا رجوعنا عند قومنا بغير قتل وهما اثنان ونحن سبعون فارسا ، فحرّضهم على القتال ولم يكن أشجع منه ولا أشدُّ بأسا منه ، وكان من يهود خيبر . قال : فعند ذلك أخذوا سيوفهم ودرقاتهم وحملوا يريدون شيبة الحمد وعمه ، فناداهم المطلب وقال : يا معاشر اليهود أما كفاكم ما قد حلّ بكم من القتل بالنبل ، ولا شك أنكم قادكم إلينا قرب آجالكم وقصر أعماركم ، فأنتم تزعمون أنكم تظفرون بنا وتريدون قتل ابن أخى وقرّة عينى شيبة الحمد بن هاشم ، فوحق الله لن تصلوا إلينا بسوء أبدا إن شاء الله تعالى . فقال لاطية : يا ابن عبد مناف اعلموا أنما جئنا لنحرسكم من الأعداء ومحبة منا وشفقة على ابن أخيك لأنه تربى فى بلدنا ونشأ مع أولادنا فأردنا أن نؤويه إلى بلادنا نتبرّك به ونرجعه سالما إلى أمه ، فقال لهم المطلب : يا قوم نحن نعلم بأن ليس لنا منكم حبيب ولا شفيق ولا صحيب ، وإقامته عندنا وعند عمومته وأهله أحب إليه من صحبتكم وحبكم ، فانصرفوا عنا ويلكم راجعين ولا تكونوا من النادمين . فقال لاطية : كيف يرجع هذا الجمع خائبا ، وإنما خرجنا إليكم طالبين ، ومرادنا نرد شيبة الحمد بن هاشم إلى أمه سلمى لتقرّ عينها به . فقال المطلب : يا قوم ويلكم أنتم قوم ضالّون ، وقد أكثرتم الكلام وأطلتم الملام ، ثم قال



المطلب لشيبة الحمد : يا ابن أخى إنما مرادى أن أؤديك إلى دار عزّك ونصرك دار آبائك وأجدادك وأعمامك ، وإن كنت تعلم أن هؤلاء اليهود صادقون فى قولهم ومرادك أملك ، فارجع معهم حتى تكبر وتبلغ مبلغ الرجال ، ثم تعود إلى بلد أبيك ؛ فقال شيبة الحمد : ياعمى لايغرنّك كلامهم ، فان هؤلاء أعدائى وأعداؤك ، ولا تركن إليهم ولا تسمع لقولهم ، فقال المطلب : يا ابن أخى صدقت فيما تقول . قال : ثم إن المطلب قام وشهر سيفه من غمده ودنا نحو القوم ، وكان المطلب فارسا عظيما وبطلا شديدا ، ثم إنه شدّ وسطه بحزمه وعطف نحوهم وقال : يا حزب الشيطان ويا عبّاد الأوثان ، إيانا تمكرون ، وعلينا تحتالون ، اعلموا أن ما ساقكم إلينا إلا قرب آجالكم ، واعلموا أن الأسد لايقتنص بالخداع ، والبحر لايقاس بالذراع ، فان كنتم تظنون أنكم تصلون إلينا بالمكر والحيلة فهو بعيد ، ومن شاء منكم فليبادر إلى القتال . قال : فلما سمع القوم كلام المطلب قال لاطية بن دحية اليهودى : إن هذا فارس بنى عبد مناف ، الذى تعرفه أبطال العرب ، وكل من يبرز إليه منكم ويقتله فله عندى مائة نخلة صفرة الحمل طيبة الثمر ليس فيها فحل ، فقال له رجل من قومه يقال له جمعى بن ذكوان ، وكان من بنى قريظة وكان للاطية عليه دين : أنا أبرز إليه وكل مالك علىّ من الدين فهو علىّ مباح ، فقال لاطية : أنا أشهد هؤلاء القوم على نفسى ، قال جمعى بن ذكوان : اشهدوا عليه يا من حضر ، ثم خرج وهو يلتفت حتى قرب من المطلب ، فقال له المطلب : لاشك أن الله ساقك نحوى لورود حتفك وقصر أجلك ؛ ثم إن المطلب ضربه بالسيف على مفرق رأسه فشقّه نصفين وقال : خذها يا عدو الله ، فأنا المطلب بن عبد مناف ، فطاح من على ظهر حصانه إلى الأرض وعجّل الله بروحه إلى النار .

قال الراوى : فأقبل اليهود وأحاطوا بصاحبهم : فلما رأى لاطية بن دحية اليهودى ما قد حلّ بأصحابه غضب غضبا شديدا وقال : من يبرز إليه وله عندى خمسون ناقة محملة خزّا وسمنا ؟ فقال له رجل يهودى من يهود خيبر يقال له غلاب : ما يبرز إليه إلا بطل مثله ، فابرز إليه أنت يا ابن العم ، فقال لاطية : نعم ، وداخلته الحمية وتحمّس بين قومه ، فتجرّد من ثيابه



وركب جواده وأخذ سيفه ودرقته وعزم على قتال المطلب ، فلما رآه المطلب بارزا إليه ، بارزه وتقاتلا حتى مضى أكثر الليل واليهود فرحون إذ برز إليه لاطية .

وأما ما كان من شيبة الحمد بن هاشم فان عينيه كانتا تذرفان بالدموع خوفا على عمه ، فبينما هم كذلك وإذا بغبرة مظلمة قد ارتفعت وثارت على القوم كل قطعة كالليل المظلم ، وإذا بصهيل الخيل وزعقات الرجال ، واصطكاك الرماح وهم قاصدون نحوهم ، وإذ قد انكشفت الغبرة عن أربعمائة فارس من فرسان الأوس والخزرج وأبطال يثرب ، وقد أقبلوا من المدينة ومعهم سلمى وأبوها وجماعة من قومها . فلما نظرت سلمى إلى اليهود وهم مجتمعون على حرب المطلب صاحت بهم صيحة عظيمة وقالت : يا ويلكم ما هذه الفعال ؟ قال : فهم لاطية بالهزيمة ، فقال له المطلب : إلى أين تهرب يا عدو الله وأين المفر من الموت ؟ ثم إنه لحقه المطلب وضربه بالسيف قسمه نصفين ، وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار ، فجالت الفرسان فما كان إلا قليل حتى بات جميع اليهود مقتولين عن آخرهم ، فعند ذلك عطفوا نحو المطلب والسيف مشهور بيده وقد دفعه إلى ابن أخيه شيبة الحمد . فلما مالت عليهما الكتائب خشيت سلمى على ولدها شيبة من حوافر الخيل ، فأومأت إلى القوم وكانت مطاعة فيهم ، فأمسكوا عن القتال ووقفوا ، فتقدمت سلمى إلى المطلب ونادت : من هذا الهاجم على مرارة الأسد وخاطف من الشمطاء شبابها ؟ فقال المطلب : هو ممن يزيده شرفا إلى شرفه وعزا إلى عزه وهو أشفق عليه منك ، يرجو أن يكون هو صاحب الحرم والمتولى على الأمم ، ما أنا بعدو ولا معاند ، بل أنا عمه وجماله . فلما سمعت سلمى كلامه قالت : من أى عمومته أنت يا فتى ؟ قال : أنا المطلب ، أنا الذى زوجتك بأخى هاشم ، فقالت له سلمى : مرحبا بك يا مطلب وأهلا وسهلا ، أما كان يجب عليك أن تستأذن منى فى خروج ولدى وإخراجه من بلدنا ؟ أما علمت أنى شرطت على أبيه ذلك ؟ ثم أقبلت على ولدها وقالت له : عصيتنى وخرجت مع عمك وتركتنى ومضيت ، وأنا والله ما حملنى على الخروج مع قومى وعشيرتى إلا هؤلاء الأنجاس الأرجاس اليهود ، والآن إن أجبتنى فارجع معى ، وإن اخترت عمك فامض معه .



قال : فلما سمع كلام أمه أطرق رأسه إلى الأرض ساعة وأمسك عن الكلام ، فقالت له : يا بنى ما الذى أسكتك عن الجواب ، وإنى أعرفك بالأول طلق الجنان جرىء اللسان ، فوحق حرمة أبيك وأعمامك وأخوالك ، لا أمنعك عن شهوتك ولا أردك عن عمومتك وأهلك ؛ قال : فرفع رأسه وقد سبقته دموعه على خديه وقال : يا أماه أنت عزيزة وعمى عزيز على ، فلما علمت أنه مائل قلبه إلى عمه قالت : مالك لاتكلمنى ؟ فقال : يا أماه إنى أخشى مخالفتك والواجب طاعتك ، وأنت أحق من القريب والبعيد لحملك بى ورفقك على ، وأنا أريد مجاورة البيت الحرام ، والنظر فى وجوه عمومتى وأهلى وقرابتى . فلما سمعت أمه كلامه بكت بكاء شديدا حتى غشى عليها ، فلما أفاقت من غشيتها بكت كثيرا حتى بلت الأرض من دموعها وقالت : يا ولدى يعز على فراقك ، وإنى لا أردك عن شهوتك ولا أمنعك عن طلبتك ، ولقد سمحت لك برضا منى وطيب نفس ، ولكن يا ولدى كنت مستأنسة بك دون الناس كلهم ، ولقد كنت لى ذخرا وسندا من بعد أبيك ، فلا تقطع عنى أخبارك ؛ ثم إنها ضمته إلى صدرها وقبلته فبكى ، فجعلت تمسح دموعه بكمها ، ثم التفتت إلى عمه المطلب وقالت : يا ابن عبد مناف قد سلمت إليك الأمانة التى استودعتها بالعهد والميثاق فاحفظها ، وأوصيك إذا بلغ ولدى هذا مبلغ الرجال ولم أكن أنا حاضرة عنده ، فلتكن أنت الوالى عليه ولتزوجه بالطاهرات من النساء ؛ فقال لها المطلب : لقد نصحت وسلمت الأمانة ، ولقد تكرمت فيما فعلت ، فقالت له عند ذلك سلمى : يا مطلب خذ من هذا المال والخيل والثياب ما تجملون به أنفسكم عند أهل مكة ، فقال المطلب : الشكر لله تعالى وبارك الله فيك وفى قومك . ثم أردف المطلب ابن أخيه شيبة الحمد وراء ظهره على ناقته وسارا حتى وصلا قريبا من مكة ، فقال له عمه : يا ابن أخى اعلم أنى كاتم أمرك وعلمك حتى أدعك فى الدرجة العالية والمجد الرفيع وأضعك فى مراتب أبيك ، قال : ثم إنهم دخلوا مكة فأضاءت الأنوار منهما ، وأقبل الناس ينظرون فإذا هم بالمطلب يحمل ابن أخيه على عاتقه ، فقالوا له : من هذا الذى أضاءت لنوره مكة وشمائلها ؟ فقال المطلب : هذا عبد لى قد اشتريته بالأمس ؛ فقالوا : ما أجمل هذا العبد ، قال : فسموه عبد المطلب ،



فأقبل به عمه وهو كاتم سره وأمره عن الناس ، وقد تعجّب الناس من حسنه وجماله وهيبته ، وهم لايعلمون أنه جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بعد ذلك ظهرت لعبد المطلب إشارات ودلالات وعلامات ومناقب دلّت على إظهار النبوّة من ذرّيته ، والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ؛

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

قال البكرى : لما قدم شيبة إلى مكة ، كانت قريش تتبرّك به إذا أصابتهم مصيبة ، وتشتفى به إذا نزلت بهم آفة ، وينتصرون به إذا دهمهم عدوّ من الأعداء ، أو نزل بهم قحط أو غلاء ، يأتون بشيبة الحمد ويتوسّلون بنور رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فى صلبه ، فيكشف الله تعالى عنهم جميع تلك الآفات والعاهات ببركة سيّد السادات محمد صلى الله عليه وسلم . وأعظم معجزة ظهرت من معجزاته ما حصل لصاحب الفيل وهو أبرهة بن الصباح ـ وكان ملك اليمن وأطرافها ، وقيل ملك الحبشة ـ وكان عازما على غزو مكة وخرابها وقلع أساسها وحمل أحجارها إلى بحر جدة .

قال الراوى : وسبب قصة أهل الفيل أن جماعة من أهل مكة تجارا دخلوا كنيسة من كنائس النّصارى وأوقدوا فيها نارا يصطلون ويصلحون طعامهم ، ففعلوا ولم يطفئوا النار ، فهبت ريح عاصف وأحرقت جميع ما كان فى تلك الكنيسة ، ورحل أهل مكة ولم يعلموا أن الكنيسة احترق جميع ما فيها . فلما دخل قوّامها فيها وجدوها رمادا كأنها لم تكن ، فقالوا لأهل المنازل التى حولها : ويلكم من فعل هذا بكنيستنا ؟ فقالوا : ها هنا كان عرب من عرب مكة تجارا ، وأوقدوا فيها نارا ولم يطفئوها فاحترقت ، فأخبر قوامها بذلك النجاشى ملك الحبشة ، فقال لهم : وحق المسيح ما أحرق معبدنا إلا عرب مكة ، وغضب غضبا شديدا وقال : لأحرقنّ معبدهم كما حرقوا معبدنا . قال : فأرسل وزيره أبرهة بن الصباح وأرسل معه أربعمائة فيل ومائة أمير تحت كل أمير عشرة آلاف فارس وقال له : سر إلى كعبتهم واهدمها حجرا حجرا ، وارمها فى بحر جُدّة ، واقتل رجالهم واغنم أموالهم ، واذبح أطفالهم ،



واسب نساءهم ، ولا تترك أحدا منهم أبدا . ثم أمر مناديا ينادى فى قبائل عسكره وأمرهم بالمسير إلى مكة ، فاجتمع القوم من كل جانب ومكان كالجراد المنتشر ، وأخذوا معهم طعام سبع سنين ، فحملوا الزاد والماء على مائة ألف بعير وبغل سارت قدام العسكر إلى جهة مكة شرفها الله تعالى .

قال الراوى : فسارت الجيوش كالجراد المنتشر ، أو كالليل المظلم ، وقد جعل مقدم عسكره رجلا من خيار أهل دولته يقال له سعد بن مصعب ، وأمره بالمسير أمام العسكر قدام الوزير الأعظم أبرهة بن الصباح ، وأعطاه خمسين ألف مقاتل وقال له : امض أنت أمام الوزير إلى مكة وانزل عليها واقتل رجالها وأطفالها ، واسب نساءها حتى آتيك .

قال الراوى . فسار ذلك الأمير سيرا حثيثا يقطع الفيافى والقفار والسهول والأوعار ، حتى وصل مكة شرفها الله تعالى ونزل بها . فلما سمع أهل مكة ذلك خافوا جميعا وجمعوا أموالهم وخيولهم هاربين خوفا على أنفسهم من أصحاب الفيل ، فنظر إليهم عبد المطلب وقال : يا قوم أيحل منكم هذا الأمر ؟ وإنه لعار عليكم خروجكم من كعبتكم ، فقالوا : اعلم أن هذا الملك قد أقسم بمعبوده الصليب أنه لابد من هدم الكعبة ، ورمى حجرها على ظهر الأفيال إلى بحر جدة ، ويقتل رجال مكة ويذبح أطفالها صغيرها وكبيرها ، ويرمل نساءها ، فاتركنا حتى نرحل عن بلدنا قبل أن يحل بنا الويل ، فقال لهم عبد المطلب : اعلموا أن الكعبة شرفها الله تعالى لايقدر أن يصل إليها أحد بمكروه ولا سوء ، فان لها ربا مالكا ، ومانعا يمنع السوء عنها ، فان التجأتم إليها واعتصمتم بها فهو خير لكم ، فلم يركنوا إلى كلامه وغلب عليهم الخوف والجزع ، وخرجوا هاربين يطلبون الجبال والأودية والشعاب ، ومنهم من ركب البحر والسواحل كل ذلك خوفا على أنفسهم ، فعند ذلك قالوا لعبد المطلب ما الذى يمنعك أن تهرب معنا بأموالك وعبيدك ؟ فقال لهم : إنى أستحى من الله تعالى أن أهرب عن بيته المشرف وعن الحرم المعظم ، فوالله لاأبرح حتى يعمل الله فينا ما يشاء ويحكم ما يريد .

قال الراوى : ولم يبق فى مكة أحد يومئذ إلا وانهزم فى الجبال والشعاب والأودية ، فلما رأى ذلك عبد المطلب وأن مكة دورها خالية من الإنس



قال : اللهم أنت أنيس المستوحشين ولا وحشة معك ، والبيت بيتك ، والحرم حرمك ، والدار دارك ونحن جوارك ، تمنع عنا وعنها ما تشاء من الأعداء .

قال : فأقام سعد بن مصعب بجيشه حتى ورد عليه الوزير أبرهة بن الصباح ومعه الجيوش ، وهي أربعمائة قبيلة ، فسدّ المياه ، وحطّم المراعي ، وسدّ المسالك والفجاج والطُرق .

قال الراوي : فقال لهم الوزير سيروا إلى مكة مسرعين ، وسوقوا مواشيها وأغنامها وإبلها ، قال : وكان لعبد المطلب في جمالها ثمانون ناقة حمراء ، قد أخذها القوم فتقاسموها ، فسبق بعض الرعاة الذين لعبد المطلب فأخبروه بذلك فقال : الحمد لله هي مالها الله وضيافة أهل البيت وزوّاره ، فإن يسلّمها فهي له وإنّ عادته الحمية ، وإن تكن الأخرى فلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم . قال : ثم إن عبد المطلب لبس قميص إبراهيم وتنكّب بقوس إسماعيل واستوى على مطيته وعزم على الخروج نحو أبرهة بن الصباح وأصحاب الفيل . فقال له أهله وأعمامه وأقاربه : إلى أين تريد أن تمضي ؟ قال : إلى هذا الرجل الكافر اللعين الذي أخذ مال الله واستحلّ التعرُض لحرم الله ، فقال بنو عمه وأنسابه ما ينبغي منا أن نخليك ونترك سبيلك تمضي إلى هذا الكافر وعسكره ، فانه مثل البحر الزاخر من ركب فيه لا يأمن الغرق ، وأنت قد استعصمت برب الكعبة شرّفها الله تعالى والصفا ، ورضينا لأنفسنا ما رضيت لنفسك ، وأما خروجك من الحرم والمسير إلى أشرّ الأمم فما نسمح لك بذلك ، فقال يا قوم : إني أعلم من فضل ربي وكرمه ما لا تعلمون ، فخلّوا سبيلي ، فاني راجع إليكم عن قريب إن شاء الله تعالى . قال : فلما رأوا أنه لا يقبل نصيحتهم تركوه وخلوا سبيله ، فرّت به مطيّته كالريح العاصف أو كالبرق الخاطف . فلما أشرف على القوم نظروا إليه وإلى وجهه كالبدر المنير ، فلما رأوه تبادروا إليه من كل جانب ومكان ، وقد حبس الله أيديهم عنه ، فقالوا له : أخبرنا عن اسمك يا غلام ، ومن أين تكون فقد أعجبتنا رؤيتك ؟ من أنت أيها الرجل الجميل ذو الطلعة المليحة الباهرة ؟ من أنت يا ذا النور الظاهر والضياء الباهر والوجه المضيء ؟ فان كنت يا غلام من أهل هذه البلدة ، فنسألك بمعبودنا ومعبودك أن ترجع إلى قومك سالما من غير قتل ولا ينالك منّا سوء ، فقال



لهم عبد المطلب : أيها القوم : إني قد أتيت قاصدا ملككم ؛ فعند ذلك تصارخ القوم وقال بعضهم لبعض : ما رأينا مثل هذا الرجل بهذا الجمال والكمال لكنه ناقص العقل ونحن نقول له إن ملكنا قد أقسم بمعبوده أنه لايترك أحدا من هذه البلدة ، وهو يقول لنا لابد أن أصل إليه ؛ قال : فخلوا سبيله ، فمضى قاصدا إلى الملك وقد سبقه أناس منهم إلى الملك وأخبروه بقدومه ، فقالوا : أيها الملك قد قدم إلينا رجل صفته كذا وكذا من أهل مكة ولم يفزع ولم يجزع ، فقال الملك : عليّ به فوحق ما اعتقدته من ديني لو سألني أهل الأرض بأجمعهم فيه ما قبلت منهم سؤالا . قال : فعند ذلك أقبل القوم إلى عبد المطلب ليأتوا به إليه ، فقال لهم عبد المطلب : ها أنا قادم إليه بنفسي ، وأمر الملك قومه أن يشهروا السلاح ويجرّدوا السيوف ، وجعل الملك تاجا على رأسه ، وشدّ عمامته على جبينه ، وأمر بسائس الفيل أن يحضر الفيل ، وكان فيلا يقال له محمود ، فأحضروه بين يديه وقد ركبوا له قرنين من حديد لو نطح بهما جبلا لقلعه ، وكانوا قد علّقوا في خرطومه سيفين هنديين ، وعلّموه الحرب والقتال ، فوقف سائسه في قفاه ، وقال الملك : إذا رأيتموني قد أشرت إليكم عند دخول هذا المكي عليّ فأطلقوا عليه الفيل حتى يدوسه بكليّته ويقتله ، قال : فدخل عبد المطلب عليهم وهم باهتون وهو لايلتفت لأحد منهم حتى جاوز أصحاب الفيل فأطلقوه . فلما قرب من عبد المطلب برك الفيل إلى الأرض وجثا على ركبتيه وسكن ارتجاجه ، وكان قبل ذلك يعلمه سائسه على القتال ، فحمّر عينه عليه وضرب خرطومه وفيه السيفان ، فعند ما قرب من عبد المطلب لم يفعل به شيئا ، فتعجّب الملك وأصحابه من ذلك ، وألقى الله سبحانه وتعالى في قلبه الفزع والجزع وارتعدت فرائصه ورقّ قلبه . فأقبل على عبد المطلب وأجلسه إلى جانبه ورحّب به ، فالتفت إلى الأسود ابن مقصود وقال له : أي شيء يطلب هذا الرجل المكي اقض حاجته ، وكان الملك حالفا على هلاكه قبل ذلك . ثم قال الملك : من أنت وما اسمك ؟ فما رأيت رجلا أجمل منك وجها ولا أحسن منك منظرا ؟ فلك عندي ما سألت ولو سألتني الرجوع عن بلدك لفعلت ؟ فقال له عبد المطلب : لاأسألك في شيء من ذلك ، بل إن قومك غاروا علينا وأخذوا لي ثمانين ناقة ، وكنت قد



أودعتها للحجاج الذين يقصدوننا من جميع البلدان ، فان رددتها عليّ فافعل ، قال : فأمر الملك رجاله باحضار جميع النوق ، ثم قال الملك : هل من حاجة غيرها فاسألني ؟ فقال عبد المطلب : أيها الملك ما أريد غير هذه ؛ ثم قال له الملك : لم لاتسألني في بلدك ، فاني أقسمت بمعبودي لأهدمن كعبتكم وأقتل رجالكم ؟ ولكن لعظيم قدرك لوسألتنا فيها قبلنا سؤالك ورجعنا إلى بلادنا ؛ فقال له عبد المطلب : اعلم أيها الملك أن لها مانعا غيري يمنع عنها ؛ فقال له الملك : يا عبد المطلب اعلم أني أنزل بجنودي ورجالي وأخرب كعبتكم ونواحيها وسكانها ، فقال له عبد المطلب : إن قدرت فافعل ، ثم انصرف عبد المطلب وقال : والله لأمرن على الفيل وأنظر ما حاله ، قال : فمر عبد المطلب على الفيل ، فلما نظر الفيل إلى عبد المطلب خضع له ، فقام الوزراء والحجاب يلومون الملك في أمر عبد المطلب كيف خلى سبيله ؟ فقال لهم الملك : ويحكم لاتلوموني ألم تروا كيف سجد له الفيل وخضع بين يديه ؟ وقد وقع لهذا الرجل في قلبي هيبة عظيمة ، ولكن أشيروا عليّ ، فقالوا : لابد لنا أن نسير إلى مكة ونخربها ، ونرمي أحجارها في بحر جدة . قال : فعند ذلك أمر الجيوش والجموع أن تزحف إلى مكة وقدموا الفيل قدام العسكر وساروا . فلما وصل عبد المطلب بالنوق إلى مكة خرج إليه أقاربه يهنئونه بالسلامة وقد كانوا أيسوا منه ، فلما نظر إليه أقاربه فرحوا به ، وجعلوا يقبلون يديه ، وقالوا : الحمد لله الذي حماك وحفظك بهذا النور ، ثم سألوه عن الجيش ، فأخبرهم بقصته وخبر الفيل ، فقالوا : الحمد لله ، ثم قالوا له : ما الذي تأمرنا به ؟ فقال : يا قوم اخرجوا إلى جبل أبي قبيس حتى ينفذ الله حكمه ومشيئته . قال : فخرج القوم بأولادهم وذراريهم ونسائهم ، وخرج عبد المطلب وبنو عمه وإخوته وأقاربه ، وأخرج مفاتيح الكعبة إلى جبل أبي قبيس وجعل يشير بها إلى الصفا ويدعو ويبكي ويتوسل ويقول : يا رب إليك المهرب وأنت المطلب ، أسألك بالكعبة العليا ذات الحج والموقف العظيم ، يا رب ارم الأعادي بسهام العطب حتى يكونوا كالحطب . ثم رجع وأتى إلى باب البيت الحرام وأنشأ يقول :

لاهمّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك



وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لايغلبنّ صليبهم ومحا لهم أبدا محالك

وقال شعرا آخر :

يا رب لا أرجو سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
إنّ عدو البيت من عاداكا فامنعهم لا يخربوا قراكا

قال أبو الحسن البكرى : وإذا بهاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول : قد أجيبت دعواتك إكراما للنور الذى فى وجهك . قال : فنظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا ، ثم قال لمن حوله وهم حينئذ على جبل أبى قبيس ، وقد نشروا شعورهم يبتهلون بالدعاء ويستبشرون بالإجابة ، فقال لهم عبد المطلب أبشروا فإنى أرى النور الذى فى وجهى قد علا ، وإن ذلك كاشف لما طرقكم من الأعداء ، ففرح القوم وتضرّعوا إلى الله تعالى . قال : فبينما هم كذلك إذ أغار عليهم القوم وتقاربت الصفوف ولاح لهم بريق الأسنة ، ثم انكشف الغبار عن الفيل ، فنظروا إليه كأنه الجبل ، وقد ألبسوه صفائح الحديد ، وزيّنوه بأحسن زينة ، فاشتدّ قلقهم وانهملت عبراتهم ، وتضرّع عبد المطلب ودعا ، فوالله ما أتم عبد المطلب دعاءه وتوسُّله حتى وقف الفيل ، فصرخت عليه الفيلة ، فالتفت إليهم الفيل فوقفت الجيوش واندهشوا ، فقال الأسود ابن مقصود : ما الخبر ؟ فقالوا له : إن الفيل قد وقف ، فقال للسائس : اضربوه فضربوه . فما حال ولا زال ، فتعجبوا من ذلك ، فأمرهم أن يعطفوا رأسه ففعلوا ، فرد رأسه إليهم فهرول راجعا على أعقابه ، فأمر بردّه فردّه فوقف ، فقال الأسود بن مقصود : سحروا فيلكم . قال : فبعث إلى أبرهة يخبره بخبر الفيل وقال له : ليس من جرّب كمن لم يجرّب ، ابعث رسولا من عندك واطلب الصلح قبل أن يصير عندهم خبر الفيل لئلا يطمعوا فينا ، واطلب منهم رجالا بعدد ما قتل منّا ، ويقوّموا لنا ما أفسدوا من كنيستنا ، فإذا سلّموا ذلك رجعنا عنهم .

قال : فلما دخل رسول الأسود إلى أبرهة ـ وكان اسمه حناطة الحميرى ـ وكان يقود الجيوش وحده وله خلقة عظيمة هائلة قال له أبرهة : هل لك أن تكون أنت رسولى إليهم فعسى أن يصير الصلح على يديك ؟ فقال حناطة :




ما أنا سائر إليهم إن صالحوني وإلا رجعت برءوسهم . قال : فسار إليهم حتى دخل مكة وسأل عن سيد قريش؟ فقيل له هذا شيبة الفخار ، وكان عبد المطلب قد رآه فعلم أنه رسول القوم . فلما نظر حناطة إلى عبد المطلب دهش وحار فكره ، فقال له عبد المطلب : من أتى بك ؟ فقال يامولاى : إن أبرهة قد عرف فضلكم ووهب لكم الحرم والبيت ، وقد أرسل إليكم أن تقوموا بدية من قتل منهم ويرجع عنكم وأنتم له شاكرون ؛ فقال عبد المطلب : من شيمتنا نقبض أيدينا عن المظالم ، ونصرف جوارحنا عن المآثم ، ثم بلغ صاحبك منا ذلك الأمر ، فقد سبق منى فى هذا البيت قول : إن له ربا يمنع عنه ، والله ما أكثر ما جمع صاحبك رجالا ، إن أراد جنابه المسير فسيروا ، وإن أراد المقام فيقيم . قال : فلما سمع حناطة كلامه غضب وأراد قتل عبد المطلب ، فظهر لعبد المطلب ما فى وجهه من الغيظ فما أمهله دون أن انقض عليه وقبضه من مراق بطنه وشاله وضرب به الأرض وقال : وعزة ربى لولا أنك رسول لأهلكتك قبل أن يأتينى صاحبك . قال : فرجع حناطة إلى الأسود وأخبره بما كان من أمره ، ثم قال : هؤلاء القوم غلت دماؤهم ، والرأى عندى أن أنزل إلى القوم ، واعلم أن مكة قد خلت من أهلها فأسرع إلى القوم . قال : فأمر الجيوش فساروا نحو الحرم . فلما قربوا منه ، جاءهم الأمر من حيث لايشعرون : فاذا هم بأفراخ من الطيور كالسحاب المترادف ، يتبع بعضه بعضا ، وهم كأمثال الخطاطيف ، يحمل كل طير منها ثلاثة أحجار : أحدها فى منقاره ، واثنان فى رجليه ، الكبير من الأحجار بقدر الحمصة ، والصغير بقدر العدسة ، فمالت الطيور وارتفعت فوق العسكر ، وانتشروا على طولهم وعرضهم . فلما نظر القوم إلى ذلك خافوا وقالوا ما هذه الطيور التى لم نرها قبل هذا اليوم قط ؟ فقال الأسود : ما عليكم بأس وإنما طيور تحمل أرزاقها إلى أفراخها ، ثم قال : على بقوس ونبل حتى أردها عنكم ، فأخذ قوسه وأراد الرمى ، قال : فتصارخت الطيور مستأذنة من ربها فى هلاك القوم ، فما استتموا كلامهم حتى فتحت السماء ، وإذا بالنداء إليها : أيتها الطيور المطيعة لربها ، افعلوا ما أمرتم به ، فقد اشتد غضب الجبار على الكفار ، ففتحت الطيور أفواهها ، وكانت أول حصاة وقعت



على رأس حناطة ، فنزلت من البيضة إلى الرأس إلى الحلقوم ، ونزلت إلى القلب وخرجت من دبره ونزلت إلى الأرض وغاصت ، فانقلب صريعا ، فتناثر القوم يمينا وشمالا ، والطيور تتبعهم بالأحجار لاترد عن الرجل منهم حتى ترميه بالحصاة على رأسه فتخرج من دبره ، ولا يردها درق ولا حديد . هذا،وإن أبرهة لما نظر إلى الطيور وفعلها ، علم أنه قد أحاط بهم العذاب ، فولى هاربا . وأما الأسود فانه لما نظر إلى ما نزل بقومه والحصى تتساقط عليهم وهم ينهزمون ، إذا هو بطير قد ألقى عليه حجرا فوقع فى فيه وخرج من قفاه وخر صريعا .

وأعجب من ذلك أن رجلا من حضرموت ، كان له أخ فسأله المسير معه فأبى وقال : ما أنا ممن يتعرض لبيت الله الحرام . فلما نزل بهم الطير خرج هاربا على وجهه والطير تتبعه . قال : فلما وصل إلى أخيه نزل ووصف له العذاب الذى حل بالقوم ، فرفع رأسه وإذا بطير يحوم على رأسه ، فلما رفع رأسه رآه فقال مثل هذا : فرماه بحصاة على هامته خرجت من دبره ومات .

وأما أبرهة فانه سار مجدا على فرسه إذ سقطت يده اليمنى على اليسرى فأتى إلى منزله فحكى لهم جميع ما جرى .

وأما عبد المطلب ومن معه فبقوا فى ابتهال ودعاء وتضرع ، وقد استجاب الله تعالى لهم دعاءهم ، وهذا دعاؤهم (اللهم اجعل لنا من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، وانصرنا على من عادانا ، واجعلهم هباء منثورا) قال : وأما الفيل فولى هاربا .

وأما ما كان من قريش أهل مكة الهاربين ، فانهم لما سمعوا ما نزل بأصحاب الفيل أتوا فرحين مستبشرين ، وأقاموا مدة أيام ينقلون الأسلاب . وكان سبب سعادة أهل مكة وسرورهم ببركة نور رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ثم إن عبد المطلب كان ذات ليلة نائما بالحجر إذ أتاه آت : أن احفر طيبة ، فقلت : وما طيبة ؟ فغاب عنى إلى غد فقمت من مكانى ، فجاءنى الهاتف وقال لى : احفر برة فقلت : وما برة ؟ فغاب وأتانى فى الليلة الثالثة وقال لى : احفر زمزم ، فقلت : وما زمزم ؟ فقال : لاتجف أبدا وتسقى الحجيج الأعظم ودله على الموضع ، فأخذ معوله وولده الحارث ، ولم يكن

له يومئذ ولد غيره . فلما ظهر له البناء وعلمت قريش قالوا : بئر زمزم ، بئر نبينا إسمعيل ونحن فيه شركاء . فقال : لاأفعل لأنه أمر خصصت به دونكم ، فتشاوروا على أن يجعلوه بينهم ، فتحاكموا إلى سعد بن خيثمة ، وكان بأطراف الشام ، وقد بلغ بهم الجهد والعطش فى الطريق ولم يجدوا ماء ، فقالوا لعبد المطلب : ما نفعل ؟ قال كل واحد منكم يحفر لنفسه ، ففعلوا . ثم ركب عبد المطلب راحلته فسار بها ، فنبع الماء من تحت خفها فكبّر وكبّر جميع أصحابه ، وشربوا جميعا وملئوا قربهم ، وحلفوا أن لايخالفوه فى زمزم ، وقالوا : إن الذى سقانا الماء فى الفلاة هو الذى أعطاه زمزم . قال : فلما رجعوا مكّنوه من الحفر ، فلما واظب على حفرها وجد غزالين من ذهب ، وهما اللذان دفنهما جرهم ، ووجد سيوفا كثيرة ودروعا ، فطلبوا نصيبهم منها ، فقال لهم : هلموا إلى من ينصف بيننا فنضرب الأقداح ، فنجعل للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحه كان هذا له ، فقالوا : أنصفت ، فجعل قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين له ، وقدحين أبيضين لقريش ؛ ثم أعطى لصاحب الأقداح أجرته وهو عبد هبل - وهبل صنم فى الكعبة - فلما خرجت الأقداح للكعبة ضرب بالباب الغزالين الذهب ، وأقام عبد المطلب سقاية زمزم للحاج ، وما كان بمكة من يحسده ويضاده إلا رجل واحد ، وهو عدى بن نوفل كان صاحب بسطة وطول أمد ، وكان قبل قدوم عبد المطلب مكة سيدا وأهل مكة يكرمونه ، فكبر ذلك على عدىّ بن نوفل لمّا مال الناس إلى عبد المطلب ، فلما كان بعض الأيام تسابا وتقاولا ووقع الخصام بينهما ، فقال عدىّ بن نوفل لعبد المطلب : أوجب ذلك ما أعطيناك فلا يغرّك ما خوّلناك ، فانما أنت غلام من غلمان قومك ليس لك ولد مساعد فم تطيل به علينا ؟ ولقد كنت فى يثرب غريبا وحيدا حتى جاء بك عمك المطلب إلينا وقدم بك علينا فصار لك الكلام ، فغضب عبد المطلب وقال له : ويلك تعايرنى بقلّة الأولاد لله علىّ عهد وميثاق لازم إن رزقنى الله عشرة أولاد ذكور لازيادة لأنحرنّ أحدهم إكراما وإجلالا لحقه ، وأطلب ثأرى بالوفاء ، اللهم فكثّر لى العيال ولا تشمت بى أحدا من الأنذال ، إنك أنت الكريم المتعال .



قال : فأخذ عبد المطلب فى خطبة النساء والتزويج حرصا منه على الأولاد ، قال : إنه تزوج ست نساء ، فرزق منهن عشرة أولاد ، وكل امرأة تزوج بها ذات حسن وجمال وقد واعتدال ، وهن : نعتة بنت حباب الكلابية ، وفرعاء بنت خندف ، وقيل أخذف وسمراء وهاجر ، والخزاعية ، وسعدة بنت حبيب الكلابية ، وهالة بنت وهب ، وفاطمة بنت عمرو المخزومية .

أما نعتة بنت الحارث ، فانها ولدت الغيداق واسمه الحجل ، وإنما سمى الغيداق لمروءته وبذل ماله . وأما الفرعاء فولدت له أبا لهب ، واسمه عبد العزى . وأما فاطمة فولدت له ولدين : أحدهما عبد مناف ويقال له أبو طالب ، والآخر عبد الله وهو أصغر أولاده ، وكان فى وجهه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم . فصار له من الأولاد : الحارث ، وأبو لهب ، والعباس ، وضرار ، وقثم ، والمقوّم ، والحجل ، والزبير ، وأبو طالب ، وعبد الله ، وكان عبد الله قائما مجتهدا فى خدمة الكعبة .

وكان عبد المطلب فى بعض الليالى قريبا من حائط الكعبة نائما ، فرأى رؤيا فانتبه مرعوبا ، فقام يجر أثوابه إلى أن وقف على جماعة وهو ينتفض فزعا ، فقالوا له : ما وراءك يا أبا الحارث ؟ إنا نراك مرعوبا طائشا . قال : رأيتنى قد خرج من ظهرى سلسلة بيضاء مضيئة ، يكاد ضوءها يخطف الأبصار ، ولها أربعة أطراف : طرف منها بالمغرب ، وطرف بلغ المشرق ، وطرف غاص تحت الثرى ، وطرف بلغ عنان السماء ، فنظرت فاذا تحتها شخصان عظيمان بهيّان ، فقلت لأحدهما : من أنت ؟ فقال : أنا نوح النبى ، رسول رب العالمين . وقلت للآخر : من أنت ؟ فقال : أنا إبراهيم الخليل ، جئنا نستظل تحت هذه الشجرة ، فطوبى لمن استظل بها ، والويل لمن حاد عنها . فانتبهت فزعا مرعوبا . قال له الكهنة : يا أبا الحارث هذه بشارة لك ، وخير يصل إليك ليس لأحد فيه شىء ، ولئن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك من يدعو أهل المشرق والمغرب ، ويكون رحمة لقوم ونقمة وعذابا على قوم قال : فانصرف عبد المطلب فرحا مسرورا وقال فى نفسه : ليت شعرى من يقبض هذا النور من ولدى .

وكان عبد المطلب يخرج كل يوم إلى الصيد ، فخرج ذات يوم إلى الصيد




كجاري عادته ، فأخذه العطش ، فنظر إلى ماء في حجر صفا فوجده أبرد من الثلج وأحلى من العسل فشرب منه ، وأقبل من وقته وساعته ، فغشي زوجته فاطمة بنت عمرو ، فحملت بعبد الله أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتقل النور الذي كان في وجهه إلى زوجته فاطمة بنت عمرو . فلما مرّت بها الليالي والأيام تأكد الحمل بعبد الله أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما ولدت فاطمة عبد الله ، سطع النور في غرّته حتى لحق عنان السماء ، فلما نظر إليه عبد المطلب فرح به فرحا شديدا ، ولم يخف مولده على الكهنة والأحبار . فأما الكهنة فعظُم أمره عليهم لإبطال كهانتهم عليهم . وأما اليهود فكانت معهم جبة بيضاء ، وكانت للنبي يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وكان الدم يابسا عليها قد انغمست بدمه يوم قتلوه ، وكان في كتبهم أن الدم الذي في الجبة إذا قطر منه قطرة واحدة يكون قد خرج السيف المسلول ، فنظروا إلى ذلك الدم فوجدوه قد صار رطبا يقطر منه الدم ، فعلموا أنه قد دنا خروجه ، فاغتمّوا لذلك غمًّا شديدا ، وبعثوا لمكة رجلين يكشفان لهم الخبر الصحيح بمولده .

وكان عبد الله يشبُّ في اليوم كما يشبُّ غيره في الشهر ، ويشب في الشهر كما يشبُّ سائر الناس في السنة ، وكل من رآه يتعجّب من حسنه وجماله وأنواره . وقيل إنه لقي عبد الله في زمانه ما لقي يوسف في زمانه ، وذلك من عداوة اليهود ، وخرجت عليه أمور عظيمة وأحوال جسيمة .

قال : فلما صار لعبد المطلب عشرة أولاد ذكور وولده الحارث الحادي عشر ذكر نذره والعهد الذي عاهد الله عليه ، فقال : الآن بلغت أولادي عشرة ذكور لأقربنّ أحدهم لوجهه تعالى . قال : فجمع عبد المطلب أولاده بين يديه وجمعهم حوله ، واغتمّ لذلك غما شديدا ، ثم قال لهم : يا أولادي إنكم تعلمون أنكم عندي بمنزلة واحدة ، فأنتم الحدقة من العين ، والروح بين الجنبين ، ولو أن أحدكم أصابته شوكة لساءني ذلك ، ولو عرض لأحدكم عارض عظم لديّ ، ولكن اعلموا يا أولادي أن حق الله أوجب من حقكم ، وقد نذرت له نذرا وعاهدته متى رزقني الله تعالى أحد عشر ولدا ذكورا لأنحرنّ أحدهم قربانا لله تعالى ، وقد أعطاني الله ما سألته ، وبقي عليّ الآن



ما عاهدته ، وقد جمعتكم لأشاوركم فما أنتم قائلون ؟ فجعل ينظر بعضهم إلى بعض وهم سكوت لايتكلمون ، قال : فأول من تكلم منهم أعز أولاده وهو عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أبت أنت ولينا ونحن أولادك ومطيعون لديك وحقك أوجب من حقنا ، وأمرك أوجب من أمرنا ، ونحن لك طائعون ، ولأمرك سامعون ، وقد رضينا بأمر الله وأمرك ، وصبرنا على حكم الله وحكمك ، ونعوذ بالله من مخالفتك . فشكره أبوه ــ وكان لعبد الله حينئذ أحد عشر سنة ــ فلما سمع أبوه كلامه بكى بكاء شديدا حتى ابتلت لحيته بدموعه ، ثم قال : يا أولادي ما تقولون : فقالوا سمعنا وأطعنا فافعل ما بدا لك ، ولو أحرقتنا عن آخرنا فكيف بواحد منا ؟ فشكرهم أبوهم على مقالتهم ، ثم قال لهم : امضوا إلى أمهاتكم واغتسلوا وتطيبوا والبسوا ثيابكم وودعوا أمهاتكم وداع من لايرجع أبدا . قال : فعند ذلك تفرقوا وأقبلوا إلى أمهاتهن وأخبروهن بما قال أبوهم عبد المطلب ، ففاضت العيون عند ذلك وترادفت عليهم الأحزان لفقد أولادهن .

قال : ثم إن عبد المطلب بات تلك الليلة مهموما مغموما ولم تغمض عيناه بالنام حتى طلع الفجر ، وهو مع ذلك فزع مرعوب ، ولم يعلم أي أولاده يجري عليه الأمر ، ومايدري ماذا يفعل ، قال : ثم اغتسل ولبس أفخر ثيابه وتردى برداء آدم عليه السلام ، ولبس نعل شيث عليه السلام ، وتختم بخاتم نوح عليه السلام ، وأخذ بيده خنجرا ماضيا ليذبح به بعض أولاده ، فأقبل عليهم يناديهم من عند أمهاتهم واحدا بعد واحد ، فأقبلوا إليه بعد أن اغتسلوا وتطيبوا ، وتأخر عنهم عبد الله لأنه كان أصغرهم سنا ، فسألهم أبوهم عنه ، فقالوا : ما نعلم به ، فأقبل عبد المطلب إلى منزل زوجته فاطمة فرآها متعلقة بولدها عبد الله ، ولم تمكنه من الرواح إلى أبيه ، فجعل أبوه يجذبه منها وهي تجاذبه منه ، وهو يريد أباه ، وهي تمنعه ، وهو يقول : يا أماه اتركيني أمضي مع أبي يفعل بي ما يشاء الله ، وينفذ فينا أمره ، وما عاهد الله عليه ، وإني أعود إليك إن شاء الله تعالى . قال : فتركته وقالت لأبيه : يا أبا الحارث كيف تطيب نفسك بذبح أولادك . فان كان ولا بد من ذلك فخل عبد الله فانه طفل صغير وارحمه لأجل صغر سنه ، ولهذا النور



الذى فى وجهه . قال : ورب الكعبة هو أعز أولادى عندى وأحبهم إلىّ ، وأنا أرجو من الله تعالى أن ينجيه ويرحم صغر سنه .

قال : ثم إنه عزم على المسير ، فقامت إليه أمه فضمّته إلى صدرها وهى تقول : فترى رب الكعبة قضى علىّ بفراقك وقدر علىّ بوحشتك ، يا ولدى حاشا نورك يطفأ ، وحق الأبطح والصفا ورافع السما ، لقد قلّت حياتى فيك يا بنى ، ليتنى قبل ذبحك غبت تحت الثرى حتى لا أرى فيك ما أرى . فلما سمع أبوه عبد المطلب ذلك من أمه بكى حتى غشى عليه وتغير لونه . فقال عبد الله لأمه : يا أماه دعينى أمض مع أبى يفعل ما يشاء بقضاء ربى ، إن اختارنى كنت راضيا بقضائه سمحا ببذل روحى ، وإن يكن غير ذلك فأرجع إليك . قال : فأطلقته أمه ومشى مع أبيه ، فأقبل عبد المطلب وقد ساق أولاده إلى الكعبة ، فارتفعت الأصوات وخرجت الرجال والنساء من كل جانب ومكان وجعلوا ينظرون إلى عبد المطلب وأولاده ، وما الذى يصنع بهم ، فأقبل إليه السحرة والكهنة وهم يقولون : هذا الذى يخرج منه النور الزاهر : يعنون عبد الله . قال : فقدّم عبد المطلب أولاده إلى المنحر وبيده خنجر ماض ، فتطاولت إليه الأعناق ، فنادى عبد المطلب بأعلى صوته يسمعه القريب والبعيد : اللهم رب هذا البيت الحرام ، والمشعر الحرام ، وزمزم والمقام ، والملائكة الكرام ، ورب الليالى والأيام ، ورب الأنام ، اكشف عنا بنور وجهك الظلام بما جرى به القلم ، أنت خلقت الخلق بقدرتك وأمرتهم بعبادتك ، اللهم لا مانع منك إلا إليك ، وإنما يحتاج الضعيف إلى القوى ، والفقير إلى الغنى ، يارب أنت تعلم أنى قد نذرت لك نذرا ، وعاهدتك على نفسى إن وهبتنى عشرة من الأولاد ذكورا لأقربنّ أحدهم لوجهك الكريم ، هذا وقت إتيانهم ، وقد سقتهم إليك فاحكم فيهم بحلمك ، واختر منهم من أحببت . اللهم قضيت فاحكم واجعله فى الكبار ، ولا تجعله فى الصغار ، لأن الكبير أصبر على البلاء من الصغير ، والصغير أولى بالرحمة . اللهم رب البيت والأستار ، والركن والأحجار ، وساطح الأرض ومجرى البحار ، ومرسل السحاب والأمطار ، يارب اصرف البلاء عن الصغار .

قال : ثم إن عبد المطلب دعا بجرائد النخل فجرد من الخوص وقدره ،



وقصبه ، وكتب على كل جريدة منهم اسم واحد من الأولاد . ثم دعا بصاحب الأقداح التى كانوا يضربون بها ، وهى التى تسمى الأزلام التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز ، وكانوا قديما يستقسمون بها فى الجاهلية ويضربون بها فما خرج فى خير قبل قربانه ، وما خرج منها فى شر ما قبل قربانه . قال : فأخذ الجرائد صاحب القداح ودخل فى الكعبة فأخذت أمهاتهم فى البكاء والنحيب . كل واحدة تبكى على ولدها وتبكى الناس لبكائهن ، وقلق عبد المطلب قلقا عظيما ، وجعل يقعد مرة ويقوم أخرى . قال : فأبطأ صاحب الأقداح على عبد المطلب ، فجعل يدعو ويتضرع ويقول : يا رب أسرع فى قضائك ، فانى راغب فى أداء حقك ، فقد تطاولت إلى الأعناق ، وشخصت إلى الأحداق ، واشتدت بى الحسرات . قال : فبينما هو كذلك ، وإذا بصاحب الأقداح قد خرج من الكعبة وهو قابض عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاعل رداءه فى عنقه وهو يسوقه وقد اصفر لونه وارتعدت فرائصه . قال صاحب الأقداح : يا عبد المطلب هذا ولدك الذى خرج عليه السهم فان شئت تذبحه وإن شئت تتركه . قال : فلما سمع عبد المطلب كلامه خر مغشيا عليه ، ووقع على الأرض ، وخرج أولاده من الكعبة وهم يبكون على أخيهم عبد الله لأنه أصغرهم سنا . وكان أشدهم عليه حزنا أخوه أبو طالب لأنه شقيقه من أمه وأبيه ، وكان لايصبر عنه ساعة واحدة من عظم شفقته ومحبته له ، وكان يقول : يا أخى لاأماتنى الله حتى أرى ولدك الوارث لهذا النور الذى فى وجهك ، وتقاتل معه الملائكة المقربون الذى يغسل الأرض من الدنس ويزيل دولة الأوثان ويبطل كهانة الكهان . فلما ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يحبه أبو طالب حبا شديدا ، ويفتخر به ويقول له : فدتك روحى يا ابن الذبيحين إسماعيل وعبد الله

رجعنا إلى الحديث الأول قال : ثم إن عبد المطلب أفاق من غشيته ، وسمع البكاء والعويل وقد أحاطت به الناس من كل جانب ومكان ، ونظر الناس إلى فاطمة أم عبد الله وهى تحثو على رأسها التراب ، وتضرب صدرها بيديها فلما رآها عبد المطلب على هذه الحالة من عظم حزنها وشدة قلقها لم يجد صبرا ، فقبض على ولده عبد الله وأراد أن يذبحه ، فتعلقت به سادات قريش




وبنى عبد مناف ، فصاح بهم صيحة منكرة وقال : يا ويلكم ، أنتم أشفق منى على ولدى ؟ ولكن ماذا أصنع بحكم ربى ، وقد عاهدت نفسى على هذا ؟ وأبو طالب متعلق بأذيال أخيه عبد الله ، وهو يبكى ويقول لأبيه : اترك أخى واذبحنى بدله ، فانى رضيت أن أكون قربانا لربك . فقال عبد المطلب : ما كنت بالذى أعترض على ربى وأخالفه ، فهو الآمر وأنا المأمور . قال : ثم اجتمع كبار قومه وعشيرته وقالوا : يا عبد المطلب عد لصاحب الأقداح مرة ثانية عسى أن يقع السهم على غيره ويقضى ربك بما فيه الفرج . قال : فعاد عبد المطلب مرة ثانية إلى صاحب الأقداح ، فدخل الكعبة وضرب بالأقداح ، فخرج السهم أيضا على عبد الله ، فقال عبد الله : قُضِى الأمر ورب الكعبة . قال : فساق عبد المطلب ولده عبد الله إلى المنحر ، والناس من ورائه صفوف . فلما وصل به إلى المنحر عقل رجليه بحبل ، فلما رأته أمه فى تلك الحال ضربت وجهها ونشرت شعرها . قال : فأضجعه وهو ذاهل الذهن ما يدرى ماذا يصنع مما بقلبه من الحزن . قال : فلما رأته أمه وقد عزم عبد المطلب على ذبح ولدها وقد شقت الشقائق مضت مسرعة إلى قومها مضطربة جوارحها مما جرى عليها حين رأت عبد المطلب قد عزم على ذبح ولدها ، وقد أخذ الخنجر وهو لا يسمع عذل عاذل ولا قول قائل ، وقد ضجت الملائكة بالتسبيح والتقديس ، وقد نشرت أجنحتها ، وابتهل جبرائيل وتضرع إسرائيل ، وهم يستغيثون إلى ربهم ، قال الله عز وجل : يا ملائكتى إنى بكل شىء عليم ، وأبليت عبدى لأنظر إلى صبره . قال : فبينما عبد المطلب كذلك ، إذ قد أتاه الله بالفرج ، وإذا هو بعشرة رجال حفاة عراة الرءوس فى أيديهم السيوف ، فحالوا بينه وبين ولده . فقال لهم عبد المطلب : ماشأنكم ؟ قالوا : لا ندعك تذبح ولدك ، ولو قتلتنا عن آخرنا ، فقد كلفت هذه المرأة ما لا تطيق ، فنحن أخواله وأحق الناس به ، وكانوا من بنى مخزوم . فلما رآهم عبد المطلب قد حالوا بينه وبين ولده ، رفع طرفه إلى السماء وقال : رب احكم بينى وبينهم بالحق وأنت خير الحاكمين . قال : فبينما هم كذلك ، إذ أقبل عليهم رجل من قومه يقال له عكرمة بن عامر ، وأشار بيده إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا . فقال : يا أبا الحارث اعلم أنك



قد أصبحت سيد الأبطح ، فلو فعلت بولدك ما عزمت ، لصارت سنّة من بعدك إلى يوم القيامة ، وهذا لا يليق بك ولا يصلح لمثلك . فقال عبد المطلب : أما ترى يا عكرمة ؟ إنى عاهدت الله تعالى . قال عكرمة : أيها السيد إن فى جوارنا كاهنة عارفة ليس لها فى الكهان قرين ، تحدث بما فى ضمير الناس وما يصير فى سرائرهم ، وعندها صاحب من الجان يخبرها بأخبار بنى آدم . قال : فلما سمع عبد المطلب كلامه سكن ما به ، وأجمع رأيهم على أنهم يمضون إليها لتشير عليهم ، قالوا : يا أبا الحارث لقد تكلم عكرمة بالصّواب . قال : وانصرف الناس وأخذ عبد المطلب ولده وأقبل إلى منزله وأخذ فى أهبة السفر إلى الكاهنة أم الجان . فلما كان بعد أيام أخذ عبد المطلب ولده ، وأخذ معه هدية عظيمة وخرج فى جماعة من بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، وأنشأ يقول :

أتتنى الهموم فضقت ذرعا وكم ملك لمثل ما قد حلّ أنزل دمعا

نذرت وكان نذر الحرّ دينا وهل حرٍ للنذر أن يمنعا

قال : ثم إن القوم ساروا طالبين الكاهنة ، فوجدوها جالسة بالمكان الذى هى فيه ، فتقدم عبد المطلب إليها ، وذلك بعد أن دفع إليها الهدية ، وسألها عن خبره ؟ فقالت : انزلوا واستريحوا يومكم هذا ، فان حقكم قد وجب ، وغدا سيظهر لكم العجب ، فتفرّق القوم عنها ، فلما كانوا فى غد أتوا واجتمعوا عندها فحينئذ أنشأت :

يا مرحبا بالفتيـة الأخيار السّاكنين البيت ذا الأستار

قد خلقوا من سلالة الفخّار ومن صميم العزّ والأنوار

خذوا بقول صحيح الآثار أتيتكم بالعلم والأخبار

أهل الضيا والنور والفخار من هاشم سماه ذو الأقدار

قد رام من خالقه الغفار أن يعطيه عشرة من الأذكار

من غير نقصان باذن البار فواحد منهم ينحره للإنذار

قال : ثم إنها نظرت إلى عبد المطلب وقالت : أنت الناذر ؟ قال : نعم ، جئناك لتنظرى فى أمرنا وتعملى الحيلة فى ولدنا ، فقالت : ورب البرية ، وناصب الجبال المرسية ، وساطح الأرض المدحية ، إن هذا الفتى الذى ذكرتم سوف يعلو ذكره ويعظم أمره ، وإنى سأرشدكم إلى خلاصه ، فكم

الدية عندكم ؟ فقالوا : عشرة من الإبل ، قالت : ضعوها باسم صاحبكم ، فان خرج السهم عليه فزيدوها عشرة أخرى واردوا السهم على الإبل ، فان خرج عليه فزيدوا عليها عشرة أخرى إلى أن يخرج السهم على الإبل ، فاذا وقع السهم على الإبل فأخرجوها ، واعلموا أن ربكم قبل منكم هديتكم . قال : ففرح القوم فرحا شديدا ورجعوا إلى أهليهم مسرورين . فلما وصلوا إلى مكة فرح أهلها جميعا ، وأقبلوا يسألون ما قالت الكاهنة ؟ فأخبرهم عبد المطلب بما قالت ، وأقبل عبد المطلب إلى ولده عبد الله يقبله ويضمه إلى صدره ، فقال له عبد الله : يا أبت يعزّ عليّ شقاؤك ، فقال : يا بنى أفديك بجميع مالى وأنت تسلم يا ولدى . قال : ثم أمر عبد المطلب أن يحضر جميع ما كان له من النوق ، فأحضرت ، وأرسل إلى بني عمه يأتون بالإبل على قدر طاقتهم ، فجعل أهل مكة يسوقون له النوق ، وأقبل عبد المطلب إلى فاطمة أم عبد الله وقد قرحت عيناها من البكاء ، فأخبرها بما قالت الكاهنة ففرحت وقالت : أرجو من ربي أن يقبل مني الفداء ويسامحني فى ولدى ، وكانت فاطمة ذات يسر ومال كثير ، وكانت أمها سرحانة زوجة عمرو المخزومى ، وكانت كثيرة المال والذخائر ، وكان لها إبل تسافر إلى العراق وإبل تسافر إلى الشام ، فقالت فاطمة : أفديه بمالى ومال أمى ، ولو طلب منا ربنا ألفى ناقة لقدمتها إليه وعلى الزيادة والضمان فعلى المال وكل ما حاشت يدى ويد قومى ، فشكرها عبد المطلب وقال لها : أرجو أن يكون فى مالى رضا ربى ويفرج كربى . قال : وأمسى الناس فى فرح وسرور . ثم أقبل عبد المطلب ومال إلى الكعبة ، فطاف بها سبعا وهو يسأل الله عز وجل أن يفرّج عنه . فلما أصبح الصباح دعا عبد المطلب برعاة الإبل أن يحضروا الإبل ، وأتى بنو عمه بما كان معهم من المال ، فجمعوا أموالا كثيرة ، فأخذ عبد المطلب ولده عبد الله وطيّبه وزيّنه وألبسه أفخر ثيابه ، وأقبل إلى الكعبة وفى يده الحبل والسكّين . فلما رأته زوجته فاطمة قالت : ياعبد المطلب ارم مافى يدك حتى يطمئنّ قلبي ، قال : إنى ذاهب إلى ربى أسأله أن يقبل منى الفداء فى ولدى ، فان نفد مالى ومال قومى خرجت راكبا جوادى إلى كسرى وقيصر وإلى الشام والروم وملوك الهند والصين ومشارق الأرض ومغاربها ، وأعطى ربى كل ما يطلب

منى ، فان أبى ذبحته ، وأنا إن شاء الله أرجو من الله أن يفديه كما فدى إسماعيل من الذبح . قال : وسار عبد المطلب حتى أقبل إلى الكعبة ، فرأى الناس مجتمعين فقال : يا معشر الناس إنكم تعلمون أن منزلة الولد من الوالد لاتقاس بأحد ، وما أنتم بأشفق منى على ولدى ، وقد كانت منكم بالأمس زلة وفعل منكر ، وإياكم أن تعودوا لمثلها أبدا ، ولا تحولوا بيني وبينه ، واتركونى أناجى ربى عز وجل ، وأرجوه أن يتكرّم علىّ ، فانه لم يزل أهل الجود والكرم . قال : ثم إن عبد المطلب قدّم عشرة من الإبل ووقفها من ورائه وتعلّق بأستار الكعبة وقال : اللهم أمرك نافذ لايمنعه منك مانع ، ثم أمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرجت على عبد الله ، فقال عبد المطلب لربى الرضا وكل الرضا ، فزاد على الإبل عشرة أخرى وأمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرجت على عبد الله ، فقالت قريش وساداتها : يا عبد المطلب لو قدّمت غيرك عسى يكون خيرا ، قد يكون ربك غضبان عليك ؛ قال عبد المطلب : يا قوم إن كان الأمر كما زعمتم ، فإن المُسىء أحقّ بالدعاء والتّضرّع والسؤال ، ثم قال : اللهم إن كان دعائى محجوبا بالذنوب والمعاصى ، فأنت غافر الذنب وكاشف الكرب ، تكرّم علينا بفضلك وإحسانك يا خير من سئل ، ثم زاد على الإبل عشرة أخرى ورمق بطرفه إلى السماء وقال : اللهم إنك تعلم السرّ وأخفى ؛ ياذا المنظر الأعلى اصرف عنا البلاء كما صرفت عن إبراهيم الخليل الذى وفى . ثم أمر صاحب الأقداح أن يضربها ثالثة ، فخرج السهم على عبد الله ، فقال عبد المطلب : إن هذا لشىء يراد ، ثم قال : أصبر أصبر فلعلّ مع العُسر يسرا ، ثم أضاف عشرة من الإبل ، ثم أقبل يدعو الله تعالى وأنشأ يقول :

يا رب هذا البيت والعباد　　إن ابنى هذا أقرب الأولاد

وحبه فى السمع والفؤاد　　وأمُّه باكية تنادى

فأوقه من نظرة الحسّاد　　فانه كالبدر فى البلاد

ثم أمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرج السهم على عبد الله . فقال عبد المطلب : كيف أبذل فيك الفداء يا ولدى وقد حكم فيك الرب بما شاء . ثم أضاف عشرة أخرى من الإبل ، وأمر صاحب الأقداح أن يضربها .



فضربها فخرج السهم على عبد الله . قال : فقالت أمه فاطمة : يا عبد المطلب : أنا أريد منك أن تتركنى أسأل الله عز وجل فى ولدى عسى أن يرحمنى ويرحم تضرّعى ، فقال : افعلى ما بدا لك ، فان تكن ذنوبى قد أوثقتنى فأنت عند الله أرجى منى . قال : فتقدمت فاطمة أم عبد الله وأضافت عشرة من الإبل فبلغت الإبل ستين ، فقالت فاطمة : يا رب أنت رزقتنى ولدا حسدنى عليه الحاسدون ، وعاندنى فيه المعاندون ، وأنا رجوت أن يكون لى سندا فعارضنى فيه أمرك ، وأنت تعلم يا رب أنه أحب أولادى إلىّ وأكرمهم لدىّ ، فافده يا رب واقبل الفداء ، ولا تشمت بى الأعداء . ثم أمرت صاحب الأقداح أن يضربها فضربها ، فخرج السهم على عبد الله . فقال عبد المطلب : إن لكل شىء دليلا ونهاية ، وهذا الأمر ليس لى ولا لك فيه حيلة ، فلا تعودى للاعتراض فى أمرى . ثم أضاف إلى الستِّين عشرة أخرى وقال : اللهمّ منك المنع ومنك العطاء ، وأمرك نافذ كما تشاء ، وقد تعرّضت إليك بجهلى وقبيح عملى فلا تخيب أملى منك . ثم أمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرج السهم على عبد الله .

قال الراوى لهذا الحديث : فضجَّ الناس بالبكاء والنَّحيب ، قال عبد المطلب ما بعد المنع إلا الرضا ، وما بعد الشدَّة إلا الرخاء ، وأنت يا رب تعلم السر وأخفى . ثم أضاف إلى السبعين عشرة ، وأمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرج السهم على عبد الله ، فأخذ عبد المطلب الحبل والسكِّين وأخذ بيد ولده عبد الله ، فهمّ الناس أن يمنعوه مثل المرَّة الأولى ، فقال لهم عبد المطلب : أقسمت برب هذه الكعبة الشريفة إن عارضنى أحد فى ولدى لأضربنَّ عنقى بهذه السكين ، فاتركونى حتى أنفذ أمر ربى ، فأنا عبده وولدى عبده يفعل بنا ما يشاء ويحكم ما يريد . قال : فأمسك الناس عنه ، ثم أضاف إلى الثمانين عشرة أخرى ، وهو يقول : يا رب إليك المرجع وأنت ترى وتسمع . ثم أمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرج السهم على عبد الله ، فوقع عبد المطلب مغشيا عليه ، فلما أفاق وقد عظم أمره ولم يدر ما يصنع ، فعند ذلك صاح عبد الله وهو فى وثاقه : يا أبتاه أما تستحى من الله كم تراوده فى المطال وكم تلحّ عليه بالسؤال ، هلُمَّ إلى ولدك فانحره واصبر



على القضاء ، ولكن يا أبت اربط يدى ورجلى وغط وجهى ، وكفّ ثيابك عنى لئلا تتلطخ بالدم فتكون ذكرا لحزنك ، وأوصيك يا أبت بأمى خيرا ، فسلّ حزنها وسكّن روعتها ، فانى أعلم أنها لاتلتذّ بعيش بعدى ، وأوصيك بنفسك ، إن خفت من ذلك فغمّض عينيك فانك تجدنى محتسبا . فقال عبد المطلب : يا بنى من قرع الباب يوشك أن يؤذن له بالدخول ، ولعل أن يأتينا الفرج قريبا . ثم بكى عبد المطلب حتى إن دموعه بلّت لحيته ، ثم قال : يا قوم كيف أتعرّض لربى فى قضائه ، فانى أستحيى أن أعاوده فينتقم منى ، ثم نهض إلى الكعبة فطاف بها ودعا الله سبحانه وتعالى ومرّغ وجهه على التراب وزاد فى دعائه وقال : يا رب امض أمرك فانى راغب فى رضاك . ثم زاد على الإبل عشرة أخرى فصارت مائة ناقة ، ثم قال : من أكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ، ومن سأل كثيرا انتفع بسؤاله ، ثم أمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرج السهم على الإبل ، فنزع الناس عبد الله من يد عبد المطلب وأقبلوا إليه يهنئونه بالسلامة الخاص والعام من الذبح ، وأقبلت أمه وهى تتعثر بأذيالها ، وأخذت ولدها وقبّلت ما بين عينيه وضمته إلى صدرها وقالت : الحمد لله الذى لم يبتلنى بذبحك ولم يشمت بى الأعداء ؛ فبينما هم كذلك إذ سمعوا هاتفا من داخل الكعبة وهو يقول : قبل منكم الفداء ، وأكمد عنكم الأعداء ، وقرب خروج المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم . قالت قريش : بخ بخ يا أبا الحارث ، هتفت بك الهواتف ، وفدى ابنك بذبح الإبل ، فقال عبد المطلب : مهلا يرحمكم الله ، فان الأقداح تصيب وتخطئ ، وقد خرجت على ولدى مرارا متواليات وهذه مرة واحدة قد خرجت على الإبل ، ولا أدرى ما يكون فى الثانية ، فاتركونى أعود مرة أخرى ، فقالوا : افعل ما بدا لك . ثم إنه استقبل الكعبة وقال : اللهم يا سابغ النعم ويامعدن الكرم ويا مزيل النقم ، إن كنت مننت علىّ بولدى فأظهر لنا برهانه مرّة ثانية . ثم أمر صاحب الأقداح أن يضربها ، فضربها فخرج السهم على الإبل ، فأخذت فاطمة ولدها وفرّج الله تعالى عنها الكرب العظيم والبلاء المبين ، وهمّ عمومته أن يأخذوه ويمضوا به ، فقال لهم عبد المطلب : دعوا ولدى حتى يمضى عنه الفداء ، ثم أمرهم بنحر الإبل عن آخرها فنحروها ، فقال لهم عبد المطلب : لاتمنعوا

عنها آحدا من الناس ولا وحشا ولا طيرا ، وانصرف الناس وجرت سنة الدية مائة من الإبل من ذلك الآن إلى يومنا هذا ، ومضى عبد المطلب مع أولاده .

فلما رأت الكهنة والأحبار من اليهود عبد الله وقد تخلص من الذبح وخاب أملهم امتلئوا عليه غيظا وحنقا ، وكانوا قبل قد فرحوا بقربان عبد الله . قال : فلما فاتهم ما أملوه قال بعضهم لبعض : تعالوا نعمل حيلة فى هلاكه من حيث لايشعرون ، فقال كبيرهم وكان اسمه ريان : كيف هذه الحيلة ؟ وكانوا يسمعون كلامه ويطيعون أمره ، فقالوا : نعمل لهم طعاما ونضع فيه سما ، ثم نبعثه هدية إلى عبد المطلب ونقول : هذا الطعام عملناه كرامة لخلاص عبد الله من الذبح ، فاذا أكلوه انقطع أثرهم وعدمت شوكتهم التى تخشون منها . قال : فعزم القوم على ذلك وصنعوا طعاما ومزجوه بالسم وأرسلوه إلى دار عبد المطلب ، وكان حينئذ أولاده مجتمعين فى دار فاطمة أم عبد الله ، فقرعوا عليهم الباب ، فخرجت فاطمة لهن وقالت : ياأيتها النسوة من أين أقبلتن مرحبا بكن ؟ فقالوا : نحن من أحبابكم وأنسابكم وأقربائكم ، ونحن من نساء بنى عبد مناف ، وقد دخل علينا الفرح والسرور بخلاص ولدكم عبد الله ، وقد عملنا لكم وليمة كرامة لكم لتأكلوا منها .

قال الراوى : فأخذت فاطمة أم عبد الله منهن الطعام ودخلت به على عبد المطلب ، فقال لها عبد المطلب : يا فاطمة من أين لك هذا الطعام ؟ فقالت له ما قالت النساء لها ، فلم ينكر منه شيئا ، ثم إنهم غسلوا أيديهم واجتمع معه أولاده حول المائدة ليأكلوا ، فأنطق الله تعالى ذلك الطعام وقال لهم : ارفعوا أيديكم عنى ، فانى طعام مسموم . قال : فرفعوا أيديهم عنه ، وكان ذلك أول معجزة ظهرت من دلائل ظهور النبى صلى الله عليه وسلم . قال : فحفروا له حفيرة ودفنوه ، وخرجوا يطلبون تلك النسوة فلم يجدوهن ، فعلموا أن ذلك من أعدائهم اليهود ، والله أعلم بالصواب .

إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ،

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّموا تَسْلِيماً .

قال البكرى : فلما بلغ عبد الله مبلغ الرجال تطاولت إليه الخطاب من كل مكان من أشراف قريش وسائر القبائل من العرب ، وبذلوا فى تزويجه



الأموال وكل ذلك رغبة فى النور الذى فى وجهه ، وكان عبد الله إذا مرّ بين الناس يلمع النور بين عينيه ، فسماه أهل مكة مصباح الحرم ، وأقام عبد الله مدة من الزمان حتى تزوج بآمنة .

وكان سبب تزويجها أن الأحبار والكهّان اجتمعوا وتكلّموا فى سبب مولد النبي العربى صلى الله عليه وسلم ، فلما تحقّقوا وعلموا أنه قد قرب وقت خروج السيف المسلول ، وظهرت علاماته ونوره وبرهانه عقدوا رأيهم على المسير إلى حبر لهم كان معروفا عندهم بالعلم والمعرفة ، وكان ذلك الحبر فى قرية من قرى الأزرق ، وكان جميع الكهنة والأحبار يقتبسون منه العلم ، وكان ذلك الراهب له من العمر مائة سنة . فلما وصلوا إليه قالوا : يا سيدنا فى كتبنا صفة هذا الرجل الذى يقال له السفّاك الهتّاك الذى تقاتل معه الأملاك وقد قرب الآن ظهوره ، وقد جئنا إليك نعلمك بحالنا ، وما الذى تشير به علينا فى أمره قبل انتهائه ؟

قال الراوى : فلما سمع الراهب كلامهم قال : يا قوم من أراد منكم إبطال شيء أراده الله تعالى فانه جاهل مغرور ، وإن هذا الأمر كائن عند الله لا محالة ، وكم لهذا الرجل الذى ذكرتموه من معجزات ، وقد سبق علم أمره عند الله تعالى ، فكيف تقدرون على إبطاله ، وهو مبطل كهانة الكهّان ، ومزيل دولة الصلبان ؟ فلما سمعوا كلامه خافوا وحذروا ؛ فقال رجل من أحبارهم يقال له هيوبا بن داحور ، وكان عبدا متمرّدا شديد البأس قوى المراس : يا ويلكم تشاورون راهبا قد خرف وضاع عقله ، اعلموا أن الشجرة إذا انقطع أصلها هل تحيا وتعود ؟ قالوا : لا ، فقال لهم : دبّروا الحيلة فى قتل هذا الذى يخرج من صلبه السفاك الهتاك الذى أنتم منه خائفون ، قوموا من وقتكم وساعتكم هذه وخذوا معكم تجارات وسيروا معى إلى مكة ، فاذا دخلتم فيها افعلوا كما آمركم به وأنا معكم ولا تخالفونى ، وليعمد كل واحد منكم إلى سيفه ويسقيه سما فانه أشفى لغليلكم ، فأجابوه إلى ذلك وافترقوا على العهد والميثاق . قال : وخرجوا بجمال محمّلة عليها التجارة وما يصلح للسفر وساروا حتى وصلوا مكة ، فلما دخلوا سمعوا من ورائهم هاتفا يقول :

قصدتم خيـر الأنام بمكركم   تريدون غـــدرا فى المعظّم قدرا



فمن عاند الرحمن لاشكَّ قد هوى   بنار خــلود تقصم الظّهرا
وتفضحون يا شرَّ الأنام كأنكم   شِبْه نعاجٍ قد سِيقت إلى الجزرا

قال : فسمعت الأحبار والرهبان كلام الهاتف ، فاهتمّوا همّا شديدا عظيما واشتدَّ كربهم . فقال هيوبا بن داحور : يا قوم أنا أعرف منكم بهذا المكان إن فيه بعضا من الجنِّ والشياطين ، وهذا الهاتف شيطان قد هتف فى الهواء ، لأنه قد أخذ سرَّكم وعلانيتكم وعرف قصدكم ، فلا تخافوا من شيء ، فرضوا بقوله ودخلوا مكة .

قال الراوى : وأما عبد الله بن عبد المطلب فقد رأى رؤيا هالته وفزع منها فزعا شديدا وخرج مرعوبا إلى أبيه ، فقال يا أباه ، فقال : مالك يا ولدى مرعوبا ؟ صرفُ الله عنك الأذى وكفاك شرَّ الرَّدَى ووقاك كل ما تخاف ؟ أخبرنى ياولدى عن رؤياك ؛ قال : يا أبت رأيت كأنّ رهطا من اليهود بأيديهم السيوف المجرَّدة ، وهم على صورة القردة ، ورأيت كأنهم قعود على أدبارهم وأنا أنظر إليهم وهم يهزون السيوف ويشيرون بها إلىَّ ، فلما رأيتهم علوت عنهم فى الهواء ، فبينما أنا كذلك وإذا بنار قد نزلت فخفت منها ، وإذا بالنار قد وقعت على تلك القردة وأحرقتها عن آخرها . فقال له أبوه : يا ولدى وقاك الله شرَّ ما تخاف ، وإن الناس يحسدونك على هذا النور الذى فى وجهك ، فوالله يا بنى لو اجتمع أهل الأرض كلهم على إطفاء هذا النور لعجزوا عن ذلك ، لأنه عندك وديعة من الله عز وجل ، ولكن هاهنا أحبار من اليهود من أهل الشام تجار ، وفيهم الحكمة والمعرفة ، فقم معى واقصص عليهم رؤياك ؛ ثم إنه قبض على يد ولده عبد الله ومضى به إليهم ، فلما نظره اليهود وهو كأنه القمر الطالع ، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا : هذا الذى نطلبه وهو عدوّنا الذى سبب مسيرنا إليه . قال : فلما أقبل عبد المطلب وعبد الله عليهم قال : يا معاشر الأحبار والكهّان قد جئنا إليكم ، خبرونا بما رأى ولدى هذا فى منامه ، فقالوا : وما الذى رأى حتى نفسرها لك ؟ قال : فقصّها عليهم عبد المطلب ، فلما سمعوا ذلك من عبد المطلب ازدادوا غيظا على غيظهم ؛ فقال لهم كبيرهم هيوبا بن داحور : اعلم أيها السيد الكريم أن هذا أضغاث أحلام وخطرات أوهام ووسواس منام ، وإنما أنتم سادات قريش ليس لكم



معاند ، وليس على ولدك هذا من رؤياه بأس ولا خطر ولا هم ولا غم ، فانصرف عبد المطلب بولده ؛ وأقام الكهنة والأحبار بعد ذلك أياما وهم يدبّرون الحيلة والخداع فى هلاكه ، فلم يقدروا على شىء .

فلما كان فى بعض الأيام إذ عزم عبد الله على الصيد والقنص ، وكان من عادته أنه يخرج مع أبيه وإخوته إلى الصيد إلا ذلك اليوم فقد خرج وحده ولم يعلم به أبوه وإخوته ، وكان اليهود مرصدين له فى وسط الطريق ، فخرجوا وراءه وهو لا يشعر بهم حتى اجتمعوا عليه ، وكان عبد الله قد اصطاد وحشا وهو لاهٍ بسلخه فنظر إلى القوم وقد أقبلوا إليه ، فلما رأوه ورآهم قال لهم كبيرهم : يا قوم هذا هو الذى خرجتم لأجله قد حصل فى أيديكم ، دونكم والسيوف والنبل والقنا . قال : فأحاطوا به من كل جهة ومكان ، وسدّوا عليه الطريق من كل ناحية ، فرفع رأسه عبد الله وإذا هم يريدون قتله ، فقال لهم : يا قوم ما شأنكم ؟ فوالله ما بسطت يدى إلى أحد منكم بسوء ولا مكروه أبدا ، ولا قتلت أحدا منكم خطأ ولا عمدا حتى تطالبونى بدمه ، فما حاجتكم عندى أيها اليهود والأحبار ؟ قال : فلم يردوا عليه جوابا ، وأشار بعضهم إلى بعض وهجموا عليه ، فجعل نبلة فى كبد قوسه ورمى بها نحوهم فأصابت رجلا منهم فوقع ميتا لا رحمه الله . ثم إن عبد الله اعتصم بالله ورماهم أربع نبال واحدة بعد واحدة ، وقتل منهم أربع رجال ، فاحترقت قلوبهم واشتغلوا بأنفسهم فأخذ نبلة خامسة ليرميهم بها وأنشأ يقول :

لى همّـــة تعلو على كل همّـــة ‏ ‏ وقلب صبور لا يروّع فى الحرب
ولى نبـــلة أرمى بها كل ضيغم ‏ ‏ فتنفذ فى اللبّات والنحر والقلب
وأربعـــة منهم أصبيت بأربع ‏ ‏ ولو كاثرونى صلت بالطعن والضرب
أخـــذت نبالى فأرسلت بعضها ‏ ‏ فصارت كبرق لامع فى خلال السحب

قال الراوى : فلما سمعوا منه ذلك ورأوا أفعاله بهم ، قال كبيرهم : يا فتى لقد أسرفت فى فعلك وقتلت رجالنا بلا ذنب ولا جرم ولا سابقة سبقت منا إليك ، ونحن قوم من تجار العرب الذين وقفتم علينا أنت وأبوك بالأمس ، وكان لنا عبد وانهزم عنا هذا اليوم وطلعنا فى أثره ، فلما رأيناك أنكرناك من بعيد ، فلما قربنا منك عرفنا أنك عبد الله بن عبد المطلب ، فرح الآن سالما



غانما إلى أهلك فانا قد سامحناك بكل ما فعلت معنا . فقال لهم عبد الله : ويلكم ما أكذبكم ، فهل يكون معكم عبد مثلى وصفته كصفتى ؟ وعبدكم ما عنده شيء من آلة الصيد والقنص كما عندى ؟ فقال اليهود : قد كنت بعيدا فلما قربت الآن منا عرفناك ، فاسمح لنا فقد سمحنا لك بما كان منك لنا وكنت أعظم جرما منا ، لأنك قتلت سادات قومنا وكبراءنا ولا ذنب لهم ، ولكن نحن حيث أكلنا من طعامكم وشربنا من شرابكم قد سامحناك ولذنبك غافرون وأنت تكون أولى بكتمان أمرنا وما جرى لنا ولك فى هذا اليوم .

قال الراوى : فلما سمع كلامهم تخيل أنه حق وصدق وهو مكر وخديعة من اليهود المنافقين . قال : ثم إن عبد الله ركب جواده وأخذ قوسه وكنانته وعطف ناحية الطريق ، فلما رأوه قد أقبل يريد الخروج بادروا إليه بأجمعهم يرمونه بالنبل وبالحجارة ، واحتاطوا به من كل مكان بالسيوف والنبال ، وكلما دنا إليه واحد منهم قتله ؛ فبينما هو معهم وإذا برجال راكبين على خيولهم وبأيديهم السيوف والنبال ، وهم مسرعون نحوهم ، فتأملوهم فاذا هم بنو هاشم وبنو عبد مناف وفتيان مكة شرّفها الله تعالى ، وكان بأولهم عبد المطلب وأبو طالب والعباس ؛ فعند ذلك ناداه أبوه عبد المطلب وقال : يا بنىّ هذا تأويل رؤياك التى رأيتها فأحاط به إخوته وأعمامه . قال : وكان قد أخبرهم بخبره رجل يقال له وهب بن عبد مناف ، لأنه أشرف عليهم وهو فى المعركة فهمّ أن ينزل عليهم ، فقال : أنا وحدى ماذا أصنع بأعداء الله ، ولكن أقبل إلى الحرم وأستصرخ بنى عبد المطلب ، فأتى إليهم ذلك الرجل وأخبرهم ، فبادروا مسرعين ، فلما رآهم اليهود أيقنوا بالهلاك ، ونزل بهم البلاء . قال : فأحاطوا بهم ، فقتلوا منهم ما شاء الله ، فقالوا : دعونا نصل إلى مكة وافعلوا بنا ما شئتم ، لأن لنا مع الناس من أهل مكة أموالا كثيرة ومتاعا وأشياء قد أخفيناها وأنتم أحق بها خذوها ولا تقتلونا . قال : فكتفوهم كلهم وساقوهم إلى مكة ، وأقبل عبد المطلب على ولده يقبله ويقول : يا ولدى لولا وهب بن عبد مناف أخبرنا عما كان جرى لك معهم وإلا ما كان لنا خبر ، ولكن الله يقيلك ويكفيك من كل سوء ومكروه . قال : فأقبل إليهم أهل مكة يهنئونهم بالسلامة ، وإذا باليهود كلهم مقيّدين أسارى ، فجعل الناس يرمونهم بالحجارة ، فقال



عبد المطلب أرسلوهم إلى دار وهب بن عبد مناف وابقوا هناك ، فلما صار الليل أقبل وهب بن عبد مناف على زوجته برّة بنت عبد العُزّى وقال لها : يا برة لقد رأيت اليوم أمراً عجيبا من عبد الله بن عبد المطلب ما رأيته من أحد غيره من الناس ، وهو يكرُّ على هؤلاء القوم ، وكلما رماهم نبلة قتل منهم إنسانا ، وهو أجمل الناس وجها وحسنا وعقلا وكمالا ، بما قد خصه الله به من النور الساطع ، والضياء اللامع ، فامضى الآن إلى أبيه واخطبيه لابنتنا واعرضيها عليه فعسى أن يقبلها منا ، فان قبلها منا كان سعدنا وعزنا وشرفنا ، فقالت له زوجته : يا وهب اعلم أن رؤساء مكة وأبطال الحرم قد رغبوا فيه فأبى عليهم فى ذلك ، وقد كاتبه ملوك الشام والعراق على التزويج فأبى عليهم ، فكيف يتزوّج بابنتنا وهى سيئة الحال قليلة المال ؟ فقال لها وهب : إن لى عليهم الآن يداً لأنى أخبرتهم بأمر عبد الله مع اليهود ، وأظن يا برة أنهم يقبلون ابنتنا ، فقالت برة : عسى ولعل . قال : ثم إن برة قامت ولبست أفخر ثيابها وخرجت حتى أتت دار عبد المطلب ، فوجدته يتحدث مع أولاده بما لقوا من اليهود ، فقالت لهم : أنعم الله تعالى صباحكم ومساءكم ، وأدام عليكم نعماءكم وسروركم ، فرد عليها السلام والتحية والإكرام وقال لها : وأنت وقيت الردى وكفيت الأذى وأدام عليكم النعماء وأسبغ عليكم البركة فى الصباح والمساء ، وقد كان فى هذا اليوم لبعلك علينا يد ، ولا نقدر نوفيه أبدا ، لأن له علينا أيادى بالغة ، ونعمة سابغة ، وعسى أن نكافئه إن شاء الله تعالى ما دمت بالحياة .

قال البكرى : فطمعت برة بكلام عبد المطلب ، ثم قال لها : بلّغى بعلك التحيّة والإكرام ، واذكرى له إن كان له عندنا حاجة نقضيها له إن شاء الله تعالى مهما كانت . قال : فتوجّهت له برة بالكلام وقالت : يا أبا الحارث قد طلبنا منكم تعجيل المسرّة ، وقد علمنا أن ملوك الأرض تطاولت إليكم وقد رغبوا فى ولدكم يطلبون أنواركم الساطعة ، ورفعتكم الفاخرة وجاهكم ، وقد طمعنا فيه من جملة من طمع ، ورجونا مع من رجا ، وقد رجا منكم وهب بن عبد مناف أن يكون عبد الله بعلا لابنتنا ، وقد جئتكم فيه راغبة وطامعة ، ونرجو منكم أن تقبلوها منا ، فان كان مالها قليلا فعلينا إكثاره

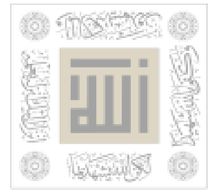


وما يحملها ، وهي هدية تكون منا لولدكم عبد الله . قال : فلما سمع عبد المطلب كلامها نظر إلى ولده ، وكان قبل ذلك إذا عرضوا عليه التزويج يأبى ، فقال له أبوه : يا بنيّ ما تقول فيما سمعت من الكلام ؟ فوالله ما في بنات أهل مكة أحسن منها ولا أكمل منها عقلا ولا أعذب من لسانها نطقا ، وهي طاهرة مطهرة عاقلة أديبة لبيبة ، فسكت عبد الله ولم يرد جوابا ، فعلم أبوه أنه قد مال قلبه إليها ، فقال عبد المطلب : أيتها المرأة الجليلة : قد أجبناك إلى ما أردت ، وقد رضينا لعبد الله ابنتكم ، والساعة أمضي إلى وهب ، فقالت فاطمة زوجة عبد المطلب : أنا أمضي إلى وهب معك حتى أنظر إلى آمنة . قال : ففرحت برة ورجعت وهي فرحة مسرورة . ثم إنها سارت إلى بعلها وهب ، فقال لها زوجها : ما وراءك ؟ فقالت له : يا هذا قد سعدت دارك ، وعلا في الناس ذكرك ومجدك ، فقد رضي عبد المطلب بابنتك ، ولكن مع الفرحة ترحة ، فقال لها : وما هي ؟ فقالت : الآن فاطمة خارجة إلينا تنظر آمنة ، فان رضيت تمت المصاهرة ، وإني خائفة من فاطمة أنها لاترضى بها إذا رأتها على حالتها هذه ؛ فقال وهب : اخرجي إليها وزينيها بأحسن الزينة ، وأفرغي عليها أحسن ثيابها الفاخرة ، وقلّديها عقودها وخلاخيلها ودمالجها ، وألبسيها أحسن ما يكون عندك ، فلعل أن ترضى بها فاطمة لولدها عبد الله .

قال الراوي : فعمدت أمها برة وألبستها أحسن الأثواب وزينتها بأحسن زينة وضفّرت شعرها ، وأرخت ذوائبها على أكتافها وقالت لها : يا بنتي إذا أتتك فاطمة وخاطبتك فاياك أن تعرضي عنها ، وارغبي في هذا النور الذي في وجه عبد الله . قال : فبينما هي مع ابنتها بالحديث وإذا بعبد المطلب وولده عبد الله وأمه فاطمة داخلون عليهم ، فقاموا إجلالا لهم ورحّبوا بهم . ثم إن فاطمة جلست عند آمنة ، فقامت لها إجلالا وإكراما وتعظيما لقدرها ، فسلّمت فاطمة على آمنة ، فرحّبت بها وقد كساها الله تعالى نورا وجمالا وبهجة وكمالا وضياء ، فلما رأتها فاطمة أعجبتها ، لما قد سبق في علم الله تعالى أنه يخرج من بطنها ولد يكون سيّد الخلق كلهم . قال : فلما رأت فاطمة منها ذلك الحسن والجمال ، والبهاء والكمال ، ونورها ساطع في وجهها ، أعجبتها وقالت لأمها برة : ما كنت أظن أن آمنة تكون هكذا على هذه الحالة ، قالت

لنا برة : فما رأيت من الحسن والجمال فهو من بركاتكم علينا . قال : ثم خاطبت آمنة فاطمة بكلام بليغ ، وإذا هى أفصح نساء أهل مكة لسانا ؛ فقالت فاطمة : بارك الله فيك يا آمنة . قال : فوقع الحديث بين وهب بن عبد مناف وبين عبد المطلب . فقال وهب : يا أبا الحرث هى هدية منى لولدك ، فقال له عبد المطلب : جزيت خيرا ، ولكن لابد أن يكون صداق يكون بيننا وبينك يشتهر بين قومنا وقومك . قال : ثم إن عبد المطلب أراد أن يتكلم بالخطبة ، وإذا قد سمعوا همهمة وأصواتا ، فوثب وهب قائما وبيده سيف ، وكذلك عبد المطلب وولده قاموا جميعا ، وذلك أن اليهود الذين كانوا محبوسين داخلهم الفزع والجزع ، وكانوا فى دار خالية ، فحركهم الشيطان لسبب قتلهم ، فقال لهم كبيرهم هيوبا : يا ويلكم ، أنتم مقتولون لامحالة ولكن قوموا الآن بجمعكم وخاطروا بأنفسكم واحملوا عليهم فعساكم تظفرون بهم وتنهزمون فى جوف الليل . قال : ثم إن هيوبا تمطّى فى كتافه وحله وكان من جلود البقر ، ثم حلّ كتاف أصحابه كلهم ، فقالوا له : كيف نحمل عليهم وما عندنا سلاح ؟ فقال هيوبا : عليكم بالحجارة . قال : فعند ذلك بادر اليهود ، وبيد كل واحد منهم حجران ، فأقبلوا حتى صاروا قريبا من عبد المطلب وولده ووهب وهم جلوس فى ضوء السراج ، واليهود يرونهم وهم لايرون اليهود ، فرموهم بالحجارة التى كانت معهم ، فردّها الله تعالى عليهم فهشّمت وجوههم وذلك ببركة ظهور نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فلما رأوا منهم ذلك صاحوا عليهم وأقبلوا إليهم وقالوا لهم : يا ويلكم يا أعداء الله هذا فعالكم ، ثم حملوا عليهم وقتلوهم عن آخرهم .

قال الراوى : فلما قتلوا اليهود خرج عبد الله مع أبيه وأمه إلى منزلهم ، بعد أن قالوا : يا وهب إذا كان فى غداة غد جمعنا من قومك وقومنا حتى يكونوا شهداء علينا وعليكم . قال : فلما أصبح الصباح أرسل عبد المطلب إلى بنى عمه يحضرون خطبتهم . قال : فلبس عبد الله أفخر ثيابه ، وتطيّب بالمسك والعنبر . وجمع أيضا وهب قومه من قرابته وبنى عمه ، وكان جلوسهم فى الأبطح ، فلما استقر بهم الجلوس خطبوا خطبتهم ، فقام عبد المطلب وقال : الحمد لله حمد الشاكرين ، حمدا استوجبه الله علينا بما أولانا . وجعلنا لبيته




جيرانا ولحرمه سكانا ، وألقى محبتنا فى قلوب جميع عباده ، وشرّفنا على الأمم ، ووقانا شر الآفات والنقم ، وأحلّ لنا النكاح وحرّم علينا السفاح ، وأمر بالاتصال وحرّم علينا الحرام . اعلموا يا من حضر أن ولدنا عبد الله خطب فتاتكم وهى آمنة بنت وَهْب بصداق معجّل ، ومهر مؤجّل ، مقداره كذا وكذا ، فهل رضيتم بذلك من ولدنا ؟ فقال وهب : قد قبلنا ورضينا ، فقال الحاضرون : سمعنا وشهدنا . قال : ثم تصافحوا ثلاثا ، وأولم عبد المطلب وليمة حضرها جميع أهل مكة . قال : فلما دخل عبد الله على آمنة بنت وهب رآها فائقة الحسن والجمال . قال : فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن ينادى فى صفوف الملائكة المقرّبين عند سدرة المُنتهى ، فنادى جبريل : إن الله تعالى قد تمّت حكمته ونفذت مشيئته ، وإن وعده الحق الذى وعد من ظهور نبيّه البشير النّذير السّراج المنير ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى الله عز وجل ، وهو صاحب الأمانة والصيانة ، ويظهر نوره فى البلاد ، ويكون رحمة عامة لجميع العباد ، وقد وعد محبه بالشّرف والرّضا ، وأوعد مبغضه بسوء القضاء ، وهو الذى عرض عليكم من قبل أن يخلق الله تعالى آدم عليه السلام ، واسمه فى السماء أحمد ، وفى الأرض محمد ، وفى الجنة أبو القاسم صلى الله عليه وسلم . قال : فعند ذلك أجابته الملائكة بالتّسبيح والتّهليل والتّحميد والتّقديس لله رب العالمين ، وفتحت أبواب الجنان ، وغلّقت أبواب النيران ، وشرّفت الحور والولدان ، وتزيّنت الحور الحسان ، ونطقت الأطيار على الأغصان بالتقديس والتحميد والتسبيح للملك الحنان المنان .

فلما فرغ جبريل عليه السلام من الخطبة فى أهل السموات ، أمره الله تعالى أن ينزل فى مائة صف من الملائكة إلى أقطار الأرض كلها وإلى جبل قاف ، وإلى الملك الأعظم ميكائيل عليه السلام خازن السحاب والأنهار والفيافى والقفار يبشّرهم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الأرض السابعة ومستقر الحوت أخبرهم بخبره وخروجه ، فمن أراد الله به خيرا ألهمه حبه ، ومن أراد به شرا ألهمه بغضه ، وزلزلت الجن والشياطين وطردت عن موقفها الأول الذى كانوا يسترقون السمع فيه ورجموا بالشهب الثواقب .



قال الراوى : وكانت الخطبة ليلة الجمعة عشية عرفة ، وكان عبد الله بن عبد المطلب قد خرج هو وإخوته وبنو عمه ، فبينما هم كذلك سائرون ، وإذا هم بنهر عظيم فيه ماء زلال ، ولم يكن قبل ذلك اليوم هنالك ماء ولا نهر ، فتعجب عبد الله ، ولم يجد طريقا ولا مسلكا قد قطع عليه الجادة ، فبينما هو كذلك متحير إذ نودى : يا عبد الله اشرب من هذا الماء ، قال : فشرب منه فوجده أبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك الأذفر . قال عبد الله : مررت إلى ذلك النهر مرة أخرى فلم أجده ، فأقبل نحو إخوته وأخبرهم بذلك فتعجبوا . قال : فلما رجعوا مضى عبد الله مسرعا إلى منزل آمنة طائش العقل والفؤاد ، فقالت له : مالك صرف الله عن وجهك الطوارق وكفاك شر الأيام ، فقال لها : يا آمنة تطهرى وتعطرى ، فعسى الله أن يستودعك هذا النور المضىء . قال : ففعلت آمنة ما أمرها به ، فغشيها تلك الليلة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فانتقل النور إلى وجهها كأنه المرآة الصافية ، يرونه مثل المصباح ، وكانت آمنة إذا دخلت البيت أغناها ذلك النور عن السراج .

قال البكرى : إن السحرة والكهنة والشياطين والمردة من الجان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يظهرون العجائب ، ويحدثون الناس بالأمور الغرائب ، وبكل ما يخفونه فى السرائر وما تكنه الضمائر ، وينطق الكهنة والسحرة على ألسنة الجن والشياطين والمردة الذين يسترقون السمع من السماء . فلما ولد النبي صلى الله عليه وسلم منعوا من ذلك .

قال البكرى رضى الله عنه : بلغنا أنه كان بأرض اليمامة كاهنان عظيمان فائقان أهل زمانهما من الكهان والأحبار ، وكان اسم أحدهما ربيعة بن مازن ابن غسان وكان يكنى سطيحا ، وهو أعلم من الكهان وأخبرهم ؛ والآخر اسمه شق بن باهلة بن بدير اليمانى . فأما سطيح فان الله تعالى قد خلقه لحما بلا عصب ولا عظم سوى جمجمة رأسه ، وكان يطوى كما يطوى الثوب ، ويجعل وضما كما يجعل اللحم على وضم القصاب ، وكان سطيح لا ينام من الليل إلا ساعة ويقلب طرفه إلى السماء والكواكب الزاهرات ، والأفلاك الدائرات والبروق اللامعات ، يحمل إليه من سائر الأمصار ، ويرفع إليه الملوك من



جميع الأقطار ويسألونه عن غوامض الأسرار . قال : فبينما هو ينبئهم عما في قلوبهم من الأخبار ، ويخبر عما في الزمان من العجائب وأصناف الغرائب وهو ملقى على ظهره شاخص بصره ولا يتجوّل منه غير عينيه ولسانه ، فلبث دهرا طويلا على هذا الحال .

فبينما هو ذات ليلة من الليالي شاخص بصره إلى السماء ، إذ لاحت له برقة مما يلي مكة ، وإذا بأنوار وضياء لامع قد علا على الأكوان ، ثم رأى الكواكب وقد علا نورها بالأزهار ، تتصادم بعضها ببعض وظهر لهم دخان ، ثم هوت واحدة بأثر واحدة حتى غابوا في الثرى ، فلما رأى ذلك سطيح دهش وحار وأيقن بالبوار ، وقال : كواكب تظهر وبرق يلمع بالنور يدل على عجائب كثيرة وأخبار ، وبقي ليلته ويومه ذلك متحيرا حتى انقضى النهار . فلما أدركه المساء أمر غلمانه أن يحملوه إلى موضع في جبل كان هنالك عاليا شاهقا ، فأمرهم فحملوه ، فجعل يقلب طرفه يمينا وشمالا ، وإذا هو بنور ساطع وضياء لامع ، قد علا وأحاط على الأقطار وملأ الآفاق ، فقال لغلمانه : أنزلوني وأسرعوا فان عقلي قد طار ، ولبي قد حار لهذه الأنوار ، وإني أرى قد آن أمر جليل وقد دنا الرحيل بلا شك عن قليل ، فقالوا له : وكيف ظهر لك ذلك ؟ قال : يا ويلكم إني أرى أنوارا هائلة قد نزلت من السماء إلى الأرض وتهاتفت الهواتف ، وإني أظن أنها علامات خروج الهاشمي فقد دنا ، فان كان الأمر كذلك فالسلام على الأهل والوطن إلى آخر الزمن . قال : فحار غلمانه من كلامه وأنزلوه من الجبل ، فأرق تلك الليلة أرقا شديدا ، فأصبح محزونا قلقا لايهنأ برقاد ولا يطأ مهادا ، كثير التفكر حائر القلب ، فجمع قومه وأهله وعشيرته وقال لهم : اعلموا أني أرى أمرا عظيما ، وخطباً جسيما ، وقد غاب عني خبره ، وخفي عليّ أثره ، وشايعت إلى جميع إخواني من الكهان ، فكتبت إليهم في سائر البلدان ؛ وكتب إلى شق الكاهن ، يشكو إليه الأحوال ويشرح له المقال . قال : فرد عليه الجواب : وقد ظهر عندي بعض الذي ذكرت ، وسيظهر هذا النور الذي وصفت ، غير أني لاأعلم ما فيه ، ولا أعرف شيئا من دواعيه . قال : فعند ذلك كتب إلى الزرقاء ملكة اليمن وكاهنتهم قريبة من الشر بعيدة عن الخير ، قد ملكت قومها بسحرها وشرها ، ولم يكن

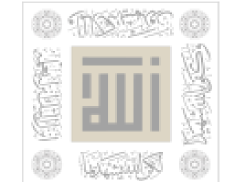


أحد من الناس يقدر عليها ، ولا يجسر على بلدها ، لما يعلمون من شرها وسحرها ، وكان المجاورون لها آمنين فى معايشهم ، ولا يخافون من عدو ولا يجزعون من أحد ، وكانت عظيمة الحظ ، حديدة النظر ، تنظر الراكب من مسير ثلاثة أيام ، كما ينظر الإنسان من بين يديه ، وإذا أراد أحد من أعدائها الخروج إلى بلدها ، تخبر قومها وتقول : احذروا فقد جاءتكم الأعداء . وما هو كذا وكذا ، فيحذرون الأمر كما أمرت فيجدون قولها كما وصفت .

قال الراوى : ولقد بلغنى أن أهل اليمامة قد قتلوا قتيلا من بنى غسان ، وكان قد قتل منهم رجل قبل ذلك فبلغ خبره إلى قومه ، فاجتمعوا بأن يكبسوا قومها فى أربعة آلاف مدرع ، وقال سيدهم من بنى غسان : يا ويلكم تطمعون فى الدخول إلى اليمامة وفيها الزرقاء ؟ أما تعلمون أنها تنظر الوافدين وتعلم الواردين على البعد البعيد ؟ وكيف إذا رأتكم وقد أقبلت مواكبكم وأشرفت فتخبر قومها بكم ويأخذون حذرهم منكم ، وأنشأ يقول :

إنى أخاف عليكم من الزرقاء   إذا رأت جمعكم يسير إلى البلد
ترميكم بأسود الأقوام فكم   رمت بشرها لاتبقى على أحد
كم من جموع أتوها قاصدين لها   فراح جمعهم بالخوف فى نكد

قال الراوى : فقال له أصحابه : ما الذى تشير به علينا من الأمر والرأى ؟ قال : رأيت رأيا أرجو أن أصيب به الظفر إن ساعدنا القدر ، قالوا له : ماذا ؟ قال : إنى أشير عليكم أنكم تنزلون عن خيولكم ، ثم تعمدون إلى الشجر فيقطع كل واحد منكم ما يستره من الأشجار وتحملونه بأيديكم ، ثم تقودون خيولكم فى ظلها وتسيرون ، فعسى أن يتغير نظرها بذلك ، فقالوا له : نعم الرأى ونعم الشور الذى أشرت به . قال : فنزلوا عن خيولهم وفعلوا ما أمرهم به وجدوا فى المسير ليلهم ونهارهم . فلما صار بينهم وبين اليمامة ثلاثة أيام جعلوا أمامهم رجلا معه كتف بعير يلوح به ، ونعل يخصف به لينكر عليها ذلك الحال والنظر ، فنظرت الزرقاء إليها وكانت فى صومعتها فصاحت : يا أهل اليمامة أقبلوا من كل جانب ومكان من قبل أن تحل بكم الندامة ، قال : فأقبلوا إليها يهرعون من كل جانب ومكان وقالوا لها : ما وراءك وما الذى دهاك ؟ قالت : إنى أرى عجبا عجيبا وأظن أنه فرسان ملبسة تسير إلينا



فى ظل الأشجار ، وهم جمع كثير يقدمهم رجل فى يده كتف بعير ومعه نعل يخصف به ، وتارة يلوّح بكتف البعير . قال : فلما سمع كلامها قومها أعرضوا عنها ، وقالوا لبعضهم بعضا : إن الزرقاء قد تغير نظرها ، فهل رأيتم أيها القوم الشجر يسير فى البرية ورجل يلوّح بكتف بعير ويخصف النعل ؟ إن هذا جنون أو وسواس قد عارضها . قال : فلما سمعت الزرقاء كلامهم أغلقت صومعتها على نفسها وكان لايقدر أحد أن يفتحها ؛ قال : فلم يلبثوا إلا قليلا إلا وأقبلت عليهم الفرسان فى ظل الشجر وكبسوا اليمامة وهدموا بناءها وسلبوا نساءها وقتلوا رجالها ونهبوا أموالها ، ثم ولَّوْا راجعين . قال : فوقع فى قومها الندامة وأعقبتهم الملامة حيث إنهم خالفوا كلامها ولم يسمعوا قولها وتحذيرها كما قال الشاعر :

مثل الفتاة التى قد غاب واحـــدها ... أهدت له من بعيد نظرا له جزعا
ولما رأت ذات أشجار تطير بها ... لما أتى الجمع وأبطال لهم جمعا
قالت أرى رجلا فى كفه كتفا ... ويخصف النعل طورا قلبـــه هلعا
وقد رأت شجرا فى ظلها أنفس ... تسير إليكم سراعا ســـيوفهم شرعا
فأخرجوا القوم كرها من مساكنهم ... وهدموا عالى البنيان والصنعا
فلو أطاعوا رأيها يا صاح ما ندموا ... ولكن أضاعوا فضاع الحىّ وانقطعا

قال الراوى : يرجع بنا الحديث إلى سطيح ، فإنه كتب إلى الزرقاء كتابه ، فيه : باسمك اللهم ، من سطيح صاحب القول الفصيح والكلام الصحيح ، إلى العارفة الزرقاء ملكة اليمامة المنعوتة بالشّهامة ، من سطيح الفانى الذى ليس له فى عصره مناظر ولا ثانى .

أما بعد : فانى قد كتبت إليك ودموع عينى قد جرت وأنا فى هموم وغموم متواترات ، وسكرات مترادفات ، وخطرات متواليات ، وقد تعلمين ما الذى يحل بنا من القتل والهلاك والتدمير . وسبب ذلك من خروج النبى التهامى الأبطحى المكى المدنى العربى السماك الهتاك الذى تقاتل معه الأملاك ، وقد رأيت بروقا قد لمعت ، وكواكب كثيرة قد سقطت ، وأظن أن ذلك علامات ظهوره ، وما كتبت إليك إلا ومرادى أرى ما عندك من التحصيل ، ولما أعلم أن ليس فى عصرك من مثيل ، فاذا ورد رسولى إليك وقدم كتابى

عليك ، ردى علىّ الجواب بما يكون عندك من الخطاب وما ترينه من الصواب فانى لايقر لى قرار ، ولا يأخذنى اصطبار لافى ليل ولا فى نهار حتى أقف على هذه الدلائل والآثار والسلام . ثم إنه دعا من وقته وساعته بغلام اسمه صبيح وقال له : سر بهذا الكتاب إلى اليمامة ووصله إلى الزرقاء وائتنى منها بردّ الجواب . قال : فأخذ صبيح الكتاب ومضى يجدّ السير حتى كان بينه وبين قصر الزرقاء ثلاثة أيام ، فرمقت بعينها ورأته والكتاب مشدود فى طى عمامته . قال : فصاحت فى قومها وقالت : جاءكم يا أهل اليمامة رجل راكب قاصدا إلى بلادكم قد أرسل زمام ناقته ، والكتاب يلوح فى طى عمامته ، فما كان بعد ثلاثة أيام إلا وصبيح قد وصل ، فاستدلّ على قصر الزرقاء ، فأرشدوه إليها ؛ فلما رأته قريبا منها انحدرت إليه وفتحت الباب ، فدفع صبيح إليها الكتاب ، فقطعته وقرأته ، ثم قالت : خبر صحيح وكلامه غير قبيح ، أتى به صبيح من كاهن اليمن سطيح ، يسألنى عن نور ساطع وضياء لامع ، هو وحق الكعبة من دلائل ظهور مخرّب الأطلال وميتم الأطفال ، السفّاك الهتّاك ، قال صبيح : فتعجب من كلامها وطلب منها رد الجواب ، فكتبت إلى سطيح تقول : باسم الله إله الزرقاء الذى عليه ليس شىء يخفى ، إلى سيد بنى غسان وأفضل الأحبار والرهبان وأعلم الكهان المعروف سطيح ، صاحب القول الفصيح والكلام المليح .

أما بعد : فانه قد ورد علىّ كتابك وقدم إلىّ رسولك ، تذكر فيه أمرا مهولا عظيما هجس بقلبك ، وخطبا جسيما خطر ببالك . أما نزول الكواكب وتلامع الأنوار ، فانها آيات ظهور الهاشمى ، فاذا قرأت كتابى هذا فأيقظ نفسك واحذر من الغفلة والتقصير ، وبادر للرحيل والمسير فلعلنا نلتقى بمكة ، فانى راحلة إليها لأعرف هذا الأمر على حقيقته . ولعلنا أن نتساعد على هذا المولود ونظفر بهلاكه ونخمد نوره قبل إشراقه . قال : ثم إن الزرقاء دفعت الكتاب إلى صبيح رسول سطيح ، فأخذه وسار حتى قدم على سطيح ، فلما قرأه وعرف معناه بكى وانتحب وحزن وأنشأ يقول :

لاصبر أضحى بعد منزلة ... تغد البلاد كالمستضعف الوهن
إن كان حقا خروج الهاشمى لنا ... فارحل بنفسك لاتبكى على اليمن



ثم اجعل قفر الأوطان تقسيم بها   وارحل عن الدار والأهل والوطن
فالعيش فى نكد من غير ما نكد   أهنأ العيش فى ذل من الوطن

قال : ثم إنه قام فى أهبة السفر والخروج من وقته وساعته وسار إلى مكة شرّفها الله تعالى ، وقال لقومه : إنى سائر إلى نار ساعرة ، فان أدركت وأخمدتها رجعت إليكم ، وإن كانت الأخرى فالسلام عليكم ، وإنى لاحق بالشام أقيم بها حتى أموت . قال : ثم إن غلامه وطأ له على راحلة وسار حتى وصل مكة ، فتسامعت به قريش وأقبلوا إليه من كل جهة ومكان ، وفيهم أبو جهل بن هشام وأخوه أبوالبحترى وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة الحمد بن ربيعة والعاص بن وائل ، فقالوا له يا سطيح : ما أقبلك إلى بلادنا إلا أمر عظيم وخطب جسيم ، فان تكن لك حاجة فسنقضيها لك ، فقال لهم سطيح : بارك الله فيكم مالى إليكم حاجة ، فقالوا تمضى الآن معنا إلى منازلنا ، فقال : أكرمكم الله تعالى ، بل إنى أنزل لمن إليهم قصدت وإلى نحوهم أردت وبفنائهم أنخت ، وقد علمتم فضلى ، وإنى جئت إليكم لأخبركم بما كان وبما يكون إلهاما ألهمنى الله بالصواب ، وأنطق لسانى بالجواب ، فأين المتقدمون فى العهد ومن لهم سابقة فى الحمد ، وإنى أريد من قريش بنى عبد المطلب ، فانى لهم مبشر بالقمر المنير الزّاهر ، وقد قرب ما ذكرته وحان ظهور ما وصفته ، فأين عبد المطلب وسلالته الأشبال ؟

قال الراوى : فلما سمع أبوجهل ذلك عظم عليه واشتدّ غضبه وطغيانه ، وتفرّقوا عن سطيح هو ومن كان معه . قال : فوصل الخبر إلى عبد المطلب فجمع إخوته وأولاده وقال لهم : اعلموا أن هذا القادم عليكم هو كاهن اليمن وسيّدهم سطيح ، وقد كان قديما قد ورد على أبيكم وأخبره بمولود مبارك يظهر من صلبه ، يملك الأقطار ويدعو إلى عبادة الملك الجبّار ، وأراه الآن قد قدم إلينا ، هلمّ ننطلق إليه لنأخذ الأمر منه على حقيقته ، فان يك صادقا فقد استوجب الإحسان ، وإن يكن كاذبا رميناه بالذلة والهوان ، ولكن نكروا نساءكم وأحسابكم ، قال : ثم إن أبا طالب سار فى إخوته وبنى عمه ، فلما انتهى إليه وكان جالسا فى ظل الكعبة شرّفها الله تعالى والناس



من حوله صفوفا ، فلما نظر إليهم سطيح فرح بهم فرحا شديدا ؛ ثم إن أبا طالب دفع سيفه ورمحه إلى غلام سطيح وقال : هذه هبة منى إلى سطيح ، وتقدّم إليه قبل أن يخبره غلامه بالهدية ، فلما وصل إليه أبو طالب قال له يا سطيح حييت بالكرامة والسلامة ، فانا قد أتيناك زائرين ، ولواجب حقّك غير منكرين . فقال لهم سطيح : حييتم بالتحية والإكرام والسلام ، وأتحفتم بالإجلال والإكرام ، فمن أى العرب أنتم ؟ فأراد أبو طالب أن يعلم مقدار علمه ، فقال : نحن من بنى جمح الكرام ، أهل المآثر العظام ، فقال سطيح : ادن منى أيها الرجل وضع يدك على فمى فانّ لى فيك حاجة . قال : فدنا أبو طالب منه ووضع يده على فم سطيح ، فعند ذلك نادى سطيح وقال : أما وحق عالم الأسرار المحتجب عن الأبصار ، غافر الخطايا وكاشف البليات إنك صاحب الذمم الرفيعة ، والأخلاق الزاكية المنيعة ؛ ذو الشيم المحمودة المرضية ، والمسلِّم لغلامى الهدية قناة خطية وصفيحة هندية ، وإنك لأشرف البرية ، وإن لك ولأخيك أشرف الذرية ، وإنك ومن أتى معك من سلالة الأخيار ، فلا تكتم علىّ وأنت لا شكّ عم النبى المختار ، والمنعوت فى سائر الكتب والأخبار ، فلا تكتم نسبكم فانى عارف بكم . قال : فتعجبوا من كلامه وقالوا له : يا شيخ قد صدقت فى المقال وأحسنت فى الخصال ، فنريد أن تخبرنا بما يكون . قال سطيح : وحق الدائم الأبد ، ورافع السموات بغير عمد ، ليبعثنّ الله من هذا ـ وأشار بيده إلى عبد الله ـ نبيا يهدى إلى الرُّشد يدمّر كل صنم وجد ، ويهلك من لها عبد ، ويدعو إلى عبادة الواحد الأحد ، ويعينه على ذلك معين ، هو ابن عمه صاحب الصَّولات العظام والضربات بالحسام ، أبوه لاشك هذا ـ وأشار إلى أبى طالب ـ ؛ فقالوا له : يا شيخ إنا نريد أن تصف لنا هذا النبي وتبين لنا نعته ، فقال سطيح : اسمعوا منى أيها الكرام ، ويا بنى هاشم العظام كلاما صحيحا ، إنه سيظهر فيكم شخص يكون له وجه جميل ، وهو رسول الملك الجليل ، وهو رجل لابالقصير ولا بالطويل ، حسن القامة ، مدوّر الهامة ، بين كتفيه علامة ، على رأسه تظلل غمامة تقوم له الدمامة إلى يوم القيامة ، ذلك والله سيد تهامة ، يزهو وجهه فى الدجى ، وإذا تبسّم أشرقت منه الأرض بالضيا ، وهو أحسن من نشا ، وأكرم من مشى ،



حلو الكلام ، طلق اللسان ، تقيّ زاهد ، خاشع عابد ، لامتجبر ولا متكبر ، إن نطق أصاب ، وإن سئل أجاب ، طاهر الميلاد ، نقي من الفساد رحمة على العباد ؛ بالنور محفوف ، وبالمؤمنين رحيم رءوف ، وعلى أصحابه شفيق عطوف ؛ اسمه مكتوب فى التوراة والإنجيل معروف ، جابر الملهوف ، وهو بالكرم موصوف ؛ اسمه فى السماء أحمد وفى الأرض محمد ، وفى الجنة أبو القاسم .
فقالوا له : ومن هذا الشخص الذى يعينه ويقاربه فى حسبه ونسبه ؟ فقال سطيح : إنه بطل همام ، وليث ضرغام ، وأسد قمقام ، كثير البركات والإنعام ، يسقى الأعداء والأخصام كوثر الحمام ، إذا هاج وصال نكّس رؤوس الأبطال كثير الذكر فى الملاحم ، يكون فى ازدحام الحرب كالأسد المزاحم ، يكون لمحمد وزيرا وأخا ووصيا ؛ يدعى عند الناس أميرا ، وفى التوراة برا ، وفى الإنجيل إليا ، وعند قومه عليا . ثم إن سطيحا أمسك عن الكلام ساعة ، ثم قال لأبى طالب : خذ بيد أخيك هذا ـ وأشار إلى عبد الله ـ فقد ظهر سعد كما ولاح نوركما ، وعلا فى الخافقين اسمكما ، فمحمد لأخيك وعليّ لك . قال : فلما سمع الناس كلامه بهتوا وبقوا متحيّرين ، وامتلأت مكة شرّفها الله تعالى من الرجال والنساء متعجبين من كلام سطيح ومتفكرين فى أمره ؛ فقام أبو جهل بن هشام وقال : ليس الصبر من شيمتنا ، ولا الإمهال من عادتنا ، وقد سمعتم ما ظهر لكم من مقال سطيح ، رجل غير رجيح بكلام قبيح ، يعد بوعد فسيح من قتل أبطالنا ونهب أموالنا من ولدين عظيمين يظهران من صلب أبى طالب وأخيه عبد الله أولاد عبد المطلب ، وذلك نار تحرق ، وصاعقة تطرق ، ثم قهقه وضحك ؛ قال : فبينما هو كذلك إذ أقبل إليه أبو طالب وناداه بأعلى صوته وقال : يا معشر قريش ، اصرفوا عن قلوبكم الطيش ، ولا تنكروا ما خرجتم إليه وسمعتم ، فنحن أولى بالتقدمة منكم بكعبة الله شرّفها الله تعالى ، ورفع الأذى عن الحرم ، وعلى أيدينا نبع ماء زمزم ، فوالله ما سطيح فى قوله بكاذب ، وإنه فى كلامه صائب ، وما نطق بكلام إلا وظهر برهانه ، أليس هو القائل لكم : مقبلة إليكم رايات الحبش ، فما مضت إلا أيام قلائل حتى نزلت بنا جيوش أبرهة وعساكر أصحابه وأصحاب الفيل ؟ فقالوا له : صدقت ؛ فقال أبو طالب : عن قريب سيظهر هذا الذى

ذكره سطيح على رغم الحاسدين والمعاندين . ثم إن أبا طالب أمر أن يرفع سطيح إلى منزله ، وأكرمه وحيَّاه وقرَّبه وأدناه ، وقد كساه الثياب الحسنة . قال : وباتت مكة شرَّفها الله تعالى تلك الليلة ترتجّ بأهلها . فلما برق الصباح أول من طرق الأبطح أبو جهل ، وبعث عبيده إلى قريش ، وقام أبو جهل قائما على قدميه ونادى : يا آل غالب يا آل غالب ، يا ذوى العلى والمراتب ، أترضون لأنفسكم أن ترموا بالمناكب كما ذكره أبو طالب ؟ إن هذا والله من أعجب العجائب وأعظم الأمور والمصائب ، ونقل الصفا إلى البحر الأقصى أهون علينا من قول سطيح : إنه يظهر فى بنى عبد المطلب نبى عن قريب يرمينا بالبوار والتنكيل ، ويوعدنا منه بالذل الشامل الطويل ، فان كانت أنفسكم بما ذكره راضية ، فويل لكم إن رضيتم بهذه المصيبة الداهية ، فمن الآن عليكم منى السلام ما بدت الأيام والأزمان ، وأنا خارج من أرضكم إلى مجاورة الشرك أحب إلىَّ من المُقام فى هذه الدار التى يحلّ بها البوار والمذلَّة والصَّغار . ثم إنه تركهم ومضى إلى منزله ، وعزم على الرحيل ، ونوى النقلة والتَّحويل من مكة . قال : فضجَّت المحافل ، وصعب ذلك على القبائل ، وبقى الأبطح يموج بأهله . قال : فأقبل أهله وعشيرته فقالوا : ما هذا الأمر الذى عزمت عليه يا أبا الحكم ، وما نزل بك يا سيدنا والمقدم علينا ؟ فأمرنا بأمرك فنحن لك طائعون ودلنا على أصعب الأمور نرقاها لأجلك ، فقال أبو جهل : يا قوم إنى أرى من الرأى أن تخاطبوا بنى هاشم فى أمر هذا الكاهن لأنه كان سبب العداوة بيننا وبينهم ؛ فإما أن يسلموا إلينا سطيحا نفعل به ما نريد ، وإما أن يجلوه عن بلادنا ، وإن لم يفعلوا ذلك ليكونن السيف أقصى والموت أمضى ؛ ثم إن أبا جهل أنشأ يقول :

لقطع عنقى بسيفى يا قوم عمدا بكفى
وقطع بحار عظام إلى قرار بعسفى
أحلى وأعذب عندى من ذلَّة بعد كشفى
يا آل غالب لا تنكروا وصونوا عرضى وعرفى
قد صحَّ قولى بنصح فلا رضيتم بحتفى

قال الراوى : فبلغ هذا المقال إلى بنى هاشم ، فقاموا وتجلَّلوا بالسلاح



واستعدوا للكفاح ، وساروا حتى قدموا الأبطح ، فشخصت نحوهم الناس بالأحداق وتطاولت بالأعناق ، وخرس عنهم كل لسان فصيح ، وخف عنهم كل وزن رجيح ، وجلس كل قائم ، واستيقظ كل نائم هيبة وشرفا وإجلالا لبنى هاشم ؛ ثم تقدم أبو طالب وتخطى القبائل ، وجاوز المحافل ، وتوسط بين الناس ورفع صوته وقال : يا سكان زمزم والصفا وأبى قبيس ، من الثالب لبنى عبد المطلب أهل المكرمات التى لا يناطا أحد ولا يبلغها مدد ، وإنى قائل : وحق الإله البارئ النسم ، ومنشئ الأمم ومحيى الرمم ، إنى لأعلم بالذى يظهر ، المنعوت فى التوراة والإنجيل ، الموصوف بالكرم والتفضيل ، الذى ليس فى عصرنا له مثيل ، قد تواترت الأخبار أنه ليبعثن فى هذا العصر رسول الملك الجبار المتوج بالفخار ، المرسل بالسكينة والوقار ، فتركهم كأنهم خمود ، ومن أمس رقود ، ولم يجسر منهم أحد أن يرد جوابا ولا يقول فى وجهه خطابا ؛ ثم إن بنى هاشم قصدوا إلى الكعبة شرفها الله والناس من ورائهم صفوف وحولهم عكوف ، وبقى أبو جهل وحده فى الأبطح وليس معه أحد سوى غلمانه وعبيده ، وقد حل بهم العار والمذلة والصغار والقلة والاحتقار مما تكلم به أبو طالب .

قال الراوى : ثم إن أبا طالب دنا من الكعبة وقال : اللهم رب الكعبة الحرام اليمانية والأرض المدحية والجبال المرسية ، إن كان قد سبق فى علمك أن تزيدنا شرفا وعزا مضاعفا بالنبى الشفيع الذى بشر به سطيح ، اللهم أظهر بيانه وعجل برهانه واصرف عنا به بغى الحاسدين يا أرحم الراحمين . قال : ثم إن أبا طالب جلس والناس حوله ، فوثب إليه رجل يقال له منبه بن الحجاج ، وكان جسورا بالكلام عظيم المرام ونادى برفيع صوته : يا أبا طالب قد ظهر عزكم وأضاءت طاعتكم ، وقد علم رؤوس القبائل وفرسان الجحافل وأهل النهى والمناضل أنكم أهل الشرف والعلا ، وأنت سيد مطاع لا ينبغى لمثلك أن تسمع من الكاهن ، وأنت تعلم أنه داعية الشيطان ، يأتى بالكذب والزور والبهتان ، فلعلك أن تحضره عندنا ، لعل أن يظهر لنا شىء يدل على صحة ما يقول ، فان النبوة لها دلائل وعلامات لا تخفى على العاقل . قال : فأمر أبو طالب أن يحضروا سطيحا ليزيد الحاضرين خبرا صحيحا ، فأحضروه بفناء

الكعبة شرفها الله تعالى ووضعوه على الأرض ، فنادى بأعلى صوته : يا معاشر قريش ، لقد أكثرتم الاختلاف ، ورأيت فى قلوبكم العداوة والبغضاء والارتجاف بذميم ألسنتكم ؛ وإن عبد مناف صادق فيما نطق ، وقد أرسلتم إلىّ لتسألونى عن الحال الظاهر فى أمر النبى الطاهر ، صاحب النور والبرهان ، وقاصم أهل الشرك وعبدة الأوثان ، ومذلل اليهود والكهّان ؛ فوحق الله رب الإنس والجانّ ، ما تفرح الكهان بظهور سيد بنى عدنان ، حيث إنه مبطل منهم علم الكهانة ، وبقرب ولادته تزول جميع الأسحار من القلوب ، وإذا كان ذلك فلا خير لسطيح فى الحياة وعندها يتمنى الوفاة ، فان المولود الطاهر والنور الزاهر ، صاحب المفاخر زاكى الأصل والعناصر عن قريب يكون ، وقد حملت به أمه ، فأتونى الآن بنسائكم وبناتكم لتروا منى العجب العجيب ، والظاهر الذى ليس فيه شك ولا تكذيب ، حتى أوقفكم فى ساعتى هذه ، وأعرفكم أيهن الحوامل من طواهر نسائكم بهذا النبى الفاخر والمولود المسعود ، الداعى إلى عبادة خير معبود ، فقالوا له : أنت تعلم الغيب؟ قال : لا ، ولكن صاحبى من الجن يأتينى كل ساعة وكل حين وكل طرفة عين ، يأتينى بالأخبار ويسترق السمع من ملائكة العلىّ الجبّار . قال : ثم إن القوم لما سمعوا هذا الكلام من سطيح افترقوا إلى منازلهم وأتوا بنسائهم وبناتهم ، ولم يبق أحد من النساء إلا وأحضروها عند الكاهن سطيح . وأقبل أبو طالب إلى عبد الله وقال له : أمسك زوجتك عن الخروج مع هؤلاء ، وأمسك أبو طالب أيضا زوجته عن الخروج . قال : فلما أقبلت النساء عليه من كل جانب ومكان ، نظر إليهن سطيح ، ودارت فيهم عيناه يمينا وشمالا وعرضا وقد أمّ عليه النساء واحدة بعد واحدة ، حتى عرضوا عليه ثلثمائة جارية حوامل وهو ينظر إليهن ويعرض بوجهه عنهن ، وهو كأنه لايقدر أن يتكلم ؛ فقالوا له : مالك يا كاهن الأمصار لجمت عن الأخبار ولا تنطق بالبيان ، وتعلمنا من أى الحوامل يظهر مبطل الأديان ومنكس الصلبان وقاتل الكهان . قال : فلما سمع سطيح كلام قريش والسادات رمق بطرفه إلى السماء ساعة طويلة ينظر فى الفلك ، ثم قال : يا معشر قريش والسادات ما خاب ظنى ولا طاش سهمى ولا أخرس لسانى ولا رعب جنانى ، وحق رب المشرقين والكعبة والصفا والمروتين ، لقد تركتم



من أشرف نسائكم اثنتين ، إحداهن الحاملة بالمولود الهادى ، والثانية تحمل بعد حين وتلد الغلام الأمين والقوى المكين ، يدعى بأمير المؤمنين .

قال : فلما سمعت قريش كلام سطيح دهشوا وحار فكرهم وذهلت عقولهم ، وانطلق أبو طالب إلى منزله وأتى بزوجته وزوجة أخيه ؛ فلما وصلتا مجمع النساء صاح سطيح بأعلى صوته ونادى وجعل يبكى ويقول : يا ذوى المجد والشرف والفخار ، هذه والله الحاملة بالنور الزاهر والنبي الطاهر ؛ ثم قال : مرحبا مرحبا بك يا آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فقالت له آمنة : قد صدق قولك يا سطيح ، يا صاحب القول الصحيح ، والكلام الفصيح ، فلما سمع كلام آمنة قال : إن شهد قلبي وثبت فى لبي ، وأصدقنى صاحبي ، فهذه المرأة السيدة أم النبي سيد العرب والعجم ، وهى الحامل بأفضل الأمم ، سيد قريش وقاتل كل عابد صنم ، وسطل كهانة من كهن ، فياويل الكفر من الشر ، فقد دنا ظهور محمد الأمين يدعو إلى دين رب العالمين ، وكأنى أرى كل من خالفه قتيلا وفى التراب جديلا ، فطوبى لمن صدّق بنبوته وآمن برسالته .

ثم إن سطيحا التفت إلى فاطمة بنت أسد وصاح صيحة عظيمة منكرة ، وقد انتحب وبكى ونادى بأعلى صوته : هذه والله فاطمة بنت أسد الذى يظهر منها الولد الهمام ، مكسِّر الأصنام وقاتل الأقران ، ومدمِّر الكفرة والصلبان ، الذى يخرّب الأطلال ، وييتم الأطفال ، الفارس الكمىّ ، والضيّغم القوى ، المسمى بعلى ابن عم النبي . ثم إن سطيحا بكى وقال : آه ثم آه كم ترى عينى من واحد مكبوب ، ومن فارس منهوب ، قد تركه صريعا . قال : فلما سمع ذلك من سطيح أكابر قريش وساداتها صاحوا ووثبوا بأجمعهم على سطيح بالسيوف والرماح ليقتلوه ، فمنعهم بنو هاشم عن قتله . قال : فنادى أبو جهل بأعلى صوته وقال : أيها الناس افسحوا لنا عن هذا الكاهن فلا بد لنا من قتله حتى نسقى سيوفنا من دمه ونشفى منه غيظ قلوبنا ، وإن حال أحد دونه لأحلنّ به الدمار ، ولنوردنهم دار البوار ، ويحل بهم النار . قال : فلما سمع أبو طالب مقالة أبى جهل لعنه الله تعالى قال : يا ويلكم يا أخس العرب وأذلها ، إنى أراك يا أبا جهل تحب فراق القبائل والعشائر ، مثلك من يتكلم

بهذا الكلام وأنت أخس الأنام . ثم إن أبا طالب عاجله بالسيف فحالوا بينه وبينه ، فلحقه بعض طرف السيف وشجّ رأسه وسال الدم من أعلى رأسه إلى وجهه ، فنادى أبوجهل فى عشيرته : يا آل المحافل ويارؤساء القبائل، أترضون بهذا العار ؟ إن أردتم جبر خاطرى اقتلوا سطيحا وآمنة وفاطمة ، وكل من عارضكم من بنى هاشم ويأخذوا ثأرهم . قال : فحملت قريش بأجمعهم على سطيح وعلى النساء فالتجئوا إلى الكعبة وثار بينهم الغبار .

قالت آمنة : لما دارت من حولى قريش بالسيوف بقيت متحيرة فى أمرى ضائقا صدرى ، وقد طاش عقلى ولبى مما رأيت من البلاء والقوم يريدون قتلى ، فبينما أنا كذلك إذ اضطرب الجنين بين أحشائى ، فسمعت شيئا مثل الأنين ، وإذا بالقوم قد صاح عليهم صائح من السماء ، فصرخ بهم صارخ من الهواء ، فذهلت منهم العقول وسقطوا على وجوههم فى الأرض كأنهم موتى . قالت آمنة : فرفعت بصرى وإذا بفارس بالهواء يركض ، وفى يده حربة من نار وهو ينادى : لاسبيل لكم ولا سلطان إلى رسول الملك الديّان ، أنا جبريل آخذكم أجمعين ، كفّوا أيديكم عن أم خاتم النبيّين . قالت آمنة : فلما رأيت ذلك أمن خوفى وسكن روعى ورجع لى عقلى ولبى وتحققت دلائل النبوّة . ثم انصرف بنوهاشم إلى منازلهم رجالهم ونساؤهم ، وأقبل أبو طالب ويده بيد أخيه عبد الله وجلسوا بفناء الكعبة شرّفها الله تعالى يحمدون الله تعالى على ما أعطاهم من النصر والظفر والفضل والكرم ، بجاه سيد العرب والعجم ، صلى الله عليه وسلم . قال المؤلف :

صلّوا على خير العباد المصطفى كنز الرّشاد
شفيعنا يوم التناد تبلغوا نيل المراد
من نال فى الدنيا الوداد وقد رقى السّبع الشّداد
يا إخوة صلّوا هنا صلّوا على عالى السياد
محمد كلّ المنى ومن سكن وسط الفؤاد

قال البكرى : ثم إن أبا طالب وأخاه عبد الله تهنّوا وتباشروا بما قد أعطاهم الله تعالى من الفضل والإحسان . هذا والقوم صرعى لايعلمون ، ولبثوا ثلاث ساعات من النهار ، ثم انتبهوا بعد ذلك كأنهم سكارى ، فعند ذلك تقدم منبه

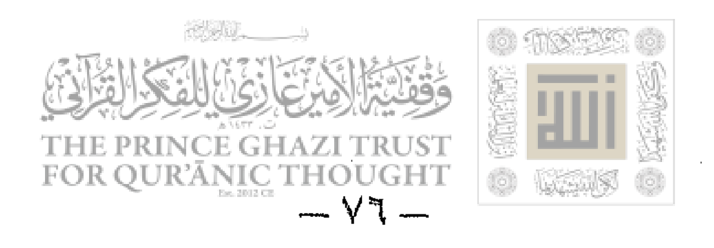
ابن الحجاج ووقف بجانب أبي طالب وقال : إنك لم تزل على المراتب ولمن عاداك غالب ، نريد من كرمك وإحسانك أن تصرف عنا سطيحا إلى بلده ، فما نزل بنا وما وقع فينا إلا من كهانته وسحره ، فان كان ما تكلم به صحيحا فنحن أولى أن نعاضده ونكون له أعوانا على من يعانده ، وأنشأ :

أبا طالب أتى إليك عصابة ترجوك فاقبل من أتاك راجيا
فنحن جيران لكم معاضدين على كل من أضحى وأمسى معاديا
أبا طالب جُلِّلْتَ بالرَّشاد والحيا ووُقيت صرف الدهر ما دمت باقيا
فان كان رب العرش يرسل منكم إلينا رسولا فهو للحق داعيا
وإنا لنرجو أحمدا فى زماننا نجاهد معه بالسيوف الأعاديا
أبا طالب فاصرف سطيحا فانه أتى منه آت بالأذى والدواهيا
ودع عنك حرب الأهل والطف تكرما ولا تترك الدم فى الأرض جاريا

قال الراوى : فلما سمع أبو طالب كلامه رقّ قلبه لقريش وسكن غضبه وقال له : حبا وكرامة ، سأصرف عنكم ما تكرهون من سطيح ، وستعلمون غدا ما ذكره ويتحقق لكم بيان الخبر وترونه عيانا . ثم إنّ أبا طالب أمر خدامه أن يأتوا بسطيح إليه فأحضروه بين يديه ، فلما حضر قال له أبو طالب : أتدرى يا سطيح فيم أحضرناك ولماذا أردناك ؟ قال : أردتمونى للخروج من بلدكم والرحيل عن وطنكم ، وإنى على ما أردتمونى عازم ، وعلى الرحيل من بلادكم قادم . قال : ثم بكى حتى غشى عليه ، فلما أفاق من غشيته قال : إذا ظهر فيكم البدر الزاهر المنير ، فأقرئوه منى السلام الكثير ، وقولوا له إن سطيحا أخبرنا بخروجك ، وبشرنا بولادتك فكذبناه ، ومن جوارنا طردناه ، وسيأتيكم مبشر به غيرى وعنده من العلم مثل ما عندى ، وأظن أنه قد دخل بلادكم وحلّ بساحتكم ؛ ثم إن سطيحا عزم على الخروج فرفعوه على بعيره . ثم احتوى عليه بنو هاشم يودعونه وخرج من مكة قاصدا الشام والله أعلم .

إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ،
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

قال البكرى : فلما خرج سطيح من مكة أقبلت الرقاء . فبينما هم جلوس



حول الكعبة ، وإذ قد أشرفت راحلة براكبها والغبار يطير من تحت قوائمها ، فتطاولت إليها الأعناق ، وشخصت نحوها الأحداق ، وإذا هى الزرقاء بنت مرحا كاهنة اليمامة ، فما كان إلا قليل حتى صارت بأوسطهم ونادت بأعلى صوتها : يامعشر قريش حييتم بأفضل فخار ، وعمرت بكم الأوطان والديار ، فانى فارقت أهلى وخرجت عن وطنى ، وقصدت إليكم حتى أريكم العجب العجيب ، وأخبركم عن أمور عظيمة قد صدرت ، وأحوال قد حضرت وقد قربت ، وأشياء مهمات قد دنت ، وسترون فى دياركم عن قريب إشارات وعلامات فى بلادكم هذه يحل لكم منها عجب ، فان أمرتمونى بالنزول نزلت وإن أردتم الرحيل عنكم رحلت ؛ ثم إن الزرقاء بكت وأنشأت :

إنى لأعلم ما يأتى من العجب ... بأرضكم هذه يا معشر العرب
لقد دنا وقت مبعوث لأمته ... محمد المصطفى المنعوت فى الكتب
فعن قليل يأتى وقت مبعثه ... يرمى معانده بالذلّ والحرب
يدعو إلى غير دين اللاّت مجتهدا ... ولا يقوم للاصنام ولا النصب
وقد أتيت الآن أخبركم ببينة ... لما رأيت من الأنوار والشُهُب
عمّا قليل ترى النّيران ضارمة ... ببطن مكة ترمى الناس باللهب
فان أردتم أتيتكم وإلا رحت راجعة ... وتندمون إذا جاء بالعطب
وآخر بذباب السيف يعضده ... قرن يدانيه فى الأحساب والنّسب

قال الراوى : فلما سمعت قريش كلام الزرقاء وشعرها أمروها بالتحوّل عندهم ، ليعلموا ما عندها من الأخبار والبيان ، ويتحقّقوا ما عندها من العلم والكهانة ، وهل تنطق بما نطق به سطيح أم لا ؟ فقالوا لها : أيتها الزرقاء انزلى عندنا بالرحب والسعة والإعزاز . قال : فنزلت عن البعير ونصب لها كرسى فجلست عليه وأحاطت بها القبائل من كل مكان وقالوا لها : هل من حاجة فتقضى أو مُلِمّة نتمضى ؟ قالت : يا سادة يا كرام ما أردت بمقالى هذا حاجة ولا عسرا ولا إقلالا ، وليست الزرقاء محتاجة إلى رفد ولا إلى مال ، بل جئتكم ببشارة أبشّركم بها وأحذّركم بها ، وليست البشارة لى ، بل هى علىّ وعليكم وبال ، وفيها سبب هلاكى وهلاككم ، فقال لها عتبة بن ربيعة

وكان من قريش ما هذا الكلام والوعد الذى تؤذنين به نفسك وإيانا بالدمار والبوار ؟ فقالت له : يا أبا الوليد ، وحق ساطح الأرض والبلاد ، ومن هو عالم بالمرصاد ، ليخرجنّ عليكم النبي الطاهر ، والسيف القاطع الباتر ، والبأس الشديد ، يدعو إلى الله وإلى طريق الرشاد ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر والفساد ، ويقتل الأعداء والأضداد ؛ سفاك الدماء ، حبيب رب السماء ، نور خده يتورّد ، وشعاع وجهه يتجدّد ، ونور أعاديه يُطفأ ، فى وجهه السّعد والضّياء يتردّد ، واسمه خير الأسماء محمد ، فكأنى به عن قليل يولد ، ويظهر له العز والتمكين السرمد ، يساعده على ذلك مساعد ، ويقاربه فى حسبه ونسبه ، مبيد الأظعان ، يقتل الشجعان ، ويكسر الصلبان ، واسمه الإمام الهمام الضرغام ، والبطل القمقام ، له ساعد قوى وقلب جرى ، واسمه شائع فى الخافقين أمير المؤمنين على . قال : ثم إن الزرقاء بكت بكاء شديدا وحنّت وأنّت وقالت : آه ثم آه ، ما أعظم حزنى ، وامصيبتاه ، فلو أنى أردت النجاة سارعت إلى إجابته وتركت ما أنا فيه من مكايدته ، ولكنى أرى خوض البحار ونقل الأحجار أهون علىّ من الذّلّ والصّغار . ثم إنها بكت بكاء شديدا وحنّت وأنشأت تقول :

يا ذى القبائل والسادات ويحكم إنى أقول مقالا كالجلاميد
لو كنت من هاشم وعبد مطلب أوعبد شمس ذوى الفخر الصّناديد

قال الراوى : فلما أصبح الصباح أقبلت الزرقاء إلى بنى هاشم وقالت لهم : أنعم الله لكم الصباح ، وأدام لكم السّعد والأفراح ، وأشرقت بكم المحافل والبطاح ، إنه سيزداد شرفكم علاء ، ويعلو فخركم إذا ظهر فيكم هذا النبى الجليل ، المنعوت فى التوراة والإنجيل ، فياويل من عانده ، وطوبى لمن تبعه وعاضده . قال : فلم يبق من بنى هاشم أحد إلا وفرح بما قد قالت الزرقاء ووعدوها خيرا .

قال الراوى : ثم قالت لهم الزرقاء : أيها السادات ما أنا بذات إملاق ولا ذات عسر ، فانما لى أصل أصيل ، وباع طويل ، ومال جزيل ، وما فارقت الأوطان ، وبعدت عن الأهل والإخوان ، إلا أنى أتيت لأبشركم بظهور هذا المولود . فقال لها أبوطالب : أيتها الزرقاء ، إن إكرامك قد وجب علينا ،



وحقك قد تبدى بيننا ، فهل لك من حاجة فتقضى ؟ فقالت الزرقاء : ليس لى من الحاجات المهمة غير النظر إلى فتاتكم الطاهرة المكرّمة آمنة بنت وهب ، أريد أن تجمعوا بينى وبينها لكى تروا منى صدق الأخبار عند ما بشرتكم بظهور صاحب الأنوار ، فقال لها أبو طالب : حبا وكرامة . ثم إنه سار مع الزرقاء إلى منزل آمنة بنت وهب ، وطرق عليها الباب ، فقامت وفتحت الباب ، فسطع من وجهها نور ساطع وضياء لامع ، فلما رأت الزرقاء النور ، تقطّع حشاها كمدا وحسدا ولكن أظهرت تجلّدا ، فلما استقرّ بها الجلوس أتوها بمائدة من الطعام فأبت الأكل وقالت : ما أشتهى شيئا وإننى لست آكل من زادكم ولا أخرج من دياركم حتى أنظر ما يكون من أمر فتاتكم ، وسترون مايكون عند مولده من العجائب من سقوط الأصنام وخمود النيران ، وما ينزل بعباد الأوثان من القتل والدمار ، وما يحل من خراب الديار وكأس المنية والبوار . ثم خرجت الزرقاء من منزل آمنة ، وهى حائرة القلب مدهوشة الفؤاد كئيبة حزينة . قال : فأقامت مدة أيام تصنع الحيلة فى هلاكها فلم تستطع الزرقاء من حيلة ، ثم إنها قامت من وقتها وساعتها ونزلت على امرأة من الخزرج اسمها تكنى ، وهى يومئذ كانت ماشطة لآمنة ولنساء بنى عبد المطلب . فلما كان فى بعض الليالى استيقظت تكنى فرأت عند رأس الزرقاء شخصا يحدثها ويقول لها :

جاءت زرقا كاهنة اليمامه ... جاءت لكم من اليمامه
أزعجها ذو همّة وهامه ... محمد الموصوف بالكرامه
لما رأت نور النبى أمامه ... ذلك لإظهار النبى علامه
ستدرك الزرقاء به ندامه ... إذا أتاها صاحب الغمامه
محمد المبعوث من تهامه ... هيهات يا زرقا ترين السّلامه

قال : فلما سمعت الزرقاء كلام الشخص وثبت إليه قائمة على قدميها ، وقالت له : يا صاحبى أين كنت عنى غائبا ، وقد كنت لى محبا ومشفقا ، فما هذه الغيبة الطويلة التى حبستك عنى ؟ فقال لها : ويلك يا زرقاء لقد نزل بنا أمر عظيم وخطب جسيم ، وإنا كنا نصعد إلى السماء كل ليلة لاستراق السمع فصعدنا كالعادة ، فطردنا عن السموات وسمعنا مناديا ينادى فى السموات :



إن الله عز وجل يريد أن يظهر نور حبيبه ونبيِّه وخيرته من خلقه ، الذى يكسر الأصنام ويظهر عبادة الرحمن ، فامنعوا الشياطين عن السموات ؛ فانقضت عليهم الملائكة بشهب من النيران لوامع ، فصعقنا من السماء مثل جذوع النخل ، وقد جئتك أحذِّرك لتحذرى ، وأزجرك لتنزجرى . فلما سمعت الزرقاء كلامه وزجره قالت له : انصرف عنى فلا بد أن أبذل مجهودى حتى أنال مقصودى فى هذا المولود ، فولى صاحبها من الجن عنها وهو يقول :

إنى نصحتك بالنَّصيحة جاهـدا فحذِّرى نفسك واسمعى من ناصح
لاتطلـبى أمرا عليك وباله فلقد أتيتك باليقـين الواضح
هيهات أن تصـلى إلى ما تطلبى من دون ذلك عظم أمر نازح
فالله يحفظ عبـده ورسـوله من كل ساحرة وخطب جائح
عودى إلى أرض اليمامة واحذرى من شرِّ يوم كروب كادح

قال الراوى : ثم إن الجنى تركها ومضى . هذا ،وتكنى تسمع ما جرى بينهما ، فكأنها لم تسمع ما جرى ، فلما أصبحت جلست عند الزرقاء فقالت لها : مالى أراكى مغمومة كثيرة الهموم والأحزان ، فلا بد لك من خبر قد كتمتيه وعلم قد أخفيتيه ؟ فقالت الزرقاء ؟ يا أختاه ، إن الذى ترين بى كله بخروجى عن الأهل والأوطان وذهابى إلى البلدان ، وتشتتى فى كل مكان ، وتفردى عن الخلان ، فقالت لها تكنى : ولم ذلك ؟ قالت لها : ويحك إنه من حاملة بمولود يدعو إلى أحسن معبود ، يكسر الأصنام ، ويذل رقاب السحرة والكهان ، ويخرب الديار ويمحو الآثار ، ولا يترك أحدا من ذوى الأنصار ، وأنت يا تكنى تعلمين بأن الحرق بالنار أيسر من المذلة والصغار . فلو وجدت من يساعدنى على قتل آمنة لأعطيته المال والغنائم . ثم إن الزرقاء قامت من ساعتها إلى جراب فيه مال من الذهب الأحمر وأخذته وصبته فى حجر تكنى ، فلما رأت المال أخذ الشيطان بهواها ، ولعب فى فؤادها وعقلها ، فقالت : يا زرقاء لقد ذكرت أمرا عظيما ، والوصول إلى ذلك صعب بعيد . وإنى ماشطة جميع نساء بنى عبد المطلب ، ولا يدخل عليهم إلا أنا ، وهذا المال الذى بذلتيه لى فوق المنى ، ولكن أنا متفكرة فى العواقب ، ولا آمن على نفسى من القتل والمصائب ، فكيف أجسر على ما وصفت ، وكيف أصل



إلى ما ذكرت ؟ فقالت لها الزرقاء : إذا دخلت على آمنة فى وقت زينتها وجلست بين يديك ، فاقبضى على ذؤابتها واضربيها بهذا الخنجر فانه مسموم ، فاذا اجتمع السم مع الدم هلكت من وقتها وساعتها ، وإن وقعت عليك أسلم عنك عشر ديات ، فقالت تكنى : قد أجبتك إلى ما سألت وطلبت ، غير أنى أريد منك أن تشغلى بنى هاشم عنى حتى لايقع الصوت علىّ فيكون فيه هلاكى ؛ فقالت الزرقاء : اعلمى يا تكنى إذا كان فى غداة غد أعمل حيلة ومكيدة ، إذا جاء غد ذبحت الذبائح ونحرت النحائر وسكبت الخمور ، فاذا أعددتها أحضرت الناس ليأكلوا الطعام ويشربوا الخمور ، فاذا دارت فى رؤوسهم ظفرت بحاجتك .

قال الراوى : فلما أصبح الصباح صنعت الزرقاء طعاما واتخذت شرابا ، وأمرت عبدها أن ينادى فى شوارع مكة . قال : فاجتمع الناس من كل مكان وأكلوا وشربوا ، فلما خالط الشراب عقولهم أقبلت الزرقاء مسرعة إلى تكنى ، وقالت لها : هذا وقتك ، فعمدت إلى الخنجر وسقته السم وأعطته إياها ، فأخذته تكنى ودخلت على آمنة ، فلما رأتها رحبت بها وقالت لها : ما حبسك عنى حتى أبطأت علىّ كل هذه المدة ؟ فقالت تكنى : قد كنت مشغولة عنك بهمى وغمى وحزنى ، ولولا أياديكم الجميلة الفاضلة ونعمكم الباسطة علىّ لكنت فى أسوإ حال ، وإنى لاأجد ما أتقرّب به إلى بعلك من الأمور الصالحة إلا بتزيينك عنده ، هلمى يا بنيّة حتى أزينك . قال : فأتت إليها آمنة وجلست بين يديها فسرّحت شعرها وزيّنتها ، ثم عمدت إلى ذلك الخنجر وأرادت أن تطعنها به ، فعند ذلك أحسّت تكنى بأن قابضا قبض على يديها ، فسقط الخنجر من يديها إلى الأرض ، فصاحت تكنى واحزناه واخيبتاه ، فالتفتت آمنة ، فرأت الخنجر ملقى على الأرض ، فتبادر النسوان وقالوا لها : ما الذى دهاك يا تكنى ؟ فتلجلج لسانها ولم تقدر أن تتكلم ، فقالت آمنة : أرادت أن تقتلنى بهذا الخنجر وحق رب الكعبة ، والحمد لله الذى صرف عنى كيدها وجعله عليها ؛ فقالت النساء لها : يا تكنى ما حملك على هذا الفعل القبيح والأمر العظيم ووقعت فى هذا الخطر الشديد ؟ فقالت : لاتلومونى فيما حملنى ، فقد حملنى عليه الطمع والغرور وأخبرتهم بالخبر وقالت لهن :



ويلكم اقتلوا الزرقاء قبل أن تحل بكم الندامة ، ثم سقطت تكبى على وجهها ميتة فتصارخت النساء عليها من كل مكان ، فأقبل بنو هاشم بأجمعهم إلى منزل آمنة ، فرأوا تكبى الماشطة ميتة ، ونظروا إلى الخنجر ، فرجع أبو طالب وهو ينادى فى شوارع مكة يقول : يا قوم اقتلوا الزرقاء الملعونة ، فوصل إلى الزرقاء الخبر فتركت أموالها وعبيدها وخرجت منهزمة على وجهها فى البر ، فتبعها الناس فما رأوا لها أثرا ولا وقعوا لها على خبر .

قال الراوى : فوصل الخبر إلى سطيح بما جرى على الزرقاء من فعلها القبيح ، فقال : وحق البيت العتيق والركن الوثيق أهلكت الزرقاء نفسها فى وادى المضيق ولا تهتدى أبدا إلى الطريق . قال : ثم إن سطيحا ركب على ناقته وأمر عبيده أن يحملوه إلى بلاد الشام ولا زال هناك حتى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق وثن ولا صنم إلا وأصبح مكبوبا على وجهه ، ومات سطيح ، وغارت بحيرة ساوة ، وفاض وادى سماوة ، وخمدت نيران فارس ، وانشق إيوان كسرى ، ووقع منه أربع عشرة شرفة . فلما رأى كسرى ذلك فى إيوانه أقلقه ، فدعا بوزرائه وقال لهم : ما هذا الأمر الذى قد حدث فى البلاد فهل أنتم مطلعون ؟ فقام الموبذان وقال : أيها الملك العظيم إنى رأيت إبلا تقود خيلا عرابا قد خاضت الوادى فى البلاد ، وما وقع هذا إلا من أمر عظيم وخطب جسيم ؛ فبينما هم كذلك فى الخطاب إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، فزادهم غما شديدا ، ثم أتاه خبر بحيرة الوادى ، فأقبل على الموبذان وقال : إنا لا نعلم أحدا ههنا من العلماء والكهان حتى نسأله عن هذا الخبر ، فقال : إنا نكتب إلى النعمان بن المنذر لعله يعرف أحدا من العلماء فى بلاده يسأله ويخبرنا . قال : فكتب إلى النعمان كتابا فأرسل له رجلا يقال له عبد المسيح ، وكان ابن أخت سطيح ، فقال له كسرى : هل عندك علم عما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال عبد المسيح : اعلم أيها الملك أن لى خالا اسمه سطيح يسكن فى نواحى الشام يعرف سرك ويعلم كل ما تريد من الأحوال ، فقال له كسرى أنوشروان : اخرج إليه واسأله ، فان أجابك فعد إلى بالجواب وأنا أجزل لك الجائزة الهنية والعطية السنية . قال : فخرج عبد المسيح يطوى الفيافى والقفار إلى أن وصل بلاد الشام فوجد سطيحا وهو يعالج سكرات



الموت فسلم عليه ، فلم يردّ عليه السلام ، فلما كان بعد ساعة فتح عينيه فقال : هذا عبد المسيح أتى على جمل مشيح ، من كسرى يصيح ، بلسان فصيح ، من سيد بني ساسان ، يسأل عن سقوط الإيوان وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى كأنّ إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، وقد قطعت الوادى وانتشرت فى البلاد ، هذه والله علامات ظهور السفاك الفتاك ، الذى تقاتل معه الأملاك ، وحق مالك الأملاك ومدبّر الأفلاك ، إن هذا يا عبد المسيح مقال كله صحيح ، إذا فاض وادي سماوة وغاضت بحيرة ساوة ، فليست الشام لسطيح بشام ولا مقام ، وحينئذ تظهر الدلالات والعلامات ، ويملك منهم ملوك على عدد الشرفات المتساقطات ، وتكون الراحة لسطيح فى الممات . ثم إن سطيحا قال : آه ثم آه ثم آه ، وشهق شهقة فى أثر شهقة وفارقت روحه الدنيا لارحمه الله .

قال الراوى : ثم إن عبد المسيح استوى على كور ناقته ، ورجع من وقته وساعته إلى كسرى ، وأخبره بما قال سطيح ، فأعطاه وأنعم عليه وأخبره بالتمام .

فلما أشرفت آمنة بحملها وتتابعت شهورها وعدتها وكانت آمنة ما يمضى لها شهر من حملها إلا سمعت مناديا ينادى من السماء : مضى لحبيب الله كذا وكذا شهرا ، وكانت تهتف بآمنة الهواتف بالليل ، وتخبر عبد الله بذلك فيقول لها عبد الله : اكتمى أمرك ولا تخبرى أحدا من قومك ، فلما دخلت فى الشهر السابع نادى عبد المطلب ولده عبد الله وقال له : يا ولدى اعلم أن زوجتك قد دنا شهرها ، ولا بد لنا من وليمة يحضرها أهل مكة ، فخذ هذه الدراهم وامض إلى يثرب واشتر بها دقيقا وسمنا وجبنا وأرزا وتمرا .

قال الراوى : فأخذ عبد الله الدراهم من عند أبيه عبد المطلب ، ومضى إلى المدينة ، فلما وصل مدينة يثرب طرقته حوادث الزمان وهجوم الحمام ، فمات رحمه الله تعالى ، فوصل الخبر إلى أبيه عبد المطلب وهو يومئذ بمكة شرّفها الله تعالى ، فوجد عليه وجدا عظيما ، وحزن عليه حزنا شديدا ، وكذلك إخوته وبنو عمه ، وكان أشد حزنا عليه أخوه أبو طالب لأنه شقيقه من أمه وأبيه . قال : فلما دخلت آمنة فى الشهر التاسع وليس يلحقها ألم ولا وجع ، وكانت آمنة بنت وهب وحدها فى بيتها منعزلة عن البيوت مستطرفة ، فبينما هى ذات ليلة من الليالى ساهرة ، إذ دخل عليها طير أبيض ومسح بجناحه على

بطنها فزال عنها كل ما تجد من الألم والخوف ، فبينما هى متفكرة وإذ قد دخل عليها نسوة طوال سود الشعر حمر الخدود ويفوح منهن ريح المسك والعنبر ، وبيدهن أكواب من البلور الأبيض ، وفيه ماء أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك الأذفر ، وقلن لها اشربى من هذا الماء يزل عنك كل ما تجدينه من الألم والأذى والوجع ، فلما شربت منه أضاء وجهها وعلا نور ساطع وضياء لامع ، وجعلت آمنة تقول : من أين علم بى هؤلاء النساء ومن أين دخلن علىّ ، واغوثاه قد كنت أغلق على نفسى الباب ، وجعلت أنظر إليهن وأنا لم أعرف واحدة منهن ، ثم قلن لى : يا آمنة أبشرى بولادة سيد المرسلين وسيد الأولين والآخرين ومصباح الأرضين محمد صلى الله عليه وسلم :

صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيّبون على النبى الناصح
صلى الإله وكل عبد صالح والمؤمنون على السراج الواضح
المصطفى خير الأنام محمد سيد العالمين وذى الضياء اللائح
زين الأنام المجتبى علم الهدى الصادق البر التقى الناصح
صلى عليه الله ما هبّ الصبا وتجاوبت ورق الحمام النائح

قال البكرى : قالت آمنة : فقام عنى تلك النسوة وإذا بثوب من الديباج قد نشر ما بين السماء والأرض ، ورأيت عمودا من نور ، فداخلنى الفزع والرعب ، وإذا بهاتف يهتف ويقول :

أهدى النسيم إلى الوجود عبيرا لما أتانى بالبشير نذيرا
وأتى بمولد أحمد الهادى الذى أهدى إلينا فرحة وسرورا
كم آية قد أظهرت فى حمله لاتخفى وزادت فى الأنام ظهورا
ورأته آمنة يسبح ساجدا عند الولادة للسماء مشيرا
قالت رأيت عجائبا فى وصفه ويضلّ فى هذا الحساب خبيرا
آيات أحمد لاتعدّ لواصف لو أنه أملى وعاش دهورا
صلى عليه الله ربى دائما ما دامت الدنيا ودام سرورا

قال البكرى : قالت آمنة : وسمعت تسبيحا وتحميدا وتهليلا وتكبيرا وطيورا مختلفة الألوان حمر المناقير ، وبينما أنا متعجبة منها ، إذ وضعت النبى محمدا




صلى الله عليه وسلم وسمعته يقول وهو ساجد : سبحان ربي الأعلى وبحمده ، رافعا أصبعه إلى السماء قائلا : سبحان ربي العظيم وبحمده ، ، وسمعت داخل البيت أصواتا عالية وصورا مختلفة ، وإذا بسحابة بيضاء قد نزلت عليّ وأخذته من بين يدى ، وغيّبته عني ولم أره ، ثم سمعت هاتفا يقول : طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم مشارق الأرض ومغاربها وسهلها وجبالها وبرها وبحرها ، واعرضوه على كل روحانيّ من الجنّ حتى يعرفوه باسمه وتعمّهم بركاته ، وأنشأ الهاتف يقول :

صلى الإله على النبي محمد   خير الأنام جاء بالتنزيل
وبفضله نطق الكتاب وبينه   بصفاته في التوراة والإنجيل
أسرى به المولى إلى أفق السما   على البراق مع جبريل

قال الراوي : قالت آمنة : وكان بين غيبته ورجوعه أقل من طرفة عين ، فنظرت إليه ، وإذا هو مدرج في ثوب من الصوف الأبيض ، وهو قابض بيده اليمنى على ثلاثة مفاتيح ، ورأيت رجلا طويلا على رأسه واقفا يقول : قبض محمد صلى الله عليه وسلم على ثلاثة مفاتيح : مفتاح النصر ، ومفتاح النبوّة ، ومفتاح الكعبة شرّفها الله تعالى . قالت آمنة : فلما سمعت ذلك رعب قلبي وبقيت متعجبة ، وإذا أنا بسحابة عظيمة ، فلما قربت مني سمعت فيها صهيلا وصفق أجنحة ، فلم تزل السحابة ترفرف على رأسي ولها دويّ عظيم حتى دخلت على ولدى ، فأخذته وغيّبته عني مثل المرّة الأولى ، وإذا بقائل يقول : طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم مشارق الأرض ومغاربها ، وعلى البحار والأنهار والحيتان والأشجار والإنس والجن والطير والهوامّ والوحوش ، وعلى مواليد الأنبياء والمرسلين ، وأعطوه إرث آدم ورأفة نوح وحلم إبراهيم ولسان إسماعيل وجمال يوسف وصبر أيّوب وصوت داود وزهد عيسى وطهارة يحيى وكرم هارون وشجاعة موسى وأعطوه أخلاق النبيّين ، ثم إن الهاتف أنشأ يقول :

صلّوا على خير الأنام محمد   يا جملة الحضار يا من يسعد
ثم اكثروا التسليم بعد صلاتكم   للسيد المختار ذاك الأمجد
ومن يك ذا بخل يمنع ذكره   فذاك عن الحق المبين مبعد



قال الراوى : قالت آمنة بنت وهب : فلما تجلت عنه السحابة نظرت إليه وإذا به مدرج فى ثوب من الحرير الأخضر ، ورأيت فى يده اليمنى ثوبا من الحرير الأبيض مطويا شديدا ، وسمعت قائلا يقول : قد قبض محمد صلى الله عليه وسلم على مفاتيح الدنيا كلها ، وإذا بالهاتف يقول :

يا راكبا نحو المدينـــة قاصدا   بلّغ صـــلاتى على النبىّ محمد
وقل السلام عليك يا علم الهدى   فهو الدليل إلى الطريق الأجود
إن الذى ورث النبوة والهدى   فهو الدليل لكلّ عبـــد مرشد
صلى عليـــه الله ما هبّ الصّبا   وترنمت ورقا بصوت مغـــرّد

قالت آمنة : فبينا أنا كذلك متفكّرة فى أمرى مما رأيت ، وإذا بثلاثة أنفار قد دخلوا علىّ والنور يظهر من وجوههم ، تكاد أنوارهم تخطف الأبصار وفى أيديهم أباريق من الفضة والذهب . ورأيت فى يد أحدهم طشتا من الزبرجد الأخضر ، فاستقبلوا ولدى وقالوا له : يا حبيب الله ، اقبض من حيث شئت ، فسمعت قائلا يقول : قد قبض محمد صلى الله عليه وسلم على الكعبة ، وإذا بالهاتف يقول :

صلّوا على خـــير الأنام كرامة   وجـــلالة يا معشر الإســـلام
فهو النبى المصطفى علم الهـــدى   وأجلّ من يدعو إلى الإســـلام
نطق الكتاب بفضله وجلاله   وبفضله ننجو من الأســـقام
صلّوا على خـــير البريّة كلما   لاح بدر تحت جنح ظـــلام
وهو الشفيع لمن يدين بدينـــه   ولمن يلوذ بملّة الإســـلام

قالت آمنة : وإذا بخاتم النور يشرق فى يد ذلك الهاتف ، وكان رضوان خازن الجنان ، فأخذ ولدى وضمّه عنى وناول صاحب الطشت ، وصبّ عليه من ذلك الإبريق هكذا سبع مرات ، ثم أخذه وختمه بذلك الخاتم بين كتفيه . ثم لفّه تحت جناحه وغيّبه عنى ساعة طويلة ، ثم أخرجه وتكلم فى أذنه بكلام لا أعرفه ولا سمعت مثله ، ثم قبله وقال : أبشر يا محمد ، أنت سيد الأوّلين والآخرين ، وحبيب رب العالمين ، وشفيع المذنبين . ثم خرجوا وتركوه عندى . قالت آمنة : ورأيت ثلاثة أعلام من السندس الأخضر منصوبات ، علما بالمشرق ، وعلما بالمغرب ، وعلما على الكعبة شرّفها الله

تعالى ، وكُشِف عن بصرى فرأيت الأعلام منشورات وسمعت هاتفا يقول :

صلى عليك الله يا خير الورى ... يا أحمد المنجى لكل عذاب
صلى عليك الله يا سفن النجا ... يا أحمد الدّاعى لكل صواب
ياخير مولود وأكرم مرسل ... أتى بأشرف ملة الأنجاب
صلى عليك الله ما سحت مزنة ... وانهلّ فى الآفاق قطر سحاب

قالت آمنة : فأتيت إليه وأخذته فرأيته مختونا مكحول العينين مدهون الرأس مقطوع السرّة ، وهو مقمط فى قماط يفوح منه رائحة المسك والعنبر ، وسمعت هاتفا يقول :

صلُّوا على هذا النبى الأفصح ... الهاشمىّ اليثربىّ الأبطح
صلُّوا على خير الأنام محمد ... عليه صلُّوا باللسان الأفصح
إنّ الصلاة على النبى محمد ... تلقى الفلاح مع النجاح الأنجح
صلوا عليه وأكثروا من ذكره ... لاتبتغوا بدلا بذكر الأرجح

قال الراوى : قال عبد المطلب : كنت فى تلك الساعة التى ولدت فيها آمنة أطوف بالكعبة شرّفها الله تعالى ، وإذا بالأصنام قد تساقطت ، ورأيتها قد تناثرت ، وإذا بالصنم الأكبر هُبَل منكوس على رأسه ، وسمعت قائلا يقول إن آمنة بنت وهب قد ولدت الرسول المقرّب صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيت ما حلّ بالأصنام ، حار فكرى وطار عقلى وخفق فؤادى ، وصرت لا أقدر على الكلام ولا على رد الجواب ، ثم خرجت أريد باب بنى شيبة وإذا أنا بالصفّا والمروة يلمعان بالنور ، فلم أزل مسرعا إلى حين قربت من منزل آمنة بنت وهب ، وإذا بغمامة بيضاء قد عمت على منزلها ، فقربت من الباب وإذا أنا قد صرت كأنى قطعة مسك من الرائحة الطيبة فدخلت على آمنة وإذا بهاتف داخل البيت يقول :

صلُّوا على خير العبا ... د المصطفى كنز الرشاد
صلُّوا على خير العبا ... د شفيعنا يوم التّناد
صلُّوا على خير العبا ... د تبلغوا نيل المراد
من علا فى السبع الشدا ... د ونال فى الدنيا الوداد
يا إخوة حلوا هنا ... صلوا على عالى السناد



محمد كل المنى ومن سكن وسط الفؤاد

قال عبد المطلب : فدخلت البيت فوجدت آمنة جالسة كأنها لم يكن عليها أثر ولادة ولانفاس ، فقلت لها : أين الذى ولدتيه يا آمنة ؟ فقالت لى : ولم ذلك ؟ قلت : أريد أن أنظر إليه ، فقالت : قد حيل بينى وبينه ، ولقد أتانى هاتف وقال : يا آمنة لاتخافى ولا تحزنى ، إنك لاتقدرين على نظر هذا المولود إلى ثلاثة أيام ، فانه معنا محفوظ . قال عبد المطلب : فلما سمعت كلامها غضبت وسللت سيفى وقلت لها يا آمنة : أخرجى ولدى هذه الساعة وإلا ضربت عنقك ، قالت آمنة : شأنك وولدك هو مطروح فى الدار . قال عبد المطلب : فلما هممت بالدخول إلى الدار ، برز لى شخص عظيم من داخل البيت وشهر سيفه علىّ وقال لى : ارجع مكانك الذى جئت منه ، فلست تقدر على الوصول إليه ولا تنظر إلى محمد صلى الله عليه وسلم حتى تنقضى أوّلا زيارة الملائكة . قال عبد المطلب : فلما سمعت ذلك رجعت خارجا على وجهى ، وقد حار عقلى ولبى مما رأيت من العجائب ، ثم سمعت هاتفا يقول :

نور النبى علا على الأنوار — فهو الدليل لدار ذى القرار
صلُّوا عليه وسلّموا وتكرّموا — بصلاته وسلامه يا معشر الحضار
صلُّوا عليه لعلّكم تنجوا به — من جملة الأهوال والأشرار
صلُّوا عليه لعلّكم تنجوا به — يوم القيامة من عذاب النار
صلُّوا عليه فانه سفن النجا — يوم المعاد وكاشف الأسرار
صلُّوا على القمر المنير إذا بدا — فهو الحبيب لربنا الجبّار

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فى تلك الليلة المباركة الشريفة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تفتّحت أبواب الجنان ، وغلّقت أبواب النيران ، وتزيّنت الحور الحسان ، واضطرب نهر الكوثر ، وفتحت أبواب السموات ، وحفّت الملائكة بمنزل آمنة بنت وهب ، وتكسّرت تلك الليلة الأصنام ، وخمدت النيران ، وأوقد عند الكعبة ألف قنديل من النور ، وضرب بين السّماء والأرض ألف عمود من النور ، وهبط ألف ألف صف من الملائكة بأيديهم حراب من النور ، وطردت الشياطين من مواقفهم فى السموات

وكانوا يسترقون السمع من السماء الرابعة . فلما ولد النبي صلى الله عليه وسلم طردتهم الملائكة بحراب النيران الموقدة عن مواقفهم نفروا هاربين ، وعلى أعقابهم خائبين ؛ ومن الجن من أغمى عليه ، ومنهم من أحرقته النار بالشهب ، ومنهم من مات في وقته وساعته .

وأما ما كان من سطيح ومن شق الكاهنين ، فانهما ماتا في ساعة الولادة . وأما الزرقاء فانها كانت في عرشها وبين خدامها وعبيدها ، وهي تحدث الناس بدلائل ظهور النبي العربي صلى الله عليه وسلم ، وبما يجرى على الكهان عند ولادته . فبينما هي تحدثهم إذ رأت الأنوار ساطعة من قبل مكة ، والنجوم تتساقط ، والملائكة صفوف ينزلون إلى الأرض . فلما نظرت الزرقاء إلى ذلك صرخت صرخة عظيمة وغشى عليها ، فلما أفاقت من غشيتها أنشدت تقول :

أمَّا المحال فقد مضى لسبيله ومضت كهانة معشر الكهَّان
جاء البشـــير فكيف لى بهلاكه هيهات جاء الأمر بالإعـــلان
هذا الذى بولاده قد أطفئت نار الكهان وجملة الأديان
لاشك أن الموت منى قد دنا والحتف عاجلنى بغـــير توانٍ

ثم إن الزرقاء شهقت شهقة عظيمة وماتت ، لا رحمها الله وصيرها إلى النار وبئس القرار .

قال الراوى : فلما مضت ثلاثة أيام بعد ولادة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دخل عليها عبد المطلب فأخذه وقبله وقال : الحمد لله الذى أخرجك في ساعة العسرة ، فأنت كشف همومنا ؛ ثم إنه دفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أمه ، فلما أخذته من جده عبد المطلب وحملته في حضنها جعل يهش ويضحك في وجهها كأنه ابن سنة ، فلما رأى ذلك جده فرح واستبشر وقال : ياولدى وحق معبودك ليكونن لك شأن عظيم . قال : ثم إن الأشراف والناس أقبلوا يهنئونهم بالسلامة والفرح والكرامة بما قد أعطاهم الله تعالى من نور محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك نساء أهل مكة جئن يهنين آمنة بالسلامة والكرامة . فرأوها يعبق منها روائح المسك والعنبر ، فطابت رائحتهم من الطيب الذى في بيت آمنة ، فيقول الزوج لامرأته : من أين لك هذا الطيب ؟ فتقول له : هذا من طيب هذا المولود الذى ولدته آمنة بنت وهب . فأقبلت إليها القوابل



فوجدوه مقطوع السرّة مكحولا مختونا ، فقالوا لها : هلا أعلمت أحدا منا بولادته يأتيك حتى قطعت سرّته بنفسك وأصلحت أحواله ، فقالت لهم : والله ما لمسته ولا رأيته إلا كما ترونه . قال : فتعجبت القوابل غاية العجب .

قال البكرى : فلما مضى له سبعة أيام عمل عبد المطلب وليمة ، وأحضر إليها جميع أهل مكة ، وأقام الطعام للناس إلى ثلاثة أيام ، وكلما فضل شيء من الطعام رموه للوحوش والطيور . فلما انقضت الضيافة بعد السبعة أيام التمس له عبد المطلب مرضعة ترضعه وتربيه ، فلم يجد أحدا ، وكلما عرضوا عليه المرضعات من أهل مكة لم يقبل منهن أحدا ، والله أعلم .

إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ،

يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

قال البكرى لهذا الخبر الظريف : إنه كان من عادة أشراف قريش وأهل مكة إذا اكتمل للمولود سبعة أيام عزلوه عن رضاع أمه والتمسوا له مرضعة ترضعه وتربيه ، فقال الأشراف من أهل مكة من بنى هاشم لعبد المطلب : هلا تأخذ لولدك من نسائنا وبناتنا مرضعة تربيه وترضعه لتنال برضاعه الفخر والشرف ، وأنت يا عبد المطلب كافله وقد مات أبوه وأنت محله ، فقال لهم : سأنظر من تصلح لرضاعه . قال : فتطاولت إليه المرضعات من كل مكان ، وكانت آمنة بنت وهب نائمة فى جنب ولدها ، إذ هتف بها هاتف وهو يقول : أيتها المرأة السيدة الكريمة الفاضلة العظيمة ، افهمى وكونى لما أقول لك عليمة ، إن أردت رضاع هذا المذهب المهذب ، ففى نساء بنى سعد مرضعة له اسمها حليمة . قال : فلما سمعت آمنة كلام الهاتف تطاولت لذلك الأمر ، وكان كل من دخل عليها من المرضعات تسألها عن اسمها فتخبرها ، فلم تسمع فيهن ذكر حليمة .

قال الراوى : فتحرّكت البواعث لتحريك خروج حليمة السعدية لرضاع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأن البلاد التى كانت فيها قريبة من مكة ، وقد حل بهم القحط والغلاء ، وكانت مكة يومئذ موثقة بالطعام كثيرة الخيرات والبركات ببركة ولادة النبى صلى الله عليه وسلم . وقال المؤلف :

صلُّوا على خير الأنام تسعدوا   وسلِّموا فى السلام ترشدوا



خير البرايا سيدى الأسعد من نوره نار الجحيم تخمد
صلوا على الهادى الشفيع محمد محمود أبو القاسم أحمد
صلى عليك الله وسلما ومن له حسن الثنا يتجدد

قال الراوى : فخرجت حليمة يوما من الأيام مع نساء قومها من بنى سعد يجمعن من نبات الأرض ما يقتاتون به من الجوع . قالت حليمة بنت ذؤيب السعدية : فبينما أنا ذات ليلة من الليالى راقدة ، وأنا بين المنام واليقظة ، أتانى آت فرمانى فى نهر الكوثر ، وبه ماء أبيض وهو أحلى من العسل وأطيب من المسك والعنبر ، وقال لى : يا حليمة أبشرى بالسعد والعز والكرامة ، فان الله تعالى قد حباك بهذا النهر ، وأعطاك إياه دون قومك كلهم ، فاشربى منه واحمدى مولاك على ما أعطاك . قالت حليمة : فلما شربت من هذا النهر مضى عنى الضعف والجوع ، ثم قال لى : يا حليمة إذا أصبحت اقصدى مكة فان لك فيها رزقا واسعا وذكرا جميلا ، وسوف تسعدين ببركة مولود ولد فيها ، ثم ضربنى الهاتف بيده اليمنى وقال : أدر الله لك اللبن وقوى منك الضعف وصرف الله عنك الهم والحزن والحزن ، اذهبى يا حليمة نحو مكة العظيمة ، تنالى عزا وسعدا ونعمة مديمة . قالت حليمة : فلما أصبحت ذهب منى الضعف والجوع ، ووجدت ثديى كالبحر ، وامتلأ جسمى شحما ولحما ، واكتسيت بهجة ونورا وحسنا وجمالا ، وأصبحت فى غير حالتى التى كنت فيها . قالت حليمة : فلما رآنى نساء قومى وأنا على ذلك الحال من الحسن والجمال والقوة والنشاط تعجبن منى غاية العجب ، وقلن لى : يا حليمة قد عجبنا منك ومن حالتك هذه التى أصبحت فيها ، فلو كنت أكلت دوننا الخبز واللحم والتمر والسمن ما كنت بلغت إلى هذا كله ، لقد أصبحت فى رونق الحسن والجمال . قالت حليمة : فكتمت أمرى عليهن فتركننى ومضين عنى . قالت حليمة : فلما كانت الليلة الثانية هتف بى ذلك الهاتف حتى سمعه بنو سعد كلهم وهو ينادى بأعلى صوته ويقول : يا بنى سعد أنزلنا عليكم النعمات وصرفنا عنكم الترحات برضاعة مولود ولد بمكة شرفها الله تعالى اسمه محمد صلى الله عليه وسلم ، فضله الواحد الأحد ، فهنيئا لمن له قصد وبرضاعته سعد . قال : فلما سمع بنو سعد كلام الهاتف قالوا : إن هذا المولود



له شأن عظيم ، فرحل جميع بني سعد كلهم طالبين مكة شرّفها الله تعالى يطلبون الرزق والفضل لما سمعوا من كلام الهاتف ، فمن كان قويا حمل زوجته على مطيّة أو على جمل أو على فرس . قالت حليمة بنت ذؤيب السعدية : فلم يبق من قومنا أحد إلا وعزم على المسير إلى مكة ، ونحن كنا أهل بيت فقر وعسر ولم يكن لنا شيء من المواشي والجياد لما قد لحقنا من القحط والجوع والضرورة ، وقد فرغت مواشينا من الأكل ، وماتت من المحل ، لأنه لم يمطر علينا ثلاث سنين ، وما أنبتت الأرض شيئا من النبات والمرعى .

قال الراوي : وكانت حليمة من أطهر نساء قومها وأعفهن ، ومن أجل ذلك اختصّها الله تعالى لرضاع نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وتربيته . قال : ثم إن حليمة وزوجها قصدا إلى مكة ، بعد أن أركبها على أتان ضعيفة لاتقدر على المشي ،وكان قدوم حليمة وزوجها يوم الجمعة .وذلك لأنها دخلت مكة وخلفت زوجها خارج البلد . وقالت له اقعد هنا حتى أدخل وأسأل عن هذا المولود الذي بشّرنا به الهاتف . قال : فلما دخلت حليمة إلى مكة أرشدها الله تعالى حتى دخلت على عبد المطلب ، وكان جالسا بالصفا على سرير منصوب عند الكعبة ، فلما أتته حليمة أنعمته صباحا ، وفرحت به واستبشرت لمّا رأت السعد يلوح في جبينه ، فرحّب بها عبد المطلب وقال لها : من أين أقبلت أيتها المرأة الفليحة ؟ قالت حليمة : أيها الرجل المبارك السعيد ، اعلم أننا من قبائل بني سعد ، قد أضرّ بنا الزّمان ، ورمانا بكلاكله ، فأهلك مواشينا ، وقدمنا إلى بلدكم نطلب رضيعا نرضعه لكي نعيش بأجرته . وقد أرشدت إليك أيها الرجل الجليل ذو الوجه الجميل ،فقال عبد المطلب : أيتها المرأة المباركة إن الصدق أوفى ، إن عندنا ولدا مباركا ميمونا محمودا ، لم تلد النساء مثله ولا شكله ولا وصفه ، صبيح الوجه منير الجبين ، غير أنه يتيم لاأب له وأنا جده أقوم مقام أبيه وأكثر ، فان أردت أن تسترضعيه دفعته إليك وأعطيك كل ما يكفيك . قال : فلما سمعت حليمة من عبد المطلب ذلك الكلام أمسكت عنه ، ثم قالت : يا سيدي إن لي هنا بعلا وهو مالك أمري ، وأنا راجعة إليه أشاوره في ذلك ، فان أمرني بأخذ هذا المولود رجعت إليك ، فقال لها عبد المطلب : افعلي ما بدا لك . قال : فانصرفت حليمة من عنده وأقبلت إلى



بعلها ، فلما وصلت إليه سألها عن أمرها ، فقالت : إنى أتيت إلى عبد المطلب سيد قريش قيم الكعبة شرّفها الله تعالى ، فوجدت عنده غلاما يتيما ، وقد زعم أنه جده يقوم مقام أبيه . قال : فلما سمع بعلها ذلك الكلام منها أعرض بوجهه عنها وقال لها : ويحك قد عارضك الجنون وخالط عقلك النقصان ، ترجع نساء بنى سعد كلهم بالرفادة والأولاد من الأشراف وأكابر مكة وترجعين أنت برضاع يتيم ليس له أب وإنما له جد وأم ؟ قال : فلما سمعت حليمة ذلك منه بكت بكاء شديدا وجلست ونساء بنى سعد قد دخلن إلى مكة ، فمنهن من حصل لها رضيع ، ومنهن من لم تحصل لها ولدا ترضعه ، وكان النساء قد سمعن ذلك الهاتف الذى هتف بحليمة ، فقالت حليمة لبعلها : يرجع نساء بنى سعد كلهن بالمراضع ونحن نرجع خائبين وليس عندنا مال ولا تجارة نأكل منها ؛ ثم إن حليمة أسبلت عبرتها وجرت دموعها على خديها . فلما رآها بعلها تبكى رحم حالها وبكى لبكائها وقال : يا حليمة إنما نهيتك عن رضاع هذا المولود دون غيره لأنه يتيم ومتروك من اللطف ، والآن قد رحمته لأجلك ، فارجعى يا حليمة واقصدى هذا الرجل الذى رأيتيه لعلّ أن تكفلى منه هذا اليتيم وترجعى برضاعه ، فعسى أن يحصل لنا فى هذا الطفل بركة ورزق ، لأن جده مشهور بالكرم والجود والحسب والنسب والفضل والإحسان على أهل مكة . قال : فلما سمعت حليمة كلام بعلها فرحت فرحا شديدا ، وسُرّت سرورا عظيما ، ورجعت نحو مكة ، فوجدت عبد المطلب جالسا فى مكانه ، فذكرت له قول بعلها ، فقام عبد المطلب ومضى أمام حليمة إلى منزل آمنة فأعلمها بحليمة وقومها ونسبها وحسبها . فقالت آمنة : الحمد لله على ذلك ؛ اعلم يا عبد المطلب أن هذه المرأة التى أمرنى بها الهاتف وخصّها الله برضاع ولدى محمد صلى الله عليه وسلم دون غيرها من المرضعات أدخلها علىّ ، فأدخلها عليها ، فقالت لها : أبشرى يا حليمة فانك تسعدين برضاع ولدنا هذا ، فوالله ما أزهرت أما كننا ولا أخصبت بلادنا إلا من بركة ولدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فابشرى يا حليمة فانه مولود مبارك ، وولد صالح . قال : ثم إن آمنة أخذت بيدها وأدخلتها البيت الذى فيه محمد صلى الله عليه وسلم . فلما أقبلت عليه حليمة من باب الدار لمع نور وجهه وسطع

فى وجه حليمة كالمصباح فى ليالى الظلام . فلما نظرت حليمة ذلك حسبت أن عنده سراجا موقدا ، فقالت يا آمنة : توقدين مع ابنك سراجا فى النهار ؟ فقالت آمنة : والله ما أوقد عنده مصباحا أبدا لا ليلا ولا نهارا منذ ولدته ، وقد استغنيت بوجهه عن نور السراج ، فنظرت إليه حليمة ، وإذا به ملفوف فى ثوب من الصوف الأبيض ومنه تفوح روائح المسك الأذفر والطيب ، وأنشأ المؤلف يقول :

نور القلوب يزيد عند صلاتنا　　على الهاشمىّ ونورها لا ينجلى
فضياؤنا من ضياء نور محمد　　صلُّوا على ذاك النبي الأفضل

قال الراوى : فلما رأته وقعت محبته فى قلبها وفرحت به فرحا عظيما . ثم أشفقت عليه أن توقظه آمنة وكان نائما فكثت ساعة وقالت : يا آمنة إن بعلى الساعة قد استبطأنى . قال : فمدت آمنة يدها إليه لتوقظه من النوم ففتح عينيه وجعل يضحك فى وجهها ، فلما تبسّم خرج من فيه نور منير حتى عمّ جوانب البيت وفاحت منه روائح الطيب والعنبر . فلما رأت حليمة ذلك تعجبت منه ثم أقبلت إليه وتناولته فى حضنها ولقمته ثديها الأيمن فرضع ، وناولته الأيسر فامتنع ولم يرضع ، وكان ذلك إلهاما من الله تعالى ، ألهمه العدل والإنصاف صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يرضع من ثدى حليمة حتى يرضع أخوه ولد حليمة الثدى الأيسر ، فأخذته حليمة وخرجت به من الدار ، فسمعت هاتفا من فوق السطح يقول :

صلُّوا على نور تزايد فخره　　يعلو على الأنوار والألباب
محمد زين الخلائق كلهم　　وشفيع الخلق ناطقا بصواب
وخير حبيب للإله نبيّنا　　وخير رسول عامل بكتاب
صلُّوا على خير الخلائق　　تستوجبوا يا قوم خير ثواب

قال الراوى : قال عبد المطلب : مهلا يا حليمة حتى نزوّدك ونرفدك من المال ونعطيك ما يكفيك من الزاد ، قالت حليمة : حسبى من الزاد هذا الولد المبارك ، قد صار أحبّ إلىّ من المال والأولاد . قال : فأعطاها عبد المطلب من المال والكسوة والزاد فوق الكفاية ، وأعطتها أيضا آمنة أكثر مما أعطاها عبد المطلب ، فلما رأت ذلك فرحت وسُرّت وهى تقول :

هـذا غنائي ثم هـذا متجرى ... هـذا عظيم الشان هـذا الأزهر
هـذا سعودى ثمَّ سعدى كله ... جاء الأمان وزال عنى المعسر
كنز الغنى طود الزمان الهاشمى ... الأبطحى القرشى الأقمـر
هذا شفيع الخلق يوم المحشر ... مبارك الوجـه كريم المخـبر
صلى عليـه الله بارئُ الصور ... عـدّ نبات الأرض ثم المطر

قالت حليمة : فوالله لما أخذت محمدا صلى الله عليه وسلم ، قويت أركانى ودرّ لبنى مثل المطر بقدرة الله تعالى ، ولا مررت بحائط ولا شجر إلا ويناديني بالبشارة بما خصني الله تعالى به من الكرامة والفضل والإحسان . قال : فأقبلت حليمة إلى بعلها ، فلما نظر إلى النور الذى فى وجه محمد صلى الله عليه وسلم تعجب غاية العجب ، فألقى الله تعالى فى قلب حليمة المحبة والشفقة والرحمة ، فقال لها زوجها : يا حليمة إن الله عز وجل قد أكرمنا ورحمنا بهذا الولد المبارك ، ولا شك أنه من أولاد الأشراف . قال : ثم إنهم ركبوا على دابتهم وكانت فى الأول لاتقدر على النهوض من شدة الضعف ، فصارت تسبق دوابّ القافلة ، فلما رأوا ذلك تعجّب بنو سعد كلهم من أمرها ، فحملت محمدا صلى الله عليه وسلم فى الجنب الأيمن وولدها فى الجنب الأيسر ، فلما استقامت عليها للمسير مرّت بهم تلك الأتانة مثل الهبوب ، فلما خرجوا من مكة شرّفها الله تعالى وسارت قدر ميل إذا بهاتف يقول :

سيرى وارضعى هـذا المفدّى ... هـذا الذى فضله لازال فردا
هذا الذى لولاه ما غسق الدجى ... يوما ولا كان الضيا للخلق يهدى
هـذا الذى بالفضل أمسى مفردا ... من ربه دون الخلائق أيدا
هـذا الذى بولاده جاء الهـدى ... والدين والإسلام أضحى مشهدا
وإذا وصلت يا حليمة فابشرى ... بالفوز لاتلقين بعد اليوم نكدا
فلك الهنا برضاعه فهو الذى ... فى الحشر يشفع للقريب وأبعدا
صلى عليـه الله ما هب الصبّا ... وسرى النّسيم وفاح والطير غرّدا

قال الراوى : فبينما هم سائرون إذ مرّوا على أربعين راهبا من نصارى نجران مع حبر لهم عالم كبير من علمائهم ـ وكان قد وصف لهم علامات ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ـ يقول لهم : يا أصحابي إنه يظهر بمكة مولود فاضل عظيم



يكون نبيا كريما ، ومن صفاته كذا وكذا ، فاذا ظهر هذا المولود زال عن الكهَّان والأحبار نجم السعود ، واشتفى منهم كل ضد وحسود ، ويكون قلع آثارهم على يديه ونهب أموالهم وقتل أولادهم وإهلاكهم وهتك نسائهم ، وإذ اسمه فى كتبنا السفَّاك الفتَّاك وتنصره فى الحروب الأملاك ، آه لو نقدر على هلاكه أو علمنا أحدا يقدر على هلاكه لساعدناه بالأموال والرجال . قال : وكان إبليس لعنه الله تعالى فى ذلك الوقت قد أتاهم فى صورة آدمى ، فقال لهم : اعلموا أيها الأحبار والرهبان أن هذا المولود المحمول على ساعد هذه المرأة الزكية هو خصمكم ، وهذه فرصة وقد حصلت لكم فدونكم إيَّاه . قال : فأقبل إليه اليهود والأحبار والكهَّان . قالت حليمة : فلما أقبلوا نحوى ونظروا إليه وإذا بالنور يلمع من غرة وجهه ، فزعق إبليس عليهم وقال لهم : اقتلوه فانه خصمكم . قال : فشهَرُوا السيوف عليه وعزموا على قتل ولدى محمد صلى الله عليه وسلم . قالت حليمة : فخفت منهم وأيقنت بالهلاك ؛ فلما قربوا منا رفع ولدى محمد رأسه إلى السماء وسمعته يتكلم بكلام لا أفهمه ، فلما طبق فاه وصمت عن الكلام ، وإذا بزعقة عظيمة وصاعقة شديدة من السماء ، فرفعت رأسى لأنظر ، وإذا بأبواب السماء قد فتحت وخرجت منها قبة نار ونزلت على مقدار الكهان والأحبار ، فلما رأيتها ازددت خوفا ورعبا ، فلما قربت قبة النار من الأرض دارت على القوم كدوران الرحا عند طحن الحب فأحرقتهم عن آخرهم ، وإذا بقائل يقول من الهواء : خاب سعى الكهان والأحبار والرهبان . قالت حليمة : فعاينت اليهود وإذا هم قد احترقوا وصاروا رمادا . فلما رأيت ما حلّ بهم من العذاب حمدت الله تعالى على ذلك ، وكان هذا أول شىء وقع من براهينه ودلائله ومعجزاته وعلاماته صلى الله عليه وسلم .

قال المؤلف :

حب النبي على الأنام فريضـــة	لاتنس ذكر الهاشميّ الأكرم
إن الصـــلاة على النبي محمد	فيها النَّجاة لكل عبـــد مسلم
صلُّوا على القمر المنـــير فانه	نور تبـــدَّى فى الغمام المظلم
رحم العباد به رحـــيم قادر	فالشكر لله العـــلىّ المنعم

قال الراوى : قالت حليمة : فوصلت الحى وأنا مرعوبة ، فقلت لولدى



هذا شأن عظيم ورب كريم ، فلما قدمت اخضرّت الأرض وأثمرت الأشجار وحملت المواشى ، وقد كانوا فى قحط وشدّة جوع عظيم ، فزال عنهم ببركة محمد صلى الله عليه وسلم ذلك كله ، فأحبه جميع القبائل وجميع بنى سعد ، وكان إذا مرض أحد منهم يأتون به إليه فيضع يده عليه فيشفيه الله تعالى . وكان بنو سعد يقولون : لقدْ سعدنا ببركة هذا المولود المبارك الذى معكم ، قالت حليمة : ولم أزل فى بركة وخير كثير ، وقد كان معى فى كل حين ووقت ، فما غسلت ثوبه من النجس . قال المؤلف :

امدح نبى الهُــدى يا أيها الرجل   واذكر فضائله والدمع منهمل
وصلِّ دهورا على المختار مجتهــدا   تحت الظلام وداجى الليل منسدل
عسى تحظى بدار لانفاد لهــا   نعيمها دائم والظلُّ والأكل

قال الراوى : قالت حليمة : كنت أسمع منه نطق الحكماء ، فلما كبر ونشأ وترعرع كان يقول : الحمد لله الذى أخرجنى من أفضل نبات من الشجرة التى خلق الله منها الأنبياء ، وكنت أتعجّب من كلامه ، وكان يشب شبابا مُسرعا ويُمسى صغيرا ويصبح كبيرا ، ويزيد فى اليوم والليلة كما يزيد غيره فى شهر ، ويزيد فى الشهر كما يزيد غيره فى السنة ، ولم يكن فى زمانه أحسن منه ولا أجمل ولا أكرم منه ، وكنا نجعل القليل من الطعام بين أيدينا ونجتمع عليه كلنا فيكفينا ويشبعنا ببركة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال : فلما بلغ سبع سنين قال لأمّه حليمة : يا أمى أين إخوتى ؟ قالت : يا بنى إنهم يرعون الأغنام التى رزقناها الله ببركاتك ، فقال لها : يا أمّاه أكون فى الظل وإخوتى فى الحر يرعون الأغنام ، وأنا أكون مستريحا أشرب الماء البارد واللبن فى البيت وهم فى القفر بالشمس ؟ قالت حليمة : يا ولدى اعلم أنك أعز أولادى عندى وأعظم قدرا ، وإنى أخاف عليك من الأعداء والحسّاد والرصّاد ، وأخاف أن تكون مع إخوتك فى الرعاة فيطرقك طارق ويفجعنى فيك ، ويطالبنى جدك بثأرك . قال : فلما سمع ذلك منها ضحك فى وجهها وقال : يا أماه دعينى أعين إخوتى وأخرج معهم ، ولا تخشين علىّ من عدوّ ولا حاسد ، قالت له : يا بنى وما تريد الآن ؟ قال : إذا كان فى غد فاتركينى أخرج مع إخوتى ، فلما رأته يريد الخروج وهى خائفة عليه

أرادت أن لاتكسر خاطره فمهدت إليه وشدّت وسطه وشمّرت أذياله وجعلت فى رجليه نعلين وأخذ بيده عصاه وخرج مع إخوته . فلما رآه أهل الحى أتوا مسرعين إلى حليمة وقالوا لها : كيف يطيب قلبك وتتركينه يخرج إلى البرّية يرعى وما تصلح له الرعاية ؟ قالت حليمة : ما الذى أصنع وقد نهيته فما انتهى ؟ فأسأل الله تعالى أن يصرف عنه كل سوء ومكروه وحسد كل حاسد وكيد كل كائد ، لأنى رأيت منه براهين كثيرة .

ثم إن حليمة أنشأت تقول :

صـــلُّوا على الهاشمىّ محمـــد ... وأكثروا من ذكره ومجّـــدوا

وأكثروا التسليم بعد صلاتكم ... للسيِّد المختار هـــذا الأمجـــد

ومن يك ذا بخل شديد بذكره ... فذاك عن الحق المبـــين مبعد

قال الراوى : فسرّحت رأسه ومضى للسرح مع إخوته ، فوصلوا إلى واد معشب . وكانت الرُّعاة لاتأوى إليه ولا ترعى فيه ، تخافه لكثرة سباعه ؛ فبينما هم هناك وإذ قد أقبل عليهم أسد عظيم الخلقة هائل المنظر ، فلما طلع على أغنامهم فتح فاه وهمّ أن يهجم عليهم فجفلت الغنم ؛ فعند ذلك تقدم محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما نظره الأسد نكّس رأسه وذبذب بذنبه وولى هاربا ، فعند ذلك تقدم إليه إخوته ، فقال لهم : ما شأنكم ؟ قالوا : خفنا عليك من الأسد يفترسك ، فما الذى قلت للأسد رأيناك تتكلم معه ؟ قال : إنى قلت له إياك أيها الأسد أن تعود إلى هذا المكان وهذا الوادى بعد هذا اليوم ، فحلف لى بالله إنه لايعود له أبدا . قال المؤلف :

صلى الإله على خير الورى نبينا ... وأكرم الخلق فى الآفاق والبشر

صلى الإله على من أنواره طلعت ... كأنها الشمس أو ضيا القمـــر

صلى الإله على من فاق مكرمة ... على الخلائق من بدو ومن حضر

قال الراوى : فلما كان ذات يوم من الأيام أقبلت حليمة على زوجها ، وقالت له : يا رجل تقبل منى نصيحة ، قال : وما هى يا حليمة ؟ قالت أسير بولدى محمد صلى الله عليه وسلم إلى جده ، فانى أخشى أن يطرقه طارق فتعظم مصيبتنا عند جده عبد المطلب ، فقال لها زوجها : ولم ذلك ؟ قالت : رأيت فى المنام رؤيا أفزعتنى ، فانى رأيت كأن ولدى محمدا صلى الله عليه وسلم



مع إخوته كما كان يخرج ، فبينما هو كذلك إذ أتاه رجلان عظيمان لم أر أحسن منهما وأعظم منهما ، وعليهما ثياب خضر ، قد قصدوا ولدي محمدا صلى الله عليه وسلم ، وفي أيديهما خنجر يلمع كالشهاب الثاقب ، أتى إليه واحد فأضجعه على قفاه ، والآخر شقّ جوفه وأخرج منه فؤاده ، فانتبهت من ذلك فزعة مرعوبة ، وإن الرأى عندى أن نسير به إلى مكة شرّفها الله تعالى ، فاننا نخاف عليه من أعدائه ؛ فقال لها بعلها : لاتخافى عليه من أحد يا حليمة ؛ فانه محفوظ ولا يقدر عليه أحد بسوء ، أما ترين كيف فعل الله بأعدائه اليهود أهل نجران ، كيف أحرقهم الله تعالى بالنار ؟ فقالت حليمة : رأيت ذلك ، ولكن لكل شيء نهاية ، فقال لها بعلها : يا حليمة إن رؤياك التى رأيت أضغاث أحلام وخطرات أوهام .

قال الراوى : فخرج محمد صلى الله عليه وسلم مع إخوته كعادته كل يوم يرعى الأغنام ؛ قالت أمه حليمة : يا ولدى لاتخرج فى هذا اليوم اقعد عندى حتى أشبع من النظر منك لأنك تخرج كل يوم بكرة ولا تجيء إلا عشية ، فقال لها : ولم ذلك يا أمّاه ؟ فقالت يا ولدى : أخاف عليك من الأعداء ، فقال لها : لاتخافى علىّ من الأعداء . قالت حليمة : فتركته يمضى مع إخوته . فلما كان وقت الظهر ما أشعر إلا وقد أقبل أولادها يبكون وينوحون ؛ فلما سمعت حليمة بكاءهم أقبلت إليهم وهى تبكى وتتعثر بأذيالها فقالت لهم : يا أولادى ما الذى دهاكم وبشرّه رماكم ؟ فقال أولادها : يا أمّاه دُهينا بأعظم الدواهى كلها ، اعلمى يا والدتنا أنا خرجنا بأغنامنا ومعنا أخونا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما أقبلنا بالأغنام لنستظل تحت الأشجار ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل إلينا رجلان عظيمان لم نر مثل صورتهما ، فلما وصلا إلينا أخذا أخانا محمدا صلى الله عليه وسلم من بيننا ومضوا به إلى ذروة الجبل ونحن ننظر إليه ونبكى ، فأضجعه واحد على قفاه ، وأخذ الآخر سكينا حادة وشقّ فؤاده وأخرج قلبه وأمعاءه ، فامضى يا أمّاه مع قومك والحقى به فانه قد هلك . قال : فلما سمعت حليمة كلامهم بكت حتى غشى عليها ، فلما أفاقت من غشيتها نادت : واحزناه عليك يا ولدى ، والهف نفسى عليك يا قرّة عينى .



ثم ارتفع الصياح فى الحى من كل مكان ، فخرج القوم جميعا حتى أشرفوا على الجبل وخرجت حليمة معهم ناشرة شعرها حتى أشرفوا على محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجدوه جالسا والأغنام محيطة به ، فنزل القوم عن ظهور الخيل ورفعوه على أكتافهم وأتوا به وهم يقولون : كل سوء تلقاه يا محمد يكون فى أولادنا دونك ، فأخذته حليمة وقبّلت عينيه وكشفت عن بطنه ، فلم تر به أثر جراحة ، ولم تر فى ثوبه أثر دم ولا غيره ، فرجعت إلى أولادها تنظر إليهم وتقول : كيف كذبتم على أخيكم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لها محمد صلى الله عليه وسلم : يا أمّاه لاتنظرى إليهم فانهم صادقون ، إنى كنت معهم إذ أتانى رجلان صفتهما كذا وكذا ، فأخذانى وأضجعانى ، وأخرج أحدهما سكينا فشق فؤاى وأخرج أمعائى ، ورفع نكتة سوداء ورمى بها وقال : هذا حظ الشيطان أزلناه عنك يا محمد ، ثم إنهم غسلوا فؤادى بالماء وأعادوه إلى جوفى كما كان ، وأخرج خاتما يشرق منه النور فختم على فؤادى . ثم مسحا بيدهما على ما شقّاه فعاد كما كان بقدرة الله تعالى ، ثم قال أحدهما للآخر زنه ، فوزننى بعشرة من أمتى فرجحت ، فقال له صاحبه زنه بمائة من أمّته فوزننى فرجحت ، فقال زنه بألف من أمته ، فوزننى فرجحت ، فقال له صاحبه دعه فلو وُزِن محمد صلى الله عليه وسلم بأهل الأرض والسموات كلهم لرجح بهم ، وعرجوا إلى السماء وتركونى فى مكانى وأنا أنظر إليهما . قال المؤلف :

صلوات ربّ ماجد صمد على النبي الذى قد نال عزا وتفضيلا
صلى عليه إله العرش تكرمة نزل الكتاب عليه بذا وحيا وتنزيلا
فهو الدليل لأهل الأرض كلهم لمن أراد إلى الفردوس تحويلا
ومن أراد خلاصا من عقوبته ومن أراد إلى الرحمن توصيلا
هذا بيان لأهل الخير كلهم يعلون بدار الخلد تنزيلا

قال الراوى : فأقبلت حليمة السعدية على بعلها وقالت له : الرأى عندى أن نوصل هذا المولود إلى أمه وجده ، وأنت ما عندك من الرأى ؟ قال : يا حليمة أنا لايسمح قلبي بمفارقته ، ولا تقرّ عينى بالمضىّ به ، فانه أعزّ أولادى عندى قربة وجلالة ، ولست أقدر على فراقه ، فقالت حليمة : أنا أوصل هذا الغلام



المبارك إلى جده ، وإن جده فى انتظاره ومشتاق إلى رؤيته . قال : ثم إنها أقبلت من وقتها وساعتها إلى ولدها محمد صلى الله عليه وسلم وقالت له : يا قرّة العين وثمرة الفؤاد إن جدك لمشتاق إليك وكذلك أملك وأعمامك ، فما تقول فى المسير نحوهم ؟ فقال لها يا أمّاه : وإن قلبى إليهم كثير المحبّة والاشتياق . قال : فلما سمعت حليمة كلامه ، جاءت إلى راحلتها وركبت على كورها ، وأخذت محمدا صلى الله عليه وسلم فى حجرها وأرخت زمام الناقة ، فسارت تريد مكة شرّفها الله تعالى . وكانت الناقة إذا نزلت فى هبوط ضمته إلى صدرها ، وإذا نظرت إلى ركب فى البر ضمته عنهم خوفا عليه ، حتى وردت على حىّ من أحياء العرب ، وكان فى ذلك الحى حبر من الأحبار ، وكان كاهنا عظيما ، وكان شيخا معصب الرأس بعصابة ، وقد سقط حاجبه على عينيه من طول السنين والأعوام الماضية والدهور المتوالية ، وجميع الناس عاكفون حوله ، فلما قربت حليمة من الحبر غشى عليه ؛ فلما أفاق من غشيته قال لمن كان حوله : ويلكم بادروا إلى هذه المرأة والزموها وأتونى بهذا الصبى الذى فى حجرها ، واقتلوه قبل أن يخرب دياركم ويمحو آثاركم ويظهر لكم ما تكرهون . قال : فلما سمعوا كلامه بادروا إليه مسرعين ؛ فلما أحسّت بهم الراحلة طارت بهما كالبرق ، فما لحقوا منها إلا آثار الغبار . قالت حليمة : فلما وصلت إلى باب مكة شرّفها الله تعالى وكان هناك جماعة مجتمعون ، فوضعت ولدى محمدا صلى الله عليه وسلم ومضيت أقضى حاجة لى وبعدت ناحية عنهم ، فلما رجعت إلى ولدى محمد صلى الله عليه وسلم لم أره عندهم ، فسألتهم عنه فقالوا : أيتها المرأة ما رأيناه ما اسمه ؟ قلت : محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب الذى فرّج الله به همّى وغمّى . وقال المؤلف :

بهجت بذكرك مهجتى ولسانى	وحللت فى قلبى بكل مكان
قد فاق ذكرك فى البرية كلها	وإن حبك آخذ بعنانى
سلطان حبك فى الهوى وبه تعز	ز مهجتى أبدا وسلطانى
أنت النبى الهاشمى محمد	صلى الإله عليك فى القرآن
أنت الحبيب لأهل دينك كلهم	أنت الجليل معظّم فى الشان
صلى عليك الله يا من حبه	باب الدليل بجنّة الرّضوان

فذكرك ما بقيت معمّـرا حتى الممات ولا يكل لسانى
فصلاة رب ماجـد تترى عليـك معاقب الأيّام والأزمان

قال الراوى : قالت حليمة : فقالوا لى إلى أين تريدين بهذا الغلام ؟ فقالت لهم : قد أتيت به إلى أهله ، فاختطف من قبل أن يصل إلى أهله ، فوحق رب الكعبة والمقام إن لم أجد ولدى محمدا صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم لأرمينّ بنفسى من هذا العلو ، وإنه فى هذه الساعة وضعته بين أيديكم وأنتم قعود : فقالوا لها : والله ما رأيناه ، فلما سمعت كلامهم مزّقت ثيابها ولطمت على وجهها وجعلت تقول : ووالداه وامحمداه ، إذ خرج إليها شيخ كبير من أهل مكة يتوكأ على عصاه قد انحنى ظهره من الكبر ، فقال لها : ما قصتك يا حليمة ؟ فقالت له : فقدت ولدى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : لاتبكين ولا تحزنين ، فأنا أدلك على من يعلم أين ذهب ولدك ، قالت : افعل أيها الشيخ ، فمضى أمامها حتى أتى الكعبة وطاف وتواضع للصنم الكبير الذى يقال له هبل ، وقال له : يا مولاى إن حليمة تقول قد ضاع ولدها محمد صلى الله عليه وسلم ، فخر ذلك الصنم ساجدا على وجهه ولم يتكلم أبدا . وقال المؤلف :

صلّوا على خير الأنام ومن به تنجو العباد فى موقف الأهوال
إنّ الصـلاة على النبى حبيبنا من أفضل الأفعال والأعمال
فهو النبى المصطفى علم الهُـدى طيّب الأقـوال والأفعال

قال الراوى : فلما رأى الشيخ سجود الصنم على وجهه ولى هاربا وقال : يا سعدية لاتخافى على ولدك محمد صلى الله عليه وسلم ، فان له ربا لا يضيعه ولا يسلمه إلى أعدائه ، فاطلبيه بالرفق على مهل . قالت حليمة : فلما سمعت كلامه خشيت أن يكون قد أخذ ولدى أحد الناس وسبق به إلى جده عبدالمطلب فقصدت إليه بسرعة ، فلما رآنى قال : ما قصتك ؟ قلت : ولدكم محمد صلى الله عليه وسلم قد أتيت به ووضعته على باب الكعبة ومضيت فى قضاء حاجة لى ، فجئت إليه فلم أجده ولا وقفت له على أثر ولا عرفت له خبرا ، فقال عبد المطلب : أخشى أن يكون بعض الكهان أو بعض السّحرة اغتالوه ؛ ثم إن عبد المطلب قام قائما على قدميه وصاح بأعلى صوته : يا آل غالب يا آل غالب يا آل غالب يا آل هاشم يا آل هاشم يا آل هاشم .



قال البكرى رضى الله عنه : فلما سمع قريش نداءه أجابوه بالتلبية من كل مكان وقالوا له : ما الذى تريد من الأمور ، وما نزل بك من البلاء ؟ فقال لهم عبد المطلب : اعلموا يا إخوانى ويا معشر قومى من قريش أن حليمة بنت ذؤيب السعدية أتت بولدى محمد صلى الله عليه وسلم إلى باب حرم الكعبة ومضت فى قضاء حاجة لها ، فأتى إليه آت واختطفه من مكانه ، وأتت إليه حليمة فلم تجده فى مكانه ، وأتت عندى وأخبرتنى ، فقلت فى نفسى : إن بعض الكهنة وأحبار اليهود والسحرة أخذوه وقتلوه . قال : فلما سمعت كلامه قريش قالوا : يا عبد المطلب إن خضت بحرا خضناه ، وإن طلعت جبلا طلعناه ، وإن ركبت خطرا ركبناه ، ثم ركبوا على الخيول والأباعر وداروا فى الفيافى والقفار فلم يجدوا له خبرا ولا وقفوا له على أثر ، فبكى عبد المطلب وضاق صدره وعيل صبره وغشى عليه ؛ فلما أفاق من غشيته أقبل إلى الكعبة وهو حاسر الرأس حافى الأقدام ، والناس من حوله مثل الجراد المنتشر ، فلما دخل الكعبة وقد سالت دموعه على خديه وهو يتضرّع ويقول فى دعائه : اللهم أعطيت فأحسنت العطية ، اللهم أتمم نورك المضيء ، واجمع به الشمل يا رب العالمين . قال : فما استتمّ عبد المطلب دعاءه إلا وجاوبه هاتف من داخل الكعبة شرّفها الله يقول : يا عبد المطلب لاتخف ولا تحزن ولا تجزع من فراق ولدك محمد صلى الله عليه وسلم ، فان له ربا عظيما وسيدا كريما وحافظا وناصرا ، وإنه سالم من الآفات . فلما سمع ذلك عبد المطلب قال : أيها الهاتف أنبئنى إلى أى مكان أقصد فيه ولدى ، فقال له الهاتف : اطلبه عند وادى عانة عند شجرة الموز . قال : فمضى عبد المطلب إلى المكان الذى أخبره الهاتف به فوجده هناك قاعدا تحت ظل الشجرة ، وقد تدلّت عليه أثمارها ، فبادر إليه القوم ، وأوّل من سبق إليه عبد المطلب وقبّله بين عينيه ، وقال يا ولدى : من أتى بك إلى هذا المكان البعيد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا جداه حين طرحتنى أمى حليمة على باب الحرم جلست أنظر إلى الكعبة شرّفها الله تعالى ، إذ أتانى طير أبيض من السماء واختطفنى وحملنى على جناحه وجاء بى إلى هذا المكان ، وأجلسنى تحت ظل هذه الشجرة ، وقد كان أضرّ بى الجوع والعطش فأكلت من ثمارها وشربت من الماء الذى تحت الشجرة .



قال البكرى رضى الله تعالى عنه : وكان ذلك الطير جبرائيل عليه السلام .
وقال المؤلف :

صلى الإله ومن يحفُّ بعرشه والطيِّبون على المبارك أحمد
ما أقبلت شمس النهار على النبىّ التقى الرسول محمد
عليه صلاة الله فى الصبح والمسا وكل وقت تترى على النبى محمد
ما لاحت الجوزاء شرقا ومغربا وطابت الأسماع بذكر محمد

قال الراوى : ثم إن حليمة قالت لعبد المطلب : يا سيِّد الحرم إن ولدك قد عرض له كذا وكذا ، فقال : ياحليمة لا بأس عليك فامضى إلى أمه وأخبريها لأنها أخبرتنى يوم ولادته أنه سطع منه نور إلى عنان السماء ، وقوله تعالى فى سورة الانشراح ـ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ـ وقوله تعالى فى سورة الضُّحى ـ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ـ أى ضالا فى البرية وجبال مكة ، فهداك إلى جدك عبد المطلب . قال : ثم إن حليمة أخذته ومضت به إلى أمه ، فلما رأته أمه قبَّلته وفرحت به فرحا عظيما ، وأعطوا حليمة عطايا زائدة ، وأنعموا عليها إنعاما تاما ، فعند ذلك أخذه جده وكفله إلى حيث كبر ونشأ وترعرع ، فيوم من الأيام رمد محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان بالجحفة طبيب عارف ، فأخذه جده ومضى إليه ، فلما دخل عليه صاح عبد المطلب بالراهب ، فأخرج الراهب رأسه وقال ماتريد أيها الشيخ فقلت له انظر إلى هذا الغلام وما نزل به ، قال الراهب : اكشف لى عنه ، فلما كشفت له وجهه تزلزلت الصومعة ، فرد الراهب رأسه وهو ينادى بالإقرار والشهادة ، ثم سمعوا هاتفا يقول :

صلُّوا على القمر المنير إذا بدا فى موكب من حسنه وجماله
لم يخلق الرحمن خلقا مثله فى فضله وبهائه وكماله
ختم النبوة طيِّب وختامه مسك يكون من نسيم جلاله
صلُّوا على العلم الذى من أمَّه نال المنى وحاز كل مناله
صلُّوا على بدر التمام وسلِّموا وتوسَّلوا وتقرَّبوا بنواله
تودُّدا وتحنُّنا وتشفُّقا وتفضُّلا وتوصلا بجماله

قال الراوى : فقال الراهب وما عسى أن أقول فيه إنه لا بأس عليه مما نزل



به وإنه يستريح من دائه هذا ، وأنت يا شيخ اسمع ما أقول لك : إن ولدك سيد الأولين والآخرين ، وحبيب رب العالمين ، الشافع المشفَّع فيهم يوم الدين ، الذى ينصره جند من الملائكة المقرَّبين ، ويأمره الله أن يقاتل من يخالفه وينصره الله نصرا عزيزا ، وكان أشد الناس له محبة ذلك الراهب ؛ قال : والذى لا إله إلا هو لئن أدركت زمان مبعثه لأنصرنَّه . فاحتفظ يا عبد المطلب على الوصية . قال : فرجع بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وأوصى به عمه أبا طالب ، وأقبل به إلى زوجته ، وقال لزوجته فاطمة بنت أسد ، وكانت شديدة المحبة والمودة له والتلطُّف والتعطُّف عليه ، ولا تصبر عنه ساعة واحدة ، وكانت تخشى عليه من الرياح إذا هبَّت ، وتحذر عليه من الأعداء وتخاف عليه من اليهود والكهان والسحرة ؛ فقال لها أبو طالب : اعلمى يا فاطمة أن محمدا صلى الله عليه وسلم قرَّة عينى ولُبَّة أحشائى وأن أمره فى منزلى كأمرى ونهيه كنهيى ، فلا يتعرَّض له أحد من أولادى ، ولا تؤثرين عليه أحدا منهم بأكل ولا شرب ، وأطيعوه فيما يريد . قال : وكان لفاطمة من الأولاد عقيل وجعفر ، ثم قالت لزوجها : أتحتاج أن توصينى فى ولدى محمد صلى الله عليه وسلم فانه أحبُّ إلىَّ من أولادى كلهم وممن طلعت عليه الشمس . قال : فعند ذلك فرح أبو طالب بمقال زوجته فاطمة واستبشر . قال : فلما نظر أبو طالب إلى حسنه وجماله أنشأ يقول :

لقد نار وجهك الذى قد أفاق بالحسـى   على نور شمسنا والهلال
أنت والله منــاى والمتمــنى   قــد فاق نورك المتعــالى
أنت والله من خيار أناس   وبحسن يفــوق على الجمـال
وعــلوّ الفخار فى المجـد أيضا   لقد ارتقيت بأعــلى المعالى

وقال فى هذا المعنى :

تواترت الأخبــار شرقا ومغربا   بذكر رسول الله فى السر والجهر
فذكرك للجبَّار فخرا ورفعــة   وذكرك للمختار من أفضل الذكر
صلى عليــه الله ما لاح بارق   وما عسعس الليل وما تنفَّس الفجر

قال : وقد علا قدر محمد صلى الله عليه وسلم حتى سمَّوْه الصادق الأمين ، وشاع ذكره فى المشرق والمغرب . قال : فبينما هو ذات يوم من الأيام متوجه



إلى الكعبة شرّفها الله تعالى وأهل مكة كلهم حولها وقد انهدم منها ركن الحجر الأسود فبنته قريش بأجمعهم . فلما عزموا أن يضعوا الحجر الأسود فى مكانه تنازع جميعهم أيهم يضع الحجر الأسود ، وكل قبيلة تقول : نحن أولى بوضعه منكم فى ركنه ، وكانوا كلهم يريدون الفخر بوضعه ، فقال ابن المغيرة : يا قوم حكّموا فيكم لهذا الأمر رجلا يحكم لكم فيما اختلفتم فيه ، فقالوا : من هذا ؟ فقال : هذا الدّاخل علينا ، فنظروا اليه وإذا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : نعم الرجل الصادق الأمين وحبيب رب العالمين . قال المؤلف :

إذا طيب الناس المجالس بينهم ... مداما وريحانا فذكرك طيبنا
وإن كان للناس نصيب به ... فحبك من كل الأمانى نصيبنا
وإن كان حب الخلق بعضا لبعضهم ... فأنت من جميع الخلق حقا حبيبنا

قال : فلما أقبل عليهم النبى صلى الله عليه وسلم نادوه بأجمعهم : يا محمد قد حكّمناك فى أمرنا هذا ، فمن يحمل الحجر منا يضعه فى مكانه الأول ؟ فقال لهم : هَـٰذِهِ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ حَاضِرَةٌ فَأْتُونِى بِثَوْبٍ ، قال : فأتوه بثوب ، فقال لهم : ضَعُوا الحَجَرَ فَوْقَ الثَّوْبِ وارْفَعُوهُ بِأَجْمَعِكُمْ إلى مَوْضِعِهِ الأَوَّلِ ، فرفعه جميعهم وانقطع الشك بينهم . وكان أحدهم المغيرة والثانى ربيعة والثالث حرب بن أمية والرابع الأسود بن عبد يغوث رفعوه والنبى صلى الله عليه وسلم هو الذى وضعه فى مكانه . قال : فلما رأوا أفعاله وحلمه تعجّبوا منه غاية العجب وتحدث بذلك جميع الرجال والنساء . قال المؤلف :

أيها الناس بادروا ثم جدّوا ... بالصلاة على السراج المنير
هو خير الأنام جاء بصدق ... وكتاب من السّميع البصير
فيه أمر وفيه قول بليغ ... وفيه وعد بالنّعيم وبالتّكبير
وأعدّ لباغضيه نارا ... حرّها موقد تسمى السّعير
لاتملّوا من الصّلاة عليه ... سوف ينجيكم غداة الزفير
ثم تحظوا بدار نعيم ... ليس تبلى من عند رب قدير
فعليه من الإله ألف صلاة ... ما دجى الليل ونار المنير
عدد نبت الثّرى مع ورق ... جميعا وعدد الحصى وطول الدهور



قال الراوى : ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ يوما من الأيام بمنزل خديجة بنت خويلد وفيه ملأ من النّاس والجوارى والعبيد ، وكان عندها حبر من الأحبار ، فلما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالطريق نظر إليه ذلك الحبر وقال : يا خديجة هذه الساعة مرّ على بابك شاب من الشبان ، فأمرى بعض عبيدك أن يناديه لنا ، فأمرت بعض العبيد فأسرع العبد حتى لحق به ، فقال له : مولاتى خديجة تدعوك إلى حضرتها ، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم معه وسار حتى دخل منزل خديجة ، فلما رأته قالت : أيها الحبر الحاذق والرجل الصّادق ألهذا أشرت ؟ قال نعم ، فقالت خديجة : هذا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، فقال الحبر : يا محمد إن لى فيك علامات اكشف لى عن كتفك ، فكشف له فرأى خاتم النّبوّة ، فدهش عقله وحار فكره لذلك ، فقالت خديجة : أيها الحبر ارتدع فلو رآك عمه وأنت تفتّشه لأذاقك المنون ، فاحذر على نفسك أن يراك بعد هذه المرة ، فانهم حاذرون عليه من اليهود ، فقال الحبر : ما يقدر أحد على ضرره ، وأنا إنما أردت أن أريك ياخديجة هذا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب البرهان ، المبعوث فى آخر الزمان ، ودينه معطّل جميع الأديان ، فطوبى يا خديجة لمن يكون محمد صلى الله عليه وسلم بعلها وتكون زوجته ، فقد تحوز شرف الدنيا والآخرة . قال : فتعجبت خديجة من كلامه ، وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد اشتغل قلب خديجة بالمحبّة له لكلام الحبر .

قال الراوى : فقالت خديجة : أيها الحبر الفطين ، بماذا عرفت محمدا صلى الله عليه وسلم ، وبماذا عرفت من أوصافه ؟ فقال : رأيت صفاته فى التوراة والإنجيل ، أنه مبعوث آخر الزمان يكسر الأصنام ، وتموت أمه وأبوه ، ويكفله جدّه وعمّه ، ويتزوّج بامرأة من قريش سيدة قومها وأميرة عشيرتها ، ذات مال وخدم وعبيد ، وأشار بيده إلى خديجة ، فقال لها : احفظى ما أقول لك . ثم أنشأ يقول :

يا خديجة لاتنسين الآن قولى ⁂ وخذى منه غاية المحصول

يا خديجة هو النبي بلا شك ⁂ هكذا قد قرأت فى الإنجيل

سوف يؤتى من الإله بوحى ⁂ يحظى بأحسن التنزيل



ويروح الفخار منه ويضحى   جيله شامخا على كل جيل

قال الراوى : فلما سمعت خديجة كلامه تعلّق قلبها به صلى الله عليه وسلم فان فيه شرف الدنيا والآخرة . قال : وكان لخديجة عم يقال له ورقة بن نوفل وكان من كهان قريش ، وقرأ فى صحف إبراهيم وفى التّوراة والإنجيل فكتمت أمرها ، فلما خرج الحبر من عندها أرسلت إلى عمّها ورقة فسألته عن صفات محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان ورقة عالما بصفات محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يتزوّج بامرأة جليلة القدر ، كثيرة المال ، سيدة قومها وعشيرتها تساعده وتعاضده وتنفق عليه مالها ، فعلم ورقة أن ليس بمكة كلها أكثر أموالا وخدما من خديجة بنت خويلد . قال ورقة : لعل أن تكون هى زوجته حتّى تفوز بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ورقة يقول : يا خديجة بشارة لك ، فتقول له : ما عندك من البشارة يا عم ؟ قال : سوف تصلين رجلا يكون لك فيه شرف الدنيا والآخرة .

قال الراوى : وكانت خديجة أغنى أهل مكة كلها ، وكان لها فى كل قبيلة من قبائل العرب عدد من النوق وجانب من الغنم والخيل ، وكان لها خمسون عبدا وخمسون جارية ، قد فرقت معهم المواشى والخيل والأغنام يرعونها فى الفلوات مع فرقة من العرب ، وأعطتهم بيوت الشعر ، وزوّجت العبيد بالجوارى ، فجعلوا يتوالدون العبيد والخيل والأغنام والنّوق ، حتى صار لها من المال أربعون ألفا من الجمال ، وخمسة وعشرون ألف ناقة ، وقد فرّقت الجمال للتجار فى بلاد الشام والعراق والحبشة ومصر والطّائف وعمان وجميع الأمصار ، وأعطتهم الوكلاء والعبيد والغلمان . وكان أبو طالب قد ضعف وكبر من كثرة التردد والأسفار والتجارة ، وقد ترك ذلك كله لأجل كفالة محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فدخل النبى يوما فرآه مهموما مغموما ، فقال له : يا عَمَّاهُ مالى أَرَاكَ مَهْمُومًا ؟ فبكى أبو طالب وقال : يا ابن أخى ، اعلم أنه لا مال لنا ولا ثروة ولا خيل ولا ركاب ، وقد أثر علينا الزمان وكبر سنى وضعفت قوّتى وقلّ ما بيدى ، وأريد يا ابن أخى قبل أن أنزل رمسى أن أرى لك زوجة تسكن إليها ، ومعيشة تعوّد نفسك عليها ؛ قال له : وَمَا عِنْدَكَ مِنَ الرأى وَطَرِيقِ المَعاشِ يا عَمّ ؟ قال : اعلم



يا ابن أخي أن هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها كثير من الناس ، وهي تعطي مالها لسائر التجار يسافرون لها في الأمصار ، فهل لك أن تمضي معنا إليها نسألها أن تعطيك مالا تتصرّف فيه بالتجارة ؟ فقال له : يا عَمّ افعَلْ ما بَدَا لكَ فإنّي لأمرِكَ مُطيعٌ مُجيبٌ .

إنَّ اللهَ وَمَلائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبيِّ ،

يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّموا تَسْليماً .

قال البكري رضي الله عنه : ثم إن أبا طالب جمع إخوته وأعمامه ولبسوا أفخر ثيابهم ، وتطيّبوا بالمسك ، وتطيّب النبي صلى الله عليه وسلم وتعمّم وأقبل مع أعمامه إلى أن ساروا بأجمعهم إلى بيت خديجة بنت خويلد ، فلما أقبلوا إليها ، فإذا لها دار عالية البنيان مليحة الجدران منقوشة الأبواب ، تسع أهل مكة كلهم ، ولها قبّة فوق السطح من الحرير الملوّن ، وقد رقمت فيها صورة الشمس والقمر والنجوم والجبال والبر والبحر والحوت والوحوش والسباع والهوامّ والطيور ، وكانت خديجة قد تزوّجت برجلين من أعظم الشرفاء وأغنى أهل مكة ، أحدهما عمر الكندي ، والآخر عتيق بن عائذ وكان صاحب أموال عظيمة . فلما مات خطبها عقبة بن أبي معيط والصّلت بن نبهان المخزومي وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان بن حرب ، فأبت عن الزواج ولم ترغب في أحد منهم ، وكان يتولّع قلبها في محبّة محمد صلى الله عليه وسلم لما سمعت من شرفه ودلالته وبراهينه وأنه نبي كريم ، فبعثت وراء عمها ورقة وقالت : يا عم أريد أن أتزوّج وقد كثر عليّ الخطّاب وقلبي يأبى عنهم ولا أقبل منهم أحدا . فقال لها عمها ورقة : يا بنت أخي أعلمك بأمر عجيب . فقالت له وما هو يا عم ؟ فقال ورقة : إن عندي كتابا من عهد المسيح ، أعزّم على ماء وتأخذين ذلك الماء وتغسلين به وجهك ، ثم أكتب لك كلمات من الإنجيل وتضعينهم تحت رأسك عند المنام ، فإذا نمت فإن الذي يكون زوجك هو يأتيك في المنام حتى تعرفينه . فقالت له خديجة : يا عم افعل ما بدا لك ، ثم عزّم على ماء وكتب لها أسماء وفعلت ما أمرها به ونامت خديجة على فراشها ، فما مضى من الليل إلا قليل ورأت كأن قد جاء إليها رجل لا بالطويل



الشاهق ولا بالقصير اللاصق ، أدعج العينين ، أزج الحاجبين ، أحور المقلتين ، عقيق الشفتين ، مورّد الخدين ، أزهر اللون ، معتدل القامة ، مدوّر الهامة ، تظلله غمامة ، بين كتفيه علامة ، راكب على فرس من نور ، وعلى ظهر مسرج من العقيق ، مرصّع بالدر والجوهر ، وله وجه كوجه الآدمى ، خطوته مد البصر ، وهو يرفل بالركاب ، وكان خروجه من دار أبى طالب قاصدا دار خديجة ، فلما رأته ضمّنته إلى صدرها وقبّلته وأجلسته فى حجرها ، ولم تنم باقى ليلتها حتى أقبلت إلى عمها ورقة وقالت له : أنعمت مساء وصباحا ، فقال لها : وأنت أنعمت فلاحا ولقيت نجاحا ، فما رأيت فى المنام ، لعلك رأيت شيئا يسرّ قلبك ؟ قالت خديجة : نعم نعم ، رأيت رجلا صفته كذا وكذا ، فقال لها ورقة : يا خديجة تسعدين وترشدين به ، فان الذى رأيتيه فى المنام هو نبى الأمة ، وكاشف الغمّة ، وسراج الظلمة ، المبعوث من تهامة والمتوّج بالفخر والكرامة ، الشفيع فى العصاة يوم القيامة ، سيد العرب والعجم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، قالت خديجة : وكيف السبيل إلى ما تقول ، فانى قد صرت إليه مشتاقة ؟ وهى تقول :

أسير إليكم قاصدا لأزوركم ... وقد قصرت دون ذاك رواحلى

وملك الأمانى خديجة غير أننى ... أعلّل جدّ الحادثات بباطلى

قال : وزاد بها الوجد والغرام ، وكانت إذا ذكرته فاضت عبراتها وجرت دمعاتها وهى تقول :

كم أستر الوجد والأجفان تهتكه ... وأطلق الحب والأعضاء تمسكه

جافانى القلب لمّا أن تملّكه ... غيرى فوا أسفى لو كنت أملكه

ما ضرّ من لم يدع منى سوى رمقى ... لو كان يسمح بالباقى ويتركه

قال الراوى : ثم إن خديجة ما فرغت من شعرها إلا وقد طرق الباب طارق فقالت لجاريتها انظرى من بالباب ؟ لعل خبرا من الأحباب يكون لنا فيه خير يطيب منه الفؤاد ، ثم قالت :

أيا ريح الجنوب لعل علما ... من الأحباب يطفى بعض حرّى

وهلا حمّلوك إلى تحية ... أسرّ بها طول عمرى

وحق ودادكم إنى كتوم ... وإنى لا أبوح هم بسرى

أراني الله وصلهم قريبا فكم يُسْر أتى من بعد عُسْر
فيوم من فراقكم كشهر وشهر من فراقكم كدهر

قال الراوى : فنزلت الجارية وفتحت الباب ، وإذا بأولاد عبد المطلب كلهم وقوف على الباب ، ففرحت الجارية واستبشرت ورجعت إلى مولاتها وقالت : يا سيدتى إن على الباب أولاد عبد المطلب ، فرمقتهم خديجة ونزل بها دهش من الجوارى ، وقالت : ويلك افتحى لهم الباب وأدخليهم وأخبرى ميسرة أن يحلى لهم المسائد والوسائد ، فانى أرجو أن يأتونى بخبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قالت :

ألذ حياتى وصلكم ولقاكم وليس يلذ العيش قبل لقاكم
وما استحسنت عينى من الناس غيركم ولا حل فى قلبى حبيب سواكم
على الرأس والعين جملة سعيكم ومن ذا الذى فيما أردتم عطاكم
فما غيركم فى الحب يسكن مهجتى وإن شئتمو تفتيش قلبى فهاكم

قال : فدخل أولاد عبد المطلب وقد فرش لهم الفراش ، فلما استقر بهم الجلوس قدّموا لهم الأطعمة والأشربة والفواكه الطيّبة من الطّائف وفواكه الشام ، وأخذوا فى مذاكرة الحديث فقالت لهم خديجة من وراء الحجاب بصوت عال وكلام عذب رطب : مرحبا بكم يا سادات مكة ، أضاءت بكم الأنوار وأشرقت بكم الأقطار ، هل من حاجة تقضى أو ملمّة فتمضى ، فان حوائجكم عندى مقضية وقناديلكم عندى مضية ؟ . قال أبو طالب : ياخديجة إنا قد جئناك فى حاجة يعود نفعها إليك وبركتها ترجع عليك ، قالت : وما ذلك يا سيدى ؟ قال : جئناك فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . فلما سمعت خديجة كلام أبى طالب غابت عن رشدها ، وأيقنت بتحصيل المقصود ، فأنشأت تقول :

فذكركم يطفى الفؤاد من الوقد ورؤيتكم فيها شفاء للأعين الرمد
ومن قال إنى أشتفى من هواكم كذب من قال لما قد ألاقى من الوجد
مالى غير سرور بقربكم وقد كنت مشتاقة إليكم من البعد
تشابه سرّى فى هواكم وظاهرى فأبدى بالذى أخفى وأخفى بالذى أبدى

ثم قالت خديجة : أين محمد قرّة عينى حتى نحدثه فيما يريد ونسمع مايقول ؟



فقام العباس رضى الله عنه وقال : أنا آتيكم به ، فنهض وسار يطلبه من الأبطح فلم يجده ، فتوجه فى أثره فوجده فى جبل حراء نائما فى مرقد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ملتحفا ببردته المباركة ، وعند رأسه ثعبان عظيم ، وفى فمه طاقة من الريحان يروح بها عليه . فلما رأى الثعبان خاف عليه ، فجذب العباس سيفه وأراد قتل الثعبان بالسيف ، فلما حمل على الثعبان حمل الثعبان عليه ، فرأى العباس على نفسه الغلبة ، فصاح يا ابن أخى أدركنى أدركنى ، فانتبه النبى صلى الله عليه وسلم وفتح عينيه ، فرأى عمه العباس واقفا وسيفه مشهور بيده ، فمضى ذلك الثعبان كأنه لم يكن ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما الَّذِي دَهَشَكَ يا عَمَّاهُ وأَرْعَبَ قَلْبَكَ ، ولأَيِّ شَيْءٍ جَذَبْتَ سَيْفَكَ ؟ فقال : يا ابن أخى إنى رأيت ثعبانا عظيما عند رأسك ، فخفت عليك ، فسالت سيفى ودنوت منه فحمل على قتلى ، فصحت بأعلى صوتى إليك أدركنى ، فلما فتحت عينيك وجلست مضى ذلك الثعبان كأنه لم يكن أبدا ، فقال : يا عَمِّ هَذَا الَّذِي رَأَيْتَهُ مَلَكٌ مِنْ مَلائِكَةِ ربى ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ عِنْدَ نَوْمِي مِرَارًا كَثِيرَةً وَخَاطَبَنِي وَخَاطَبْتُهُ وَقَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ وَكَلَّفَنِي بِحِرَاسَتِكَ مِنَ الأَعْدَاءِ ، فقال العباس : ما ينكر أحد فضلك يا محمد ، وإن لك ههنا مقاما عاليا ، فقال : وأَيْنَ يَكُونُ يا عَمِّ هَذَا المَقَامُ العَالِي ؟ قال : عند خديجة بنت خويلد ، تكون أمينا على مالها تسير به حيث شئت ، قال محمد صلى الله عليه وسلم : أُرِيدُ الشَّامَ ، قال : لك ذلك ، فسار النبى صلى الله عليه وسلم والعباس إلى بيت خديجة ، وكان عادته إذا أراد زيارة قوم من أهل مكة يسبقه نوره إليهم ، فسبقه النور إلى بيت خديجة ، فنادت عبدها ميسرة وقالت له : كيف غفلت عن الخيمة حتى عبرت على أصحابك الشمس فى المجلس ؟ فقال ميسرة : والله يا مولاتى ما غفلت عن الخيمة ، فما كان قليل إلا والعباس قد أقبل ومعه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ميسرة : يا مولاتى هذا الذى رأيتيه تقولين شمسا هو نور محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فلما دخلوا المنزل نهض أعمامه إجلالا له وأجلسوه فى أوساطهم ، فلما



استقرَّ بهم الجلوس قدمت إليهم الزَّاد وما يوجب الإعزاز والكرم ، ثم قالت خديجة من وراء الستر بكلام عذب رطب : أنست بكم الديار وأضاءت الأقطار وأشرقت من طلعتكم الأنوار ، ثم قالت : يا محمد ، قال : نَعَمْ ، قالت : أترضى يا سيِّدى وحبيبى أن تكون أمينا على أموالى تسير بها حيث شئت وأردت من البلدان والأمصار ؟ قال : رَضِيتُ وأنا أُرِيدُ الشَّامَ ، قالت : لك ذلك ، وإنى جعلت لمن يسير على أموالى مائة أوقية من الذهب الأحمر ، ومائة أوقية من الفضة البيضاء وجملين وراحلة ، فهل أنت راض بذلك ؟ قال أبو طالب : رضى محمد صلى الله عليه وسلم بذلك ، ورضينا نحن بذلك ، وأنت يا خديجة محتاجة إليه ، لأنه من خيار الناس ما وقف العرب له على صبوة وإنه مكين أمين ، فقالت خديجة : يا سيدى محمد تقدر تشد الثقل على الجمل وترفعه عليه ؟ قال : نَعَمْ ، فقالت : يا ميسرة سر إلى مرابط الإبل ، وائتنى بالجمل العمانى الأملح ، لأنظر إلى محمد صلى الله عليه وسلم كيف يشد على الجمل ، فخرج عبدها ميسرة وأتى ببعير صعب الرأس قوىّ البأس ، فأدناه ميسرة لينيخه ، فهدر وزمجر وشقشق واحمرَّت عيناه . قال العباس : ما كان عندك أهون من هذا الجمل الصعب ؟ وإنما أردت أن تمتحن به محمدا صلى الله عليه وسلم ، فعندها قال النبى صلى الله عليه وسلم : دَعْهُ ياعَمِّ يَقْرُبْ مِنِّى ، فلما قرب البعير من البدر المنير برك على الأرض وجعل يقبِّل قدمى النبى صلى الله عليه وسلم وهمهم ونطق بكلام فصيح وقال : من مثلى وقد مسّ ظهرى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال نسوة كن عند خديجة من نساء قومها : ما هذا إلا سحر مبين قد أحكمه هذا اليتيم ، فقالت خديجة : والله ما هو سحر وإنما هى آيات بيِّنات وكرامات ظاهرات ؛ ثم إن خديجة أنشأت تقول :

نطق البعير بفضل أحمد مخبرا ... هذا الذى بشرفه نطقت أم القرى
هذا محمد خير مبعوث أتى ... فهو الشفيع وخير من وطئ الثرى
يا حاسديه تمزَّقوا من غيظكم ... فهو الحبيب ولا سواه فى الورى

قال الراوى : فخرج أولاد عبد المطلب فالتفتت خديجة وقالت للنبى صلى

الله عليه وسلم : يا سيدى البس غير هذه الثياب ، فقال : كَيْفَ أُغَيِّرُها وَمالى سِوَاها ؟ قال : فقالت خديجة : عندى ما يصلح للسفر غير أنهن طوال فأمهلنى حتى أقصرها ، فقال صلى الله عليه وسلم : هَلُمِّى بهم ، وكان إذا لبس القصير يطول ، وإذا لبس الطويل يقصر كأنه مفصَّل له . قال : فأخرجت له ثوبين من قباطى مصر وجبة عدنية وبردة يمانية وعمامة عراقية لها حاشيتان من حرير وخفين من أدم وقضيب من الخيزران ؛ فلبس النبى صلى الله عليه وسلم تلك الثياب وخرج كأنه البدر المنير أو كالقمر المستنير فى تمامه وكماله إذا تجلى . فلما نظرت إليه خديجة أنشأت تقول :

أتيت من شرف الجمال فنونا ولقد قتلت بها القلوب فتونا
أكمنت للحسن فيه جواهرا فبها دعيت الجوهر المكنونا
أنظر إلى جسمى النحيل وكيف قد أجريت من دمع العيون عيونا
يا من أعار الظبى فى فلواته بالحسن جيدا ساميا وجفونا
أسهرت عينى فى هواك صبابة وملأت قلبى لوعة وجنونا

قال البكرى رضى الله عنه : ثم قالت خديجة : يا سيدى عندى ما تركب عليه ، قال : إذَا تَعِبتُ أىُّ بَعِيرٍ لَحِقْتُهُ رَكِبْتُهُ ؛ قالت خديجة : يا سيدى وما هذا الأمر الذى يحملنى على تعبك ، فلا كانت أموالى ولا كانت الجمال دونك يا محمد . ثم قالت لعبدها ميسرة : ائتنى بالناقة الصهباء حتى يركبها محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فغاب ميسرة ساعة وأقبل ومعه ناقة تفوق على وصف الواصفين ، تسرق السمع ، وتسبق البرق إذا لمع والسحاب اذا همع ، هيفاء ضامرة مستأنسة ، تستبشر بالفلا وتقنع بالقليل من الأكل ، لايلحقها فى سيرها تعب ولا نصب ، كأنها خيمة مضروبة أو قرية منصوبة ، مليحة الرأس والقوائم ، وهى كما قال فى وصفها الشاعر حيث يقول :

تطوى الفيافى والقفار بسيرها طورا وتنفخ فى الورى أشداقها
البرق يحسدها لشدة سيرها والريح لا تطيق لحاقها

قال الراوى : ثم التفتت خديجة إلى عبديها ميسرة وناصح ، وقالت لهما : اعلما أنى قد أرسلتكما مع محمد صلى الله عليه وسلم على جميع أموالى ورجالى ، لأنه الأمين فى قريش كلها وسيدها ، وليس على يده يد ، ولا على باعه باع ،

فلا مانع يمنعه وأن عطاءه جائز ، وليكن كلامه كماله ، وكونا معه بلطف وأدب ، ولا يعلو كلامكما على كلامه . قال ميسرة : والله يا سيدتي إن محمداً صلى الله عليه وسلم له عندي محبة عظيمة ، والآن محبته قد تضاعفت لمحبتك له . ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم ودّع خديجة وركب على ناقته وخرج هو وميسرة وناصح ، فعندها قالت خديجة :

قلب المحب مع الأحباب مجذوب   وجسمه بيد الأسقام منهوب
وقائل كيف طعم الحب قلت له :   الحب عذب ولكن فيه تعذيب
أفدى الذى ترانى لبعدهم   دمى ودمعى مسفوح ومسكوب
ما فى الخيام وقد سارت جمالهم   إلى محبّ له فى الركب محبوب
كأنه يوسف فى كل راحلة   والحى فى كلّ بيت منه يعقوب

قال : ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم سار مجدّاً فى السير إلى الأبطح . فوجد القوم كلهم مجتمعين ولقدومه منتظرين ، فلما نظر القوم إلى جمال سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ، وقد فرح المحبون واغتم الحاسدون ، وازدادت عقيدة من سبقت له السعادة وكتب من المؤمنين ، وأظهر الحسد والكمد لمن سبقت له الشقاوة من المكذبين ، فلما نظر العباس إليه أنشأ يقول :

يا مخجل الشمس والبدر المنير إذا   تبسّم الثغر لمع البرق منه وأضا
كم رأينا معجزات منك قد ظهرت   يا سيدا ذكره يشفى به المرضى

قال الراوى : فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أموال خديجة على الأرض ولم يحمل منها شيء ، فزعق على العبيد وقال : ما الذى أخّركم عن شد رحالكم ؟ قالوا : يا سيدنا لقلّة عددنا وكثرة أموالنا ، قال : فبرك راحلته صلى الله عليه وسلم ونزل ، ولوى أذياله فى دور منطقته ، وصار يزعق بالبعير فيقوم باذن الله تعالى ، فتعجّب الناس من فعله ، فنظر العباس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد احمرّت عيناه وتقطّر العرق من وجناته ، وتكلّل جبينه كاللؤلؤ المنظوم ، فقال العباس : كيف أخلى الشمس تقرع هذا الوجه الكريم وعمد إلى خشبة وقال : لأتخذنّ منها حجفة تظلل على محمد صلى الله عليه وسلم عن حر الشمس ، فارتجّت منه الأقطار وتجلّى نور الملك الجبّار ،

وأمر الله تعالى جبرائيل عليه السلام أن يهبط إلى رضوان خازن الجنان ويقول له يخرج تلك الغمامة التي خلقها الله تعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم من قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألف عام ، فانشرها على رأس حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم . فلما رأوها شخصت نحوها الأبصار ، وقال العباس : والله إن محمدا صلى الله عليه وسلم كريم عظيم عند ربه ، ولقد استغنى عن حجفتي ، ثم إنه أنشأ يقول :

فلأخفين على الهوى سرى وإن أباح الغرام بما أكن وأظهر
هيهات مالى عنك صبر ولا لى مقدم عنكم ولا متأخر
أنت المظلل بالغمام من السما عن وهج حر الشمس كيلا تسعر
صلى عليك الله ما هب الصبا وشذى نسيم نبت روض يزهر

قال الراوى : ثم سار القوم حتى نزلوا بجحفة الوداع ، وحطوا رحالهم حتى يلحق بهم المتأخرون . قال مطعم بن عدى : يا قوم إنكم تنظرون إلى الأرض كثيرة المهامه والأوعار ، وليس لكم أمير ولا مقدم تسيرون أموركم إليه ، وترجعون أحوالكم عليه ، ويصير رأى أموركم كلها من تحت يديه ، ويكون هو المقدم عليكم ، والرأى عندى أنكم تقدمون رجلا علينا ترجع أمور القافلة وحكمها لديه ، ولا يكون أخذ الأمر بالمنازع والمخالف ، قالوا : نعم الرأى رأيك . قال بنو مخزوم : نحن نقدم علينا عمرو بن هشام ؛ وقال بنو عدى نحن نقدم علينا أميرنا المنذر بن الحارث ؛ وقال بنو زهرة : نحن نقدم علينا ميسرة بن الحجاج ؛ وقال بنو لؤى : نحن نقدم علينا أبا سفيان بن حرب ؛ وقال ميسرة مملوك خديجة : والله نحن ما نقدم علينا أحدا سوى أميرنا وسيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال بنو هاشم : نحن كذلك نقدم علينا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم .

قال الراوى : فلما سمع ذلك أبو جهل لعنه الله تعالى قال : والله لئن قدمتم علينا محمدا صلى الله عليه وسلم أميرا لأضعن هذا السيف فى عنقى ، أو لأضربن بهذا الخنجر بطنى . قال : فسمع كلامه الحمزة فحنق عليه وكادت تنقطع أزرار قميصه غيظا ، وقبض على قائم سيفه وسلّه من غمده وقال : يا وغد الرجال ويا نذل الأفعال ، والله العظيم أقسم ما كنت أريد إلا أن يقطع الله



يدك وأعكف رجليك وأعمي عينيك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عَمَّاه اغْمِدْ سَيْفَكَ ، ولا تَسْتَفْتِحُوا السَّفَرَ بالشَّرِّ ، دَعُوهُمْ يَسِيرُونَ أَوَّلَ النَّهارِ وَنَسِيرُ آخرَ النَّهارِ . وكان أبو جهل لعنه الله قال لأصحابه : اغتنموا الوصيَّة ، وأنشأ يقول :

لقد ضلَّت حلوم بنى قصىّ   وقد زعموا السيد اليتيم
وراموا للرياسة غير كفء   وكيف يكون ذا الأمر العظيم
وإنى فيهم ليث حمىّ   بمصقول ذو حدّ خديم
فلو رضى العبيد أنا المقدم   حيث أنا للحروب ذو الشر القديم
ونضرب دونهم بمجردات   وقت الحرب وبالرمح القويم

قال الراوى : فلما سمع العباس كلام أبي جهل لعنه الله اشتد عليه غيظا وحنقا ، وأجابه على شعره بقوله :

ألا أيها الوغد الذى رام ثلبنا   أتثلب فرعا للرجال كريما
أتثلب ويلك الكريم أخا التقى   حبيبا لرب العالمين عظيما
ولولا رجال قد عرفنا محلهم   وكلا تراهم محتدا وزعيما
لدارت سيوف يفلق الهام حدها   بأيدى رجال ضاربين سليما
حماة كماة كالأسود ضراغم   إذا برزوا صار الفضاء جحيما

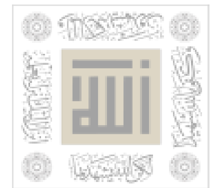
قال الراوى : ثم إن القوم ساروا من وقتهم إلى حيث بعدوا عن مكة ونزلوا بواد يقال له وادى الأمواه ، وسمى بذلك لأنه تجتمع فيه السيول وأنهار الشام ، ومنه تنبع عيون الحجاز ، فنزل به القوم وحطوا رحالهم حتى يستريحون فى ذلك الموضع . قال : فبينما هم كذلك ، وإذا بالسحاب قد أقبل عليهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما أَخْوَفَنِي عَلَى أَهْلِ هَذَا الوَادِى بأن يُذْهِبَهُمُ السَّيْلُ فَيُذْهِبَ جميعَ أَمْوَالِهِمْ ، والرأىُ عِنْدِى أن تَدْنُوا إلى رأسِ الجَبَلِ ؛ فقال العباس : نِعْمَ الرأى ما أشرت به علينا ، فانه شور مبارك . قال : فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى فى القافلة كلها : أيها الناس انقلوا رحالكم وأموالكم إلى ظهر هذا الجبل مخافة من السيل ، فأطاعه الناس إلا رجلا من بنى جمح يقال له مصعب ، وكان له مال عظيم ، فأبى أن يتغير من مكانه ، فقال يا قوم : ويلكم ما أفزعكم وأهلع قلوبكم ، تنهزمون من شيء لم يكن ترونه بأبصاركم ؟



قال الراوى : فما استتم مصعب كلامه وجلس مكانه ، إلا وقد ترادفت عليه السحاب بأمر الملك الوهاب ، وكفكف المطر ولمع البرق وزجر الرعد وترادفت السيول بالمياه من كل جهة ومكان ، وامتلأ ذلك الوادى كله من الفجّ إلى الفج ، وأصبح الرجل الجمحى كأنه لم يكن هو وأمواله وجماله وعبيده . قال : وأقام القوم فى ذلك الوادى أربعة أيام والسيل يزداد عليهم ، فقال ميسرة مملوك خديجة : يا سيدى إن هذا السيل لاينقطع إلا فى شهر كامل ، ولا تقطعه إلا السفن ، وإن أقمنا مكاننا هذا أضرّ بنا المقام ويفرغ ما عندنا من الزاد ، والرأى عندى أن نرجع إلى مكة شرفها الله تعالى ، فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم كلام ميسرة صمت عن الكلام . ثم نام فرأى فى منامه ملكا يقول : يا محمد لاتخف ولا تحزن إذا كان فى غداة غد فأمر قومك بالرحيل وقف أنت على شفير الوادى ، فاذا رأيت الطير الأبيض قد خط بجناحه خطا فى ذلك الماء فاتبع ذلك الخط بأصحابك وأنت تقول : بسم الله وبالله ، وأمر قومك يقولون تلك الكلمات ، فمن قالها نجا من الغرق وسلم ، ومن لم يقلها غرق مع المغرقين .

قال الراوى : فاستيقظ النبى صلى الله عليه وسلم وهو مسرور الخاطر والقلب لأجل الرؤيا ، فأمر ميسرة أن ينادى فى الناس بالرحيل فرحلوا وشد ميسرة رحاله ، فقال الناس : يا ميسرة كيف نسير وهذا الماء العظيم يجرى كالبحر الزاخر ولا تقطعه إلا السفن . قال ميسرة : أنا أمرنى محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا أمرنى فلا أقدر أن أخالفه .

قال الراوى : فبادر القوم للمسير طوعا لأمره . قال : فتقدم النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه ووقف على شفير الوادى ، وإذا بالطير الأبيض قد أقبل إلى شفير الوادى ، وخط بجناحه على ذلك السيل خطا أبيض يلمع منه النور . قال : فشمّر النبى صلى الله عليه وسلم عن أذياله واقتحم ذلك الماء وهو يقول بِسْمِ الله وبالله ، فلم يصل الماء إلى نصف ساقيه ، ونادى صلى الله عليه وسلم : أَيُّهَا النَّاس لايَدْخُلْ أحَدٌ مِنْكُمْ إلى المَاء حَتَّى يَقُولَ وَيَتَكَلَّمَ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ ، مَنْ قَالَهَا سَلِمَ ، وَمَنْ لَمْ يَقُلْهَا غَرِقَ . قال : فاقتحم القوم الماء بأجمعهم وهم يقولون : بسم الله وبالله ، ولم يتأخر أحد من القوم

سوى رجلين : أحدهما من بنى عدىّ ، والثانى من بنى جمح ، فقال العدوى : بسم الله وبالله ، وقال الجمحى : بسم اللات والعُزّى ، فغرق الجمحى وأمواله ، فقيل للعدوى : ما بال صاحبك غرق ؟ قال : اعوجّ لسانه وخالف محمدا صلى الله عليه وسلم فغرق ، فاغتمّ أبو جهل لعنه الله غما شديدا وقال : ما هذا إلا سحر مبين قد أحكمه هذا اليتيم ، فقال بعض أصحابه : يا ابن هشام والله ما هذا سحر ، ما أظلّت الغبراء ولا أقلّت الخضراء أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله بن عبد المطلب ، فلم يردّ عليهم أبو جهل جوابا ، وساروا حتى نزلوا على بئر وكانت تنزل عليه قبائل العرب فى طريق الشام ، فحطوا رحالهم وسقوا دوابهم وأخذوا راحتهم . فقال لهم أبو جهل لعنه الله : إنى أجد فى نفسى غبينة عظيمة ، إن ردّ محمد صلى الله عليه وسلم من سفره لأقتلنّه ، وكيف لى بالحيلة على قتله وهو ينظر من ورائه كما ينظر أمامه ؟ ولكن أفعل . ثم عمد إلى الرمل والحصى وملأ حجره وسكبه فى البئر ، فقال أصحابه : لم تفعل هكذا ؟ قال : أريد أن أدفن هذا البئر ، فاذا ركب محمد وأولاد بنى هاشم وقد أجهدهم الجوع والعطش فيموتون عن آخرهم . قال : فلما سمع القوم كلام أبى جهل لعنه الله قاموا وردموا البئر بالرمل والحصى ، ولم يتركوا له أثرا . فلما رأى أبو جهل ذلك قال : الآن قد اشتفى قلبى وبلغت مرادى من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ثم التفت أبو جهل لعنه الله إلى عبد له وكان اسمه فلاحا ، فقال له : خذ هذه الراحلة وهذه القربة والزاد واختف فى كهف الجبل ، فاذا جاء ركب بنى هاشم وقد أجهدهم الجوع والعطش وهجير الحر يقدمهم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجدوا للبئر أثرا فيموتوا جميعا ، فتأتينى وتبشرنى بذلك فأعتقك وأزوّجك بمن تريد ، فقال العبد : حبا وكرامة . قال : ثم سار أبو جهل لعنه الله فى أوّل ركبه ، وتأخّر العبد كما أمره مولاه أبو جهل لعنه الله . قال : فأقبل ركب بنى هاشم يقدمهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد أجهدهم الجوع والعطش ، فبادروا إلى ذلك البئر فلم يجدوا له أثرا وقد ازورّت منهم الحدق ، وجرى منهم العرق ، وكثر فيهم القلق ، وأيقنوا بالهلاك ، فشكوا ذلك إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : هَهُنَا مَوْضِعٌ يُعْرَفُ فيه الماءُ ؟ قالوا : نعم هنا بئر كانت تشرب منه

القوافل واليوم قد ردم بالرمل والحصى ، فمشى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا عَظِيمَ الأسماءِ ويا داحِيَ الأرْضِ وَرَافِعَ السَّماءِ قَدْ أَضَرَّ بِنا العَطَشُ والظَّمأُ . وإذا بالحصى قد تصلصل وعين الماء قد نبعت وتفجرت وجرى الماء منه تحت أقدام النبي صلى الله عليه وسلم . فاستقى القوم وسقوا دوابهم وملئوا قربهم وأخذوا رواحلهم وساروا ، وسار العبد إلى مولاه أبو جهل فقال له : ما وراءك يا فلاح ؟ فقال فلاح : والله لا أفلح من عادى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثهم بما رأى من محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فامتلأ أبو جهل لعنه الله غيظا وحنقا وحسدا وكمدا ، ثم قال لعبده : امض عني لاأفلحت بشارتك لي . قال مؤلف الكتاب :

السلام عليك يا نور العباد   السلام عليك يا نور البلاد
السلام عليك يا كنز الرشاد   السلام عليك يا كنز المعاد
السلام عليك يا ذخر السناد   السلام عليك يا هادى الرشاد
السلام عليك يا أتقى العباد   السلام عليك يا ماحى الفساد

قال الراوى : ثم إن أبا جهل لعنه الله سار بأصحابه قدام القافلة وفي قلبه لهيب النار من الغم والهم من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يجد السير حتى دخل واد من أودية الشام يقال له ديبات ، وكان كثير الأفاعي والحيات والأشجار . فبينما هو كذلك وإذ قد صرخ عليه من الشجر ثعبان عظيم الخلقة كأنه النخلة السحوق . فلما رأى أبا جهل لعنه الله انقض عليه كالنجم الهاوى من السماء وفتح فاه وتزحزح وخرج من عينيه الشرر ، فجفلت منه ناقة أبي جهل لعنه الله ، ولعبت بيديها ورجليها ، ورمت أبا جهل على أم رأسه فكسرت أضلاعه وغشي عليه . فلما أفاق من غشيته قال لعبيده : تأخروا عن قارعة الطريق ، فإذا جاء ركب بني هاشم يقدمهم محمد صلى الله عليه وسلم فأقدموه علينا . فاذا رأت ناقته الثعبان فعسى أن ترميه من على ظهرها إلى الأرض وتفعل به مثل ما فعلت بي ، وأظنه ما يعيش بعدها أبدا .

قال الراوى : ففعل العبيد ما أمرهم به سيدهم أبو جهل لعنه الله . قال : فلما رأوهم قد أقبلوا يقدمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، نظروا إلى أبي جهل وقد تنحى عن الطريق وأصحابه حوله . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :



يا ابن هشام أراكم قد نزلتم فى موضع ليس يصلح للنزول ، وما هذا وقت نزولكم ؛ فقال : والله يا محمد إنى استحييت أن أتقدم عليكم ، وإنى تقدمت عليكم بجهلى ، وأنت سيد الصفا وزمزم والبطحاء ، وأنت أعلى حسبا ونسبا ، تقدم علينا أمام القافلة فامن من يبغضك ، ففرح العباس بذلك وأراد أن يتقدم فى المسير ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ارْفُقْ بِنَفْسِكَ يا عَمِّ ، فَمَا قَدَّمُونا لِسَلامَةٍ بَلْ لِسُوءٍ وَمَكْرٍ مِنْهُم لَنا ، فَمَا هِيَ إلاّ حِيلَةٌ وَمَكِيدَةٌ ، فَقِفْ يا عَمِّ أنا أتَقَدَّمُ أمامَ القافِلَةِ . قال : ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم تقدم أمامهم ودخل فى ذلك الشعب ، وإذا بالثعبان قد ظهر كأول مرّة ، فجفلت منه ناقة النبي صلى الله عليه وسلم وكادت أن ترميه من على ظهرها ، فزعق بها النبي صلى الله عليه وسلم زعقة عظيمة وقال لها : وَيْحَكِ كَيْفَ تَخافينَ وَعَلى ظَهْرِكِ سَيِّدُ المُرْسَلِينَ وَخاتَمُ النَّبِيِّينَ وَشَفِيعُ المُذْنِبِينَ ؟ والتفت إلى ذلك الثعبان وقال له : وَيْلَكَ ، ارْجِعْ مِنْ حَيْثُ جِئْتَ وَمِنْ أيِّ مَكانٍ أتَيْتَ ، ولا تَتَعَرَّضْ لأحَدٍ مِنَ الرَّكْبِ ، فَإنِّي مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإلاَّ أشْكُوكَ إلى إلهِ السَّماءِ والأرْضِ . قال : فلما سمع الثعبان كلام النبي صلى الله عليه وسلم أنطقه الله تعالى وقال بلسان فصيح : السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا محمد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى وَخَشِيَ عَوَاقِبَ الرَّدَى ، وأطاعَ المَلِكَ الأعْلَى وآثَرَ الآخِرَةَ عَلى الدُّنْيا . فلما سمع الثعبان كلام سيد بنى عدنان أهبط رأسه إلى الأرض ، وسجد طاعة لله وللنبي صلى الله عليه وسلم صاحب البرهان ، فهو محمد سيد الأنام ومصباح الظلام ، وقال له : يا محمد اعلم بأنى ما أنا ثعبان ، وإنما أنا ملك من ملوك الجان ، واسمى الهام بن الهيم ، آمنت على يد أبيك إبراهيم الخليل عليه السلام وسألته الشفاعة ، فقال : هى لولد من نسلى يقال له محمد صلى الله عليه وسلم ، ووعدنى بك إبراهيم عليه السلام أن أجتمع بك فى هذا المكان ، وقد طال بى الانتظار ، ولقد شاهدت عيسى المسيح بن مريم عليه السلام ليلة عرج به إلى السماء ، وهو يوصى الحواريين باتباعك والدخول

فى ملتك ، والآن قد جمع الله شملى بك فلا تنسنى يا سيدى من الشفاعة ، فأنت أفضل الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين ؛ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لكَ ذلكَ مِنِّى فَعُدْ مِنْ حَيْثُ أتَيْتَ وإيَّاكَ أنْ تَتَعَرَّضَ لأحَدٍ مِنَ الرَّكْبِ ، فلما سمع الثعبان كلام النبى صلى الله عليه وسلم غاب فى الأرض ولم يكن له أثر . قال : فلما نظر القوم كلام الثعبان تعجّبوا غاية العجب وازدادوا يقينا وإيمانا ، وفرح أعمام النبى صلى الله عليه وسلم ، وازداد الحسود حسدا وكمدا وحزنا طويلا . ثم إن العباس أنشأ يقول :

يا قاصدا نحو الحطيم وزمزم ... بلغ فضائل أحمد المتكرم
واشرح لهم ما عاينت عيناك من ... فضل أحمد فى السحاب الأدكم
قد بانت الآيات فى السيل الذى ... ملأ الفجاج فى وجهك المتلاطم
فنجا الذى لم يخذ قول محمد ... وهوى مخالفه بقعر جهنم
والبئر لما أن نظرنا دفنه ... فدعا الحبيب إلى الإله المنعم
فاضت عيونا ثم سالت أنهرا ... وغدا الحسود بحسرة وتغمم
والهام بن الهيم لما أن رأى ... خير البرية جاء كالمسلم
ناداه أحمد واستجار ملبيا ... يرجو الشفاعة خوف نار جهنم
ما يقايس أحمد فى الفضل من ... كل البرية من عرب وأعجم
من زمن إبراهيم ظلّ مكانه ... سأل الشفاعة من النبى الأكرم
وبه توسّل بالخطيئة آدم ... فليعلم الأخبار من لا يعلم

قال الراوى : فلما فرغ العباس من شعره أجابه الزبير بن العوّام رضى الله عنه ينشد ويقول :

يا ذا الرجال ذوى البصائر والنظر ... قوموا انظروا مهولا ذا خطر
هذا بيان صادق فى عصرنا ... من سيد السادات سيد البشر
آياته قد أعجزت كل الورى ... من ذا يقايس عدها ويختصر
منها الغمامة تظله مهما مشى ... فى السفر تظلله وكذلك فى الحضر
وكذلك الوادى أتى مترادفا ... بالسيل يسحب بالحجارة والشجر
فنجا الذى قد أطاع قول محمد ... وهوى المخالف مستقرا فى سقر

وأزال مس الكرب من حر الظما من بعد ما بان التقلقل والضجر
والبشر فاض بالعيون وأقبلت تجرى على وجه الثرى شبه المطر
والهام فيه عبارة ودلالة لذوى القلوب ذوى البصائر والفكر
كاد الحسود يذوب مما عاينت عيناه من فضل لأحمد قد ظهر
يا ذا الرجال انظروا أنواره تعلو على نور الشمس والقمر
الله فضّل أحمد واختاره ولقد أذلّ عدوّه ثم احتقر

قال الراوى : فأجابه حمزة على شعره يقول :

ما نالت الحسّاد منك مرادهم طلبوا نقوص الحال منك فزادا
كادوا وما خافوا عواقب كيدهم والكيد يرجع على من كادا
ما كل من طلب السعادة نالها بمكيدة أو أن يروم عنادا
يا حاسدين محمدا يا ويلكم حسدا يمزّق منكم الأكبادا
الله فضّل أحمد واختاره وليملكنّ جميع الورى وبلادا
وليملأن الأرض من إيمانه وليهدين من العوام من جادا

قال الراوى : فشكرهم النبى صلى الله عليه وسلم على كلامهم ونظامهم
قال : وساروا حتى نزلوا فى واد من الوديان ، وكان القوم يتعاهدونه لنزول
الماء فيه ومجتمع السيل فلم يجدوا فيه ماء والقوم عطاش ، فشكوا ذلك إلى
النبي صلى الله عليه وسلم ، فكشف عن ذراعيه وغمس يده المباركة فى الرمل
ورمق بطرفه إلى السماء وحرّك شفتيه ، فنبع الماء من بين أصابعه تيارا يجرى
على الأرض ، فسقوا دوابهم وشربوا وأخذوا راحة ، فقال النبي صلى الله
عليه وسلم : يا عَمّ هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِنَ التَّمْرِ . فقال له العباس :
يا ابن أختى بقى عندى قليل من التمر ، فقال : ائْتِنِي بِهِ ، فكان صلى الله عليه
وسلم يأكل التمر ويبلّ النوى من ريقه ويغرسها فى الأرض وهو يقول :
بِسْمِ اللهِ وبالله والحَمْدُ لله . فقال العباس : يا ابن أخى ما ذا تفعل
بالنوى ؟ قال : أغرسها نخلا ، فقال له : ومتى تثمر ؟ قال : يا عَمّ بَعْدَ
ساعَةٍ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى نأْكُلُ مِنْ ثَمَرِها وَنَتَزَوَّدُ مِنْها ، فضحك
العباسّ كالمتعجب ، فقال يا ابن أخى : إن النخلة إذا زرعت وأسرع ثمرها
كانت أربع سنين وإلا ففى خمس سنين وأكثر . قال : وسار القوم حتى



جاوزوا ذلك الوادى مقدار ساعة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عم ارْجِعْ إلى ذلكَ الوَادِى الَّذِى غَرَسْتُ فِيهِ النَّوَى فإنَّهُ صَارَ نَخْلاً وأثْمَرَ ، فاذْهَبْ واجْمَعْ لَنَا مِنْ ثَمَرِهِ . قال : فرجع العباس إلى ذلك الوادى ، فرأى ذلك النوى قد صار نخلا مثمرا ، فأخذ العباس من ثمره على راحلته ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم . قال : فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم من التمر وأكل القوم وتعجَّبوا من ذلك ، فقال أبو جهل لعنه الله : يا قوم لاتأكلوا مما يصنعه هذا الساحر ، فأجابوه : أقصر عن هذا الكلام ما هذا سحر فسكت .

قال : ثم سار القوم حتى وصلوا عقبة أيلة ، وكان بها دير وكان مملوءا من الرهبان ، وكان فيهم راهب كبير يقتدون برأيه ويرجعون لقوله ، يقال له الفليق بن يونان بن عبد الصليب ، وكان قد قرأ فى كتب الأنبياء ورأى صفات النبي صلى الله عليه وسلم من عهد عيسى عليه السلام ، وكان يقول لأولاده وأصحابه : متى تبشِّرونى بقدوم البشير النذير السِّراج المنير ، المبعوث من تهامة المُتوَّج بالعزِّ والكرامة ، تظلِّله الغمامة ، ويشفع فى العصاة يوم القيامة . قال : ودام ذلك الراهب فى انتظاره زمانا طويلا ، فقال له الرهبان وأولاده : يا أبانا قتلت نفسك بالبكاء والأسف على هذا الذى تذكره ، وعسى أن يكون قد قرب أوانه ، فقال : والله لقد ظهر بالبيت الحرام ، ودينه عند الله الإسلام ، فتى تبشِّرونى بنبيٍّ يأتى من أرض الحجاز تظلله الغمامة ؟ ثم أنشأ يقول :

لئن نظرت عينى جمال أحبتى ‏ ‏ ‏ وهبت بشير الوصل ماملكت يدى
وملكته روحى ومالى غيرها ‏ ‏ ‏ وهذا قليل فى محبَّة أحمد
سألت الله أن يمنَّ بقربه ‏ ‏ ‏ ويجمع شملى بالنبى محمد

قال الراوى : وما زال الراهب كلما ذكر الحبيب أكثر النحيب إلى أن حال منه النظر وزادت منه الفكر ، فعند ذلك أشرف ركب الحجاز وقد أشرقت الأنوار من جبين محمد المختار ، فنظروا الأنوار قد تلألأت ، والركب قد أقبل من الفلا والنور أشرق يتقدمهم سيد الأمم ، وقد انتشرت على رأسه الغمامة . فقالوا له : يا أبانا هذا ركب الحجاز قد أقبل ، فقال : يا أولادى كم ركب قد أتى وأنا أعلل نفسى بعسى ومتى ولعل وحتى ؟ قال له أولاده : هذا النور



علا ولمع وسنا . قال : أما رأيتم الآن الدواء قد حصل وزال عني الشقاء وذهب العناء ؟ ثم إنه رفع رأسه إلى السماء وقال : إلهي ومولاي بجاه هذا المحبوب الذي زاد به تفكري إلا ما رددت عليّ بصري ، قال : فما استتمّ دعوته حتى رد الله عليه بصره ، فقال لهم الراهب : كيف رأيتم جاه هذا الحبيب عند القريب المجيب ، وهو يقول :

بدا النور من وجه الحبيب فأشرقا   وأحيا محبا بالصّبابة موثقا
وأبرا عيونا قد عمت من البكا   وأصبح مأسور المكاره مطلقا
ها قد ترى عيناى طلعته وجهه   فأصبح من رق الضّلالة معتقا

قال الراوى : فقال الراهب : يا أولادى إن كان هذا النبي المبعوث من تهامة في الركب فانه ينزل تحت هذه الشجرة فانها تخضرّ وتثمر ، فقد جلس تحتها عدة من الأنبياء ، وإنها من عهد عيسى بن مريم عليه السلام يابسة لم تخضرّ ولم تثمر ، وهذا البئر له مدة من الزمان لم ير فيه ماء أبدا ، فانه يأتي إليه ويشرب منه . وكان النبي صلى الله عليه وسلم دائما يحب الخلوة بنفسه عن الناس ، فأقبل حتى نزل تحت الشجرة ، فلما جلس تحتها اخضرّت في الحال وأورقت وأثمرت من وقتها . قال : فلما استقرّ بهم الجلوس مشى إلى البئر ونظر فيه وتفل فيه من ريقه ، فتفجّرت منه عيون كثيرة ونبع منه الماء . فلما رأى الراهب ذلك قال : يا أولادى هذا هو الحبيب المطلوب ، فبادر الراهب من ذلك الوقت ونحر النحائر وعقر العقائر وصنع الولائم من أفخر الطعام ليتشرّف بإقدام سيّد الأنام ، ويتشرف ديره منه بوطء الأقدام ، وليأخذ منه الذمام والشفاعة لسائر الرهبان . قال : فتبادر الأولاد والخدام لأمره طائعين ولكلامه مستمعين ، فصنعوا الولائم وعملوا الطعام من كل جنس ولون يصلح للملوك الأكاسرة ، فعندها قال الراهب لكبار الرهبان : انزلوا إلى أمير هذا الركب والمقدم عليهم وقولوا له : إن أبانا يسلم عليك ويقبّل يديك ورجليك ، وقد عمل لأجلك وليمة عظيمة ، وهو يسألك بالله العظيم ، وبحق آبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تقدم عليه وتجيب قوله وتسير معنا إليه لتأكل من وليمته . قال : فنزل بعض الرهبان حتى أتى إلى القافلة ، فرأى القوم جلوسا ، فأدار فيهم الراهب عينيه ، فلم ير أحسن من أبي جهل لعنه الله .

قال البكرى رضى الله عنه : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم غائبا ذلك الوقت فلما رأى رسول الراهب أبا جهل لعنه الله أخبره بما قال الراهب ، فنادى أبو جهل لعنه الله فى القافلة فقال : اعلموا أيها العرب أن هذا الراهب قد صنع لكم طعاما ولمية لأجلى ، وأريد منكم أن تجيبوا أمره وتأكلوا من وليمته ، فقال القوم بأجمعهم : من نترك عند أموالنا ؟ فقال لهم أبو جهل لعنه الله : ما فينا أوثق من محمد صلى الله عليه وسلم إنه أمين ، فسيروا إليه واسألوه يحفظ بضاعتكم فانه الصّادق الأمين ، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى :

ومناقب شهد العداة بفضلها والفضل ما شهدت به الأعــداء

قال الراوى : فسار القوم كلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يقعد عند متاعهم ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : حُبًّا وكرَامَةً . قال : وسار القوم إلى الدير يقدمهم أبو جهل لعنه الله ، وقد أعجب بنفسه من كثرة اللباس والثياب الفاخرة . قال : فلما دخلوا إلى الدير أحضروا لهم الطعام وتلقوهم بالترحيب والإكرام . قال : فأخذ القوم فى الأكل ، وأخذ الراهب بيده اليمنى رقعة من كتاب الإنجيل وجعل ينظر فيها وهو يدور على الحاضرين على السماط رجلا بعد رجل ، فلم يجد أحدا فيه تلك الصفات المذكورة عنده . قال : فصاح الراهب ونادى : واخيبتاه وافضيحتاه ، واطول تعباه ، واعظم حزناه ، ثم إن الراهب بكى بكاء شديدا وأنشأ يقول :

يا أهل نجد تقضى العمر فى أسف منكم وقلبى لم يبلغ أمانيــه
يا ضيعة العمـــر لاوصل أفوز به من قربكم لا ولا وعــد أراجيه
إن كان هذا الذى أهواه مبتعدا عنى فواحزنى إن لم ألاقيــه

قال البكرى رضى الله عنه : فلما فرغ الراهب من شعره ونظمه مسح دموعه بأكمامه ونادى بأعلى صوته : يا سادات العرب ويا أهل المكارم والمعالى والرتب ، هل بقى من جمعكم أحد لم يحضر معكم ويأكل من وليمتى ؟ قال : فأجابه أبو جهل لعنه الله وقال : يا راهب أما وحق الكعبة ما تخلّف منا إلا صبى صغير يتيم أجير على مال بعض نساء قومنا من أهل مكة . فما استتم أبو جهل كلامه حتى هجم عليه البطل القمقام والأسد الضرغام حمزة بن عبد المطلب وضرب به الأرض وقال له : ويلك يا لئيم الأصل ويا خبيث النسل ، ويا وغد الأنام



ويا أبتر الكلام ، ما هذا الذى قلت من فاحش الكلام ، ويلك لم تقول تأخَّر أجير وصبى فقير ، وهلا قلت تأخَّر منا سراجنا المضىء وبدرنا السنىّ البشير النذير والسراج المنير والقمر الطالع والضياء اللامع محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الصادق الأمين ، قد خلفناه على أموالنا وتجارتنا لم يكن فى قافلتنا هذه بأصدق منه ولا آمن منه ، قد أخَّرناه عند أموالنا لأنه حفيظ الأمانة من كلنا . قال : ثم إن حمزة بن عبد المطلب قال للراهب : أعطنى الرقعة التى عندك المكتوبة لأنظر كيف تكون طلبتك ولمن تكون شهوتك ومحبتك . قال الراهب : اعلم يا مولاى أن عندى ههنا أسطرا مكتوبات من كتاب الإنجيل فيها صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال حمزة : أخبرنى بها يا راهب ، قال : صفته عندى مكتوبة : لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللاصق ، معتدل القامة ، مدوَّر الهامة ، بين كتفيه علامة ، وإذا مشى تظلله الغمامة ، وهو النبى المبعوث فى آخر الزمان من تهامة ، شفيع العصاة والمذنبين يوم القيامة . فقال له العباس : أنت يا راهب جليل المعرفة ، إذا رأيته تعرفه بهذه الصفات المذكورة ؟ قال : نعم نعم ، قال العباس : يا راهب سر معى إلى تحت الشجرة ، فان صاحب هذه العلامات المذكورات جالس تحتها .

قال الراوى : فخرج الراهب من الدير يهرول بخطواته حتى وصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رأت عيناه النبى صلى الله عليه وسلم ، نهض النبى قائما على أقدامه المباركة لا متجبرا ولا متكبرا ، فتلقاه بالرحب والسعة ، وقال مرحبا بك يا فليق بن يونان ، بعد ما قال الراهب أولا : السلام عليك أيها الفتى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام يا عالم الرهبان يا فليق ابن يونان بن عبد الصليب .

قال الراوى : فلما سمع الراهب كلام النبى صلى الله عليه وسلم قال : من أخبرك باسمى واسم أبى وجدى ؟ قال : يا راهب أخبرنى الذى أخبرك بأنى أبعث فى آخر الزمان بالقرآن ، قال : فلما سمع الراهب كلامه أكبَّ على أقدامه المباركة يقبِّلها ويقول : يا سيدى أنت البشير النذير المبعوث من مضر ومن ينشقّ لك القمر ، لعلك تجيب دعوتى وتأكل من وليمتى ، ليحصل لنا بذلك الشرف والبركة وتتصدق علينا بالمسير نحونا لنفوز بمحبتك يوم القيامة . قال



صلى الله عليه وسلم : إنَّ القَوْمَ أَوْدَعُونى أَمْوَالَهُمْ وَرِحَالَهُمْ وَلَيْسَ أَقْدُمُ مَعَكَ إلاَّ عَلى طَوْعٍ مِنْ أَمْرِهِمْ .

قال الراوى : قال الراهب : اعلم يا مولاى وقرة عينى إن عدم من هذه الأموال كلها عقار بعير فعلىَّ ثمنه مرتين ، فتصدَّق علىَّ بالمسير . قال : فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم وسار معه إلى الدير وتقدم الراهب بين يديه . وكان الدير بابان واحد قصير والآخر طويل ، وقد وضعوا قبال الباب فى الكنيسة تصاوير وتماثيل ، فاذا دخل الرجل من الباب يحنى رأسه ، وذلك عمله الرهبان برسم الخدمة والسجود للتصاوير المعلَّقة فى تلك الكنيسة ، فخطر فى نفس الراهب أن يدخل النبي صلى الله عليه وسلم من الباب القصير ليتلذَّذ بمعجزاته ، ويشهد غرائب فضله وكراماته . قال : فلما دخل الراهب أمامه داخله الخوف والجزع والفزع والهيبة من النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الباب القصير ، فأمر الله تعالى بخفىّ لطفه كرامة لنبيِّه أعمدة الباب أن تطول وترفع وتمتد وتتسع بعزَّة الملك الوهَّاب حتى يدخل النبى صلى الله عليه وسلم منتصب القامة . فلما دخل على القوم قاموا كلهم إجلالاً وهيبة وإكراما وأجلسوه فى وسطهم فى أعلى مقام وأرفع مكان ، ثم وقف الرهبان حواليه صفوفا ومدحوه بأفصح لسان ، وقدَّموا بين يديه من طرائف الشام ؛ ثم إن الراهب رمق بطرفه إلى السماء وقال : إلهى وسيدى ومولاى أرنى خاتم النبوَّة ، فأرسل الله تعالى الروح الأمين جبرائيل عليه السلام ورفع ثيابه من ظهره ، فبان خاتم النبوَّة فى ظهره وسطع كالشمس المضيئة المشرقة بين كتفيه فسطع منه نور ، فلما رأى الراهب النور خرَّ ساجدا لله تعالى ، ثم رفع رأسه فقال : والله هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أنت المنتظر إلى آخر الزمان . فلما سمع ذلك حمزة ابن عبد المطلب رضى الله عنه أنشأ يقول :

أنت المظلَّل بالغمام وقد رأى ... الرهبان ذلك والحبرا
وربيت فى بحبوح مكة حيثما ... وضع الجليل وقد فقت مفخرا
ورضعت فى سعد بثدى حليمة ... ففاض الثدى نحوك وانفجرا
وغدا إليك السبع ماشى مسلما ... وكذلك الثعبان والسيل منحدرا
ورميت من يدك اليمين نوى ... فصار نخلا باسقا مثمرا



صلى عليك الله عـدّ الثرى ... وعـدّ أحجار الفيافى والمطرا

قال الراوى : فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم شعر عمه حمزة تهلّل وجهه بالسرور والحبور وشكره . قال : ثم تفرّق القوم إلى رحالهم ، وقد اغتاظ أبو جهل لعنه الله من ذلك غيظا عظيما ، وازداد فيه الحزن والكمد ، وبقى ميسرة والراهب مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الراهب : يا سيدى أبشر فان الله عز وجل يوطئ لك رقاب العباد ، ويملّكك سائر الأمصار والبلاد ، وينزل عليك القرآن ، وتدين بدينك الأديان والأنام ، ودينك عند الله الإسلام وتبعث بالدلائل والمعجزات والبراهين والآيات البيّنات ، وتنكّس لك الأصنام ، وتمحو بدينك جميع الأديان ، ويبقى ذكرك إلى آخر الزمان . فأسألك يا سيدى بإلهك الملك العلاّم أن تتصدّق علىّ بالذمام لسائر الرهبان لتأخذ منهم أمتك الجزية فى ذلك الزمان ، فيا ليتنى أكون معك حين تبعث بالرسالة يا سيدى وقرّة عينى .

قال الراوى : فأعطاهم النبى الذمام ، وذلك أن الراهب قال لميسرة : أقرئ مولاتك منى التحيّة والسلام وأعلمها ببشارة لها ، قل لها إن الفليق بن يونان يقرئك السلام ويقول لك قد ظفرت بسيد الأنام ، وحبيب الملك العلام ، وأنها يكون لها معه شأن عظيم ، وتفضل على الخاص والعام ، فلا يفوتها القرب من هذا النبى الكريم والسيد العظيم ، فان الله تعالى يجعل من نسلها سادات الدنيا والآخرة ، ويبقى ذكرها عاليا طول الأبد ويحسدها عليه كل أحد ، وقل لها : لا يدخل الجنان إلا من آمن به وصدّق برسالته ، وأنه أشرف الخلق والبشر من كل أنثى وذكر ، وأنه أشرف الأنبياء وأفضلها وأصفاهم سريرة وأعظمهم عند الله قدرا وشرفا وتفضيلا ، واحذروا عليه من الأعداء ، لأن أعداءه كثيرة وهم اليهود فى الشام حتى يصل إلى البيت الحرام ؛ ثم إنه ودّع الراهب وخرج من عنده ولحق بالقوم . قال : فساروا من وقتهم وساعتهم ليالى وأياما حتى وصلوا الشام ، فنزلوا فى مدينة خارج البلد ، وحطوا رحالهم وأخذوا راحتهم ، فسمع بهم أهل الشام ، وأقبل إليهم التجار من كل مكان واشتروا كل ما كان معهم من المتاع والبضائع بأوفر ثمن وأحسن بيع وأغلى الأثمان ، ففرحت قريش بذلك فرحا عظيما .

وأما ما كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم فانه ما باع من تجارته شيئا ، فلما رأى أبو جهل لعنه الله ذلك فرح وقال : ما رأت خديجة فى هذا السفر يصلح لتجارتها غير محمد فى كساد تجارتها . قال : فلما أصبح الصباح سمع الناس مناديا ينادى بالتجار ، فأقبلوا من كل مكان ، فلم يروا من البضائع إلا بضاعة خديجة ، فباعها النبي صلى الله عليه وسلم بأضعاف مضاعفة عما باعت قريش وربحت ربحا عظيما ، وقيل إن تجارتها ربحت ألفى أوقية من الذهب الأحمر ، وألفى أوقية من الفضة البيضاء ، وألفى أوقية من العنبر ، وألفى أوقية من المرجان ، وألف ألف أوقية من الإبريسم الملوّن من سائر الأجناس والزوالى وغيرها وشيء لايقدر يصفه أحد . قال : فلما رأى أبو جهل لعنه الله ذلك اغتاظ غيظا شديدا . قال : ولم يبق من بضائع خديجة إلا حمل واحد من الأديم ، فجاء إليه رجل من اليهود يقال له سعيد بن قطمور وكان من سادات اليهود وأحبارهم ، قد اطلع على صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه عرفه ، وقال لأصحابه : آه هذا الذى ينكس رؤوسنا ويبطل أدياننا ويطئ سراجنا ويقتل أولادنا ويرمل نساءنا ، وإنى أريد أن أحتال عليه حيلة وأقتله ، وأنتم أيها اليهود كونوا على حذر . قال : ثم إنه دنا من النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا سيدى بكم هذا الحمل الأديم ؟ قال له : يا يهودى هذا عليك بخمسمائة درهم ، فقال اليهودى : اشتريت منك ولكن على شرط ، فقال له : وما شرطك ؟ قال اليهودى أن تسير معى إلى منزلى وتأخذ الثمن منى ، وتأكل من طعامى حتى يحصل لى بقدومك الشرف والبركة ، لأنكم سكان الحرم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لكَ ذلكَ يا يَهُودِيُّ . قال : فأخذ اليهودى حمل الأديم وسار إلى منزله والنبي صلى الله عليه وسلم معه ، فلما قرب اليهودى إلى منزله سبق إلى زوجته ، وقال لها : اعلمى أن الرجل المقبل إلينا هو الذى يبطل أدياننا ويرمل نساءنا ، فأريد منك المعونة هذا اليوم على قتله ، قالت له : وكيف لى بالمعونة على ذلك ؟ فقال لها بعلها : اعمدى إلى طبقة الرحى واجلسى على باب الدار من فوق ، فاذا قبض منا الثمن وخرج ألقى عليه طبقة الرحى وارميها على أم رأسه ، فعسى أن تقتليه ويستريح الناس منه . قال : فأخذت المرأة طبقة الرحى وطلعت على الدار ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم



أمسك الله يديها عنه ورجفت ، وكان لها ولدان نيام تحت الدار فسقطت الرحى عليهما فقتلتهما . فلما رأى اليهودى ما حل بأولاده صاح بأعلى صوته ونادى : يا معاشر الأعمام واليهود عجِّلوا عجِّلوا ، فقد نزلت بكم الداهية والمصيبة القاضية . قال : فلما سمع اليهود كلامه أتوا إليه مبادرين من كل مكان ، وقالوا له : ما حل بك من المصائب ؟ فقال لهم اعلموا أيها الأنساب والأقرباء أن هذا التاجر الذى دخل بلدكم هو الذى يعطِّل أديانكم ويخرّب دياركم ويمحو آثاركم ، وقد دخل منزلى وأكل من طعامى وقتل أولادى . قال : فلما سمع اليهود كلامه ركبوا خيولهم ، وكانوا ثلثمائة فارس وحملوا بأجمعهم على قريش .

قال الراوى : فلما رأى أعمام النبى صلى الله عليه وسلم اليهود قد تبادروا للقتال لابسين الدروع ، ومتقلدين بالسيوف الهندية والرماح الخطية ، وراكبين الخيول العربية ، وقد ارتفع بينهم الصياح وشهروا الصفاح . قال : فركب حمزة بن عبد المطلب جواده ، وكان جوادا أشقر مضمرا غرّا محجلا حسن المنظر كأنه الجوهر ، وكأنه من خيل كسرى أو قيصر ، عظيم الكفل قليل الوجل ، ليس فيه فشل ولا هزل ، كأنه الظبى فى انطلاقه والماء فى اندفاقه ، والأسد عند انطباقه ، حسن التحجيل حلو الصَّهيل ، له غرة كالمنديل كأنه طير أبابيل وتمثال من التماثيل ، كما قال الشاعر :

جوادى كالظلام إذا تجلّى ... بغرّة كالبدر التمام

ترى أحجاله يصعدن فيها ... صعود البرق فى ليل الغمام

يسير من العراق من قبل صبح ... فيأتيه المسا فى وسط شام

قال الراوى : ثم إن حمزة رضى الله عنه ركب على جواده وتقلّد بسيفه واعتقل برمحه ولبس درعه وحمل على اليهود حملة منكرة ، فهنالك حامت عليهم خيول الأبطال وأخذ منهم الويل والنكال ، ودارت عليهم راحات المنون فى إعجال ، وصاحوا يا آل عدنان ، وحلّت بهم داهية الويل والعذاب ، وانهزم اليهود خائبين وعلى أعقابهم ناكصين ، وأنفذوا منهم سبع رجال من روسائهم أبطال بلا سلاح إلى قريش ، وقالوا لهم : يا معاشر قريش إن هذا الرجل الذى معكم : يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذى يظهر منه



خراب دياركم وقتل رجالكم وتكسير أصنامكم ، والرأى عندنا أن تسلموه لنا حتى نقتله ونستريح نحن وأنتم منه . قال : فلما سمع حمزة رضى الله عنه ذلك قال : يا ويلكم يا يهود ، هيهات أن نسلم إليكم بدرنا وسراجنا وشمسنا وقمرنا ، والله لا كان ذلك أبدا ، ولو تلفت دونه جميع أرواحنا ، فان الأرواح فداه والأموال وقاه ، وإن أردتم يا ويلكم منا قطع الرؤوس وإتلاف الأرواح منكم والنفوس هلموا يا ويلكم للحرب والقتال . قال : فلما سمع اليهود كلام حمزة أيسوا من مرادهم ورجعوا من كيدهم خائبين . قال : فعند ذلك حمل اليهود وحملت قريش على اليهود ، وغنموا منهم الأسلاب والخيل والأموال والسلاح ، وقتلوا من اليهود خلقا كثيرا ، وقد فرحت قريش بالنصر والظفر . قال : فلما استقاموا للمسير قال لهم ميسرة : يا قوم ما منكم أحد إلا وقد سافر مرة أو مرتين وأكثر ، فهل رأيتم أبرك من هذه السفرة وأكثر ربحا ؟ وما رأيتم ذلك إلا ببركة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنتم تعلمون أنه نشأ بينكم وتربى معكم ، وأنه قليل المال فهل ترون أن تجمعوا له من بينكم شيئا على رسم الهدية تهدونها له حتى يستعين بها على حاله ؟ قال : ثم إن القوم استقام رأيهم وقالوا : قد أصبت يا ميسرة بما أشرت به علينا من القول الصائب . قال : ثم إن القوم ساروا ونزلوا منزلا كثير المياه والمراعى والأشجار والأنهار . قال : فاستخرج من بينهم كل واحد منهم من ماله شيئا برسم الهدية ، وأتوا بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم وكان يحب الهدية ويكره الصدقة . فلما جمعوا المال بين يديه قالوا له : خذ هذا هدية مباركة عليك ، ودفعوها إلى ميسرة وهو لم يرد جوابا . قال : ثم إن القوم رحلوا يجدون السير إلى أن وصلوا مكانا قريبا من مكة شرفها الله تعالى يسمى ذلك المكان جحفة الوادى أو جحفة الوداع ، فأخذ القوم ينفذون رسلهم إلى أهليهم ويبشرونهم بالسلامة وما نالوا من الربح فى تجارتهم . وقال أبو جهل لعنه الله تعالى : ما رأيت ربحا أكثر من ربحنا فى سفرنا هذا ، فقال له قومه : يا سيدنا ما عندنا من الربح عشر معشار ما عند محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . قال : ثم إنهم أنفذوا رسلهم وأنفذ أبو جهل لعنه الله تعالى وربيعة وعتبة وأخوه شيبة والنضر بن الحارث ومطعم بن عدى وعثمان بن مالك الفهرى وأسد بن غالب الدارمى ، وكل واحد

منهم أنفذ رسولا إلى أهله . قال : فلما رأى ذلك ميسرة قال لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا سيدى ويا قرة عينى هل أرشدك إلى خير يصل إليك ؟ قال : وَمَا هُوَ ؟ قال : يا سيدى تسير من وقتك وساعتك هذه إلى مولاتى خديجة وتبشرها بقدوم أموالها والربح فى تجارتها ، وتهنيها بسلامة أموالها ، فانها تعطى من يبشرها بذلك خيرا كثيرا ، فقال : يا مَيْسَرَةَ إِنِّى عَازِمٌ عَلَى ذَلِكَ وَأُوصِيكَ بِمَالِكَ وَنَفْسِكَ خَيْرًا . قال : فركب النبى صلى الله عليه وسلم ناقته وسار حتى غاب عن الأبصار ، وطوى الله له البعيد ، وهوّن عليه كل صعب شديد ، حتى أشرف على جبال شاهقة قريبا من مكة شرّفها الله تعالى ألقى الله عليه النوم ، وقد أوحى الله تعالى إلى جبرائيل عليه السلام أن اهبط إلى جنة عدن واستخرج منها القبة التى خلقتها لصفوتى من خلقى وحبيبى محمد صلى الله عليه وسلم من قبل أن أخلق آدم عليه السلام بألف عام وانشرها على رأسه ، وكانت من الياقوت الأحمر معلّق فيها علائق اللؤلؤ الكبار والذهب والزمرد الأخضر ، وكان يرى باطنها من ظاهرها ، وظاهرها من باطنها ، لها أربعة أركان وأربعة أبواب : الأول من الزبرجد ، والثانى من العقيق ، والثالث من اللؤلؤ ، والرابع من الياقوت . قال : فاستخرج الأمين جبرائيل عليه السلام تلك القبة من جنة عدن ، واستبشرت بها الحور العين ، وأشرفن من قصورهن وقلن : لك الحمد يا رحمن فى هذا الآن يبعث صاحب القبة ، وهبّت رياح الرحمة ، وصفقت الأشجار بأفنان أغصانها ، ونشر الروح الأمين جبرائيل عليه السلام القبة على رأس محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وأحدقت الملائكة بأركان العرش ، وأعلنوا بالتقديس والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والثناء لله رب العالمين ؛ ونشر الروح الأمين جبرائيل عليه السلام بين يديه ثلاثة أعلام من السندس الأخضر ، وتطاولت الجبال وتنادت الأشجار ، وتجاوبت الأطيار ، وضجّت الأملاك ونادت : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، هنيئا لك ما أكرمك عند الله .

قال الراوى : وكانت خديجة رضى الله عنها متكئة على رفرف عال فوق قصرها ، ومن حولها جواريها وخدمها ، وكان معها جماعة من نساء قومها من أشراف قريش وهى تطيل النظر ، وقد كشف الله عن بصرها دون غيرها من



النساء ، فرأت نورا ساطعا وضياء لامعا من جهة باب المعلى . قال : ثم إن خديجة رمقت بطرفها مرة ثانية وحقّقت النظر ، فرأت القبة والملائكة محدقين بها ناشرين الأعلام عليها ، والنبي صلى الله عليه وسلم نائم ، فحارت فى أمرها فقال لها النسوة : مالنا نراك باهتة ؟ قالت لهن خديجة : انظرونى أنا نائمة أم يقظانة ؟ فقلن لها : نعيذك برب الكعبة بل أنت يقظانة ، قالت لهن : انظروا إلى باب المعلى وانظروا القبة كيف تكون ، فنظر الجوارى وقلن لها : نعم يا خديجة قد رأينا ما رأيت ، قالت خديجة : أخبرونى بما رأيتم ، قالوا : رأينا نورا ساطعا وضياء لامعا ، قد أخذ ذلك النور من الأرض إلى عنان السماء ، قالت خديجة : أوما رأيتنّ غير ذلك شيئا ؟ قالوا : ما نرى شيئا ، قالت : ما ترون القبة والراكب على الناقة والأطيار المحدقة بها ؟ قلن : يا سيدتنا لم نر مما ذكرت شيئا ، قالت : إنى أرى راكبا قد أنار وجهه المشرق والمغرب وهو فى قبّة خضراء لم أر أحسن منها ، وهو راكب على ناقة طويلة العنق واسعة الخطا ، وقد كسيت الهيبة والوقار ، ولا شك أن الناقة ناقتى الصّهباء والراكب عليها محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال لها النسوة : يا خديجة ومن أين لمحمد صلى الله عليه وسلم قبة وهذه الأموال ، هذا شيء عظيم يعجز عنه كسرى وقيصر ، قالت لهن : إن فضل محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك . ثم إن الناقة دخلت بين شعاب مكة وقصدت باب المعلى وعبرت منه ، ثم إن الملائكة عرجوا إلى السماء وعرج جبرائيل عليه السلام بالقبة والأعلام ، وانتبه النبي صلى الله عليه وسلم من نومه ، وإذا هو فى شعاب مكة فقصد منزل خديجة ، فسمعها تقول : متى يصل إلىّ حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم حتى أتمتع بالنظر إلى وجهه البهىّ ، وهى تقعد مرة وتقوم ثانية ، وإذا هو قد قرع الباب ، قالت الجارية : من بالباب ؟ فقال : أنا مُحمّد بنُ عبدِ الله جِئتُ أُبشّرُ خديجةَ بسلامَةِ أموْالِها وجِمالِها ، فسمعت خديجة كلامه فكادت أن تموت من كثرة الفرح والمحبّة والسُّرور ، فقامت وانحدرت من عاو قصرها إلى وسط الدار ، وفتحت الجارية الباب فدخل وقال : السّلامُ عليكُمْ يا أهْلَ المنزلِ ، فقالت خديجة : تهنأ لك السلامة يا قرّة العين ، فقال : وأنْتِ نُهنّيكِ بسَلامَةِ أموْالِكِ ، فقالت : بل أنت تهنأ بسلامة روحك يا نور عينى ، ويا حبيب



قلبي ، أنت عندي أعز من الأموال والأهل ، وأعظم عندي من أبي وأمي ، ثم إنها أنشأت تقول :

جاء الحبيب الذي أهواه من سفر والشمس قد أثرت في وجهه أثرا
عجبت للشمس في تقبيل وجنته والشمس لاينبغي لها أن تدرك القمرا

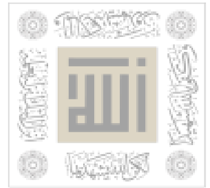
قال الراوي : ثم إن خديجة قالت : يا حبيبي وقرة عيني أين تركت الركب؟ قال : بِجُحْفَةِ الوَدَاعِ ، فلما سمعت خديجة ذلك تعجبت من كلامه وقالت له : سألتك بالله أين تركت القافلة أتركتها بجحفة الوداع ؟ قال : نَعَمْ وَقَدْ طَوَى اللهُ لِي البَعِيدَ قَرِيبا ، فقالت : يا مولاي ما كنت أحب أن يكون مجيئك هكذا ، وإنما أردت أن تجيء في أوّل الركب والقافلة ، والجمال محمّلة عليها صناديق الأموال ، وأنظر إليك وأنت مقدم على الرجال ، وأرسل إليك عبيدي وجواري على رءوس الجبال بأيديهم الطارات والمعازف ، وآمر العبيد والخدام يعقرون العقائر وينحرون النحائر قدامك ، ويكون ذلك مشهورا . قال : يا خَدِيجَةُ إِنّي أَتَيْتُ وَلَمْ يَدْرِ بِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَإنْ أمَرْتِنِي بالرُّجُوعِ رَجَعْتُ مِنْ سَاعَتِي هَذِهِ ، فقالت : أردت بذلك والله شفاء فؤادي وتبلغني مرادي ، قال : أَرْجِعُ ؟ قالت له : أمهل قليلا . قال : ثم عمدت إلى خبز ساخن ووضعته في مزودته وملأت له قربته من عين زمزم لأنه معروف دون المياه ، وقالت له : ارجع وودعتك الله تعالى ، وطوى الله لك البعيد قريبا . قال : فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ثم إن خديجة رجعت ورقت سطح دارها تنظر هل تعود القبة أم لا ؟ وإذا بالقبة قد عادت مثل الأول ، وجبرائيل عليه السلام قد نزل من السماء والملائكة قد أحدقوا بالقبة كأول مرة ، ففرحت بذلك خديجة فرحا عظيما ، واستبشرت لما عاينت معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأت تقول :

نعم لي منكم ملزم أيّ ملزم ووصل مدى الأيّام لم يتصرّم
ولو لم يكن قلبَ المتيم فيكم جريحا لما سالت دموعي بدم
ولم يخل طرفي ساعة من خيالكم ومن حبكم قلبي وذكركم فمي
أشدّ على كبدي يدي فيردّها بما فيه من جمر من الوجد مضطرم



طويت الهمّ والشوق ينشر طيه وكتمت أشجانى فلم تتكتم
يا رب طالت بنا مدّة اللقا وأنت قدير تنظم الشمل فانظم

قال الراوى : ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم سار قليلا ، وطوى الله له البعيد قريبا وأتى إلى القوم ، فلقى بعضهم نياما وبعضهم قعودا ، فأحسّ به ميسرة ، قال : من هذا السائر فى جوف الليل العاكر ؟ قال : أنا مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ ، فقال له ميسرة : يا سيدى ما الذى ردك عما أشرت به عليك وتركت البشارة والعطية ، وكرهت لنفسك خيرا يصل إليك من عند مولاتى خديجة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : قَدْ سافَرْتُ إلى مَكَّةَ وَرَجَعْتُ ، فقال ميسرة : يا محمد سافرت إلى ظهر الجبل ورجعت ؟ فقال : بَلْ قَصَدْتُ بَيْتَ اللهِ الحَرَامِ ، قال ميسرة : ما عهدتك يا سيدى مستهزئا أبدا ؟ فقال : يا مَيْسَرَةُ ما قُلْتُ لكَ إلاّ حَقًّا ولا تَكَلَّمْتُ لكَ إلاّ صِدْقاً ، فانْ كانَ عِنْدَكَ شَكٌّ فى قَوْلى فانَّ مَعِى خُبْزَ مَوْلاتِكَ خَدِيجَةَ وَقِرْبَةً مِنْ ماءِ زَمْزَمَ . قال : فنظر ميسرة إلى ذلك منه ، ثم نهض قائما على قدميه ثم نادى بأعلى صوته : يا معاشر قريش ويا بنى مضر ويا بنى زهرة ويابنى مخزوم ويا بنى هاشم هل غاب عنكم محمد بن عبد الله غير ساعتين أو أقل من ذلك ؟ قالوا له : نعم ، قال : قد سار عنكم إلى مكة العليا ورجع وهذا خبز من خبز مولاتى خديجة وقربة ماء من عين زمزم ؛ فتعجّب القوم من كلام ميسرة ودهشت عقولهم ، وصاح أبوجهل لعنه الله وقال : يا قوم ما الذى دهاكم ودهش عقولكم ؟ فقال له القوم : يا ابن هشام إن محمدا صلى الله عليه وسلم سار إلى مكة ونحن نيام ، فقال لهم أبوجهل لعنه الله : ويلكم انصرفوا عن هذا الكلام ، فلو كان غير محمد كان عجبا ولكن هذا من بعض سحره لا يبعد عليه طريقا ولو كان مطلوبه مشارق الأرض ومغاربها لكان هيّنا عليه وأقل من طرفة عين . قال : ثم إنهم باتوا ليلتهم وسبق القوم بالبشارات إلى أهاليهم وخرج أهل مكة مبادرين ، وقد سبق عبيد خديجة وجواريها ، وزيّنوا شعاب مكة وأوديتها ، وبأيديهم المباخر والطارات ؛ وفى المباخر عود الندّ يبخّرون الطرق للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وما يمر على عبد من عبيدها إلا وعقر له




ناقة كرامة له . قال : وتفرّق الناس إلى منازلهم ، ونظرت خديجة إلى ركائبها وقد أقبلت كأنها الموج المتلاطم ، وكانت معتادة بموت بعضها وجرب بعضها إلا فى تلك السفرة لم يكن فيها علة أبدا ، وصارت النوق شحما ولحما ولم يجرب منها شعرة واحدة . قال : فبقيت قريش متعجبة من تلك الأموال ، وكلما مر بهم حمل يقولون : لمن هذا ؟ فيقال هذا مما أفاده محمد صلى الله عليه وسلم وهو جالس وميسرة يعرض الأموال عليها ، فنظرت خديجة شيئا عظيما أدهشها من كثرة الأموال ، فبعثت إلى أبيها تعرّفه بذلك وترغّبه فى محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فلم يكن إلا ساعة وخويلد قد حضر وهو متزين بأثوابه متقلّد بسيفه ، فلما نظرته خديجة قامت إليه وأجلسته إلى جانبها وبدأته بالرّحب والسّعة ، وجعلت تعرض عليه البضائع وهى تقول : هذا كله ببركة محمد صلى الله عليه وسلم ، فما ربحت ربحا أكثر من هذه السفرة ، ثم التفتت إلى ميسرة وقالت : هلا تحدثنى كيف كان سفركم ، وما الذى عاينتم فيه من محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : يا سيدتى هل أطيق أن أصف لك بعض ما رأيناه من محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم أخبرها بحديث السيل الجارى والبئر والثعبان والنخل ، وما أخبره الراهب من الدلالات والعلامات ، وما أوصى الراهب ميسرة إلى خديجة ، فقالت : حسبك يا ميسرة لقد زدتنى شوقا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فأنت حر لوجه الله تعالى وزوجتك وأولادك ، ولك عندى مائتا درهم وراحلتان ؛ ثم إن خديجة خلعت عليه خلعة سنية ، وسار إلى أهله وأولاده وأخبرهم بما صنعت به مولاته فامتلئوا فرحا وسرورا ، ثم إن خديجة التفتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالت : ادن منى يا حبيبى وقرّة عينى بلا حجاب بينى وبينك فى هذا اليوم ، ثم أمرت أن ينصب لها كرسى من العاج قوائمه من الأبنوس وحواشيه من العقيق ، ثم قالت له : يا سيدى وقرّة عينى وحبيب قلبى أخبرنى كيف كان سفركم وكيف كان بيعكم . فحدثها كيف كان سفرهم وكيف باع وكيف اشترى ، فرأت خديجة فى مالها ربحا عظيما ما كان يخطر ببالها أبدا ، فقالت : ياسيدى لقد فرّحتنى بطلعتك وأسعدتنى برؤيتك فلا لقيت بؤسا ولا نحوسا ؛ ثم إن خديجة أنشأت تقول :

فلو أننى أمسيت فى كل نعمـــة ودامت لى الدنيا وملك الأكاسره

لما ساوت عندى جناح بعوضة　　إذا لم تكن عينى لعينك ناظره
فيا قرّة العين ويا ثمرة الحشا　　ويا نور عينى ذا مقام المفاخره
عليك صلاة الله ثم سلامه　　ما سارت الركبان أولى وآخره

قال الراوى : ثم إن خديجة قالت : يا سيدى لك عندى حق بشارتك زيادة على ما كان بيننا من القول ، فهل لك هذه الساعة غرض أم حاجة ؟ أخبرنى ، قال : لا يا خَدِيجَةُ حَتَّى أَسْتَرِيحَ مِنْ تَعَبِ السَّفَرِ وأعُودُ إلَيْكِ . قال : ثم إنه خرج من منزل خديجة ودخل منزل عمه أبي طالب فرحا مسرورا مؤيدا منصورا بما عاين ، فقام عمه يقبل يديه ورجليه بما قد رأى منه ومن نوره ، ودارت أعمامه حواليه ، فقال له أبو طالب : يا ولدى ما لدى خديجة من المال ؟ قال : أَوْعَدَتْنِي بالزِّيادَةِ عَلَى ما شَرَطَتْ لى ، قال له أبو طالب : هذا يا ولدى نعمة جليلة ، وإنى قد عزمت على أن أترك لك بعيرين تسافر عليهما وراحلتين تصلح بهما شأنك ، والذهب والفضّة أخطب لك به فتاة من نساء مكة من قومك قريش ، ثم لا أبالى بالموت حيث أتى وكيف نزل ، فقال : يا عَمَّاهُ افْعَلْ ما بَدَا لكَ . والله أعلم .

إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ،
يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

قال البكرى رضى الله عنه : فلما كان الغد اغتسل النبي صلى الله عليه وسلم من أثر السفر ، وتطيَّب وسرَّح رأسه ولبس ثيابه ، وسار إلى منزل خديجة بنت خويلد ، ودخل عليها فلم يجد أحدا من الناس عندها سوى ميسرة فلما رأته فرحت بقدومه وأنشأت تقول :

رنا فرمى من قوس حاجبه سهما　　وصادفنى حتى قتلت به ظلما
وأسفر عن وجهه وأسبل شعره　　فبتّ أباهى البدر فى الليلة الظلما
ولم أدر حتى زار من غير موعد　　على رغم واش ما أحاط به علما
فعللنى من حسن طيب حديثه　　منادمة تستنطق الحجر الصّما

قال الراوى : وكانت خديجة متضمخة بالمسك والكافور والزباد والعنبر ، وقد أرخت على وجهها برقعا من الحرير مطرّزا بالذهب الأحمر ، ولابسة

أحسن ثيابها ، ومرخية عشرين ذؤابة من شعرها خلف ظهرها ، مكللة بالدرّ واللؤلؤ ، فقالت خديجة : يا سيدى أنعم الله لك الصباح وأدام لك السرور والأفراح ، ودامت لك السعادة والنجاح ، هل لك من حاجة فتقضى أو ملمّة فتمضى ؟ قال : فاستحى منها ونكّس رأسه وعرق جبينه من الخجل ، فأقبلت عليه خديجة تلاطفه بالكلام والحديث الحسن والتعطف ، ثم قالت : يا محمد إذا سألتك عن شيء تخبرنى به يا حبيبى ؟ فقال لها : نَعَمْ يا خَدِيجَة فقالت له : يا قرّة عينى إذا أخذت من عندى المال والأجمال فما أنت صانع به ؟ فقال : ولِمَ ذلكِ يا خَدِيجَةُ ؟ قالت : لأنى أريد أن أزيدك بما أقدر عليه . قال لها : اعْلَمى يا خَدِيجَةُ أنَّ عَمِّى قَدْ أشارَ عَلَىَّ أنْ يَتْرُكَ لى بَعِيرَيْنِ أسافِرُ عَلَيْهِما وبَعِيرَيْنِ يُصْلَحُ بِهِما شأْنِى ، والذَّهَبُ والفِضَّةُ ذَكَرَ أنَّهُ يُرِيدُ أنْ يَخْطُبَ لى بِهِ امْرأةً جَمِيلَةً مِنْ قَوْمى تَقْنَعُ مِنِّى بالْقَلِيلِ ولا تُكَلِّفُنِى ما لا أطِيقُ . قال : فلما سمعت خديجة كلامه تبسّمت وقالت : يا سيدى أما ترضى أن أرى لك امرأة تكون تليق بقلبك وبقلبى ، فقال : نَعَمْ يا خَدِيجَةُ إنَّ التِى تَرْضَيْنَ عَنْها أنا أرْضَى عَنْها ، فقالت له : إنى وجدت لك امرأة أرضاها لك ، وهى والله تصلح لك ، وهى أكبر نساء قومها وقومك ، وأكثرهم مالا وكمالا وعقلا وأبسطهن يدا ، طاهرة مصونة تساعدك على الأمور وتقنع منك باليسير ، ولا ترضى من غيرك ولو بذل لها المال الكثير ، كبيرة فى قومها مطاعة فى عشيرتها ، قريبة منك بالحسب والنسب ، يحسدك الملوك والأكاسرة عليها والعرب والفرسان ، غير أنى أصف لك بها عيبين ، فقال لها : وَمَا عُيُوبُها ياخَدِيجَةُ قالت : إنها عرفت قبلك رجلين ، وهى أكبر منك سنا ؛ فقال لها صلوات الله عليه : سَمِّيها لى يا خَدِيجَةُ ، فقالت : يا محمد هى مملوكتك ؛ قال : وَمَنْ هِىَ ؟ قالت : هى خديجة بنت خويلد هل ترانى ؟ . قال : فلما سمع كلامها أطرق رأسه إلى الأرض حياء منها ، فأعادت عليه الكلام مرة ثانية وثالثة ، وقالت : يا سيدى مالك لا تجيبنى وتسمع كلامى وتسرّ قلبى ، ثم إن خديجة ؟ أنشأت تقول :

يا سعد إن جزت وادى الأراك　　فانشد قليبا ضاع منى هناك
واستفت غزلان النقا سائلا　　هل لأسير الحب منهم فكاك
وإن ترى ركبا بوادى الحمى　　سائلهمو عنى ومن لى بذاك ؟
نعم سروا واستصحبوا ناظرى　　ألا إن عينى تشتهى أن تراك
ما فىّ من عضو ولا مفصل　　إلا وقد ركب فيه هواك
عذّبتنى بالهجر بعد الوفا　　يا سيدى ما فاد هذا بذاك
فاحكم بما شئت وما ترتضى　　فالقلب ما يرضى إلا برضاك

قال الراوى : ثم ألحّت عليه بالكلام ، فقال لها : يا بِنْتَ العَمّ أنْتِ امْرَأَةٌ ذَاتُ مالٍ وأنا فَقِيرٌ لاأمْلِكُ إلاَّ ما تَجُودِينَ بِهِ عَلَىَّ ، وكَيْفَ مِثْلُكِ يَرْضَى وَيَرْغَبُ فى وَصْلِ مِثْلِى والرَّاغِبُ فى الفَقِيرِ قَلِيلٌ ، وأنا أطْلُبُ امْرَأَةً حالُهَا كَحالى وَمالُهَا كَمالى ، أقْنَعُ مِنْها وتَقْنَعُ مِنِّى ، وأنْتِ يَصْلُحُ لكِ مَنْ يَكُونُ مِثْلَكِ مالُهُ كَمالِكِ وحالُهُ كَحالِكِ .

قال : فلما سمعت خديجة كلامه ، قالت : والله يا محمد إن كان مالك قليلا فمالى كثير ، ومن يسمح لك بنفسه كيف لايسمح لك بماله ؛ يا محمد أنا ومالى وعبيدى وجوارى وجميع ما أملك كله بين يديك وفى قبضتك وفى حكمك ولا أمنعك منه شيئا أبدا ولا أخبئه عنك ، ولا تبعدنى يا محمد من قربك ووصلك يا حبيبى ويا قرة عينى ؛ ثم إن خديجة زفرت وبكت وأنشأت تقول :

والله ما هبّ نسيم الشمال　　إلا تذكرت زمان الوصال
ولا أضاء من نحوكم بارق　　إلا توهمت لطيف الخيال
أحبابنا ما خطرت فرقة　　عنكم غداة الوصل منى ببال
جور الليالى خصّنى بالجفا　　منكم ومن يأمن جور الليال
رقوا وجودوا وارحموا　　لابد لى منكم على كل حال

قال الراوى : ثم إن خديجة قالت : وحق رب احتجب عن الأبصار وعلم بحقيقة الأسرار ، ما قلت لك إلا حقا ولا تكلمت إلا صدقا ، قم الآن إلى عماك أبى طالب وعمومتك وقل لهم يخطبونى من أهلى ، ولا تخف من مهرى الثقيل ، فان كان أبى يطلب منك مالا كثيرا ، فأنا أبذل لك أموالى كلها



وذخائري ، فأنا لك طالبة وفيك راغبة ولا أريد سواك ولا تخيب قصدي وظني . قال : فخرج من عندها وأتى إلى عمه أبي طالب والسرور في وجهه ، فوجد أعمامه كلهم مجتمعين ، فنظر إليه أبو طالب وسائر أعمامه وقالوا له : يهنيك ما أعطتك خديجة من العطايا والأموال ، فقال لهم : يا أعمامي قوموا فانَّ لي مَعَكُمْ حاجَةً ، قالوا : وما حاجتك يا محمد ؟ قال : سيرُوا إلى خَدِيجَةَ بِبَرَكاتِ اللهِ تَعالى واخْطُبُوها لي مِنْ أبيها . قال : فلم يرد عليه أحد منهم جوابا ولا كلاما غير أبي طالب ، قال له : يا حبيبي إننا انحبسنا في مكاننا هذا نتشاور في أمرك ، وفي رضاك وطوعك نحن نسير ، وأنت تعلم أن خديجة امرأة كاملة ميمونة تخشى العار ، وقد عرفت برجلين : أحدهما عتيق بن عائد ، والآخر عمرو الكندي ، وقد رزقت ولدا ، وقد خطبها ملوك العرب وصناديد قريش والسادة من بني هاشم وملوك اليمن وأكابر الطائف ، وقد بذلوا لها من الأموال فلم ترغب في أحد منهم ، وإن نفسها أكبر منهم ، وأنت يا ابن أخي لامال لك ولا تجارة ولا خدم ولا عبيد ، فقال : يا عَمِّ هِيَ قالَتْ امْضِ إلى أعْمامِكَ واخْطُبْنِي مِنْ أهْلِي ، فقال أبو طالب : إن كلام خديجة كله مزاح لايغرك كلامها وإياك أن تسمع قريش بهذا الكلام ، فقال أبو لهب : يا ابن أخي لاتجعلنا مضحكة بين العرب وأنت رجل فقير لامال لك ولا ثروة ، ولا يصلح لك أن تتزوج بخديجة ، قال : فنهره العباس وقال : أمسك عن هذا الكلام ، وماذا تقولون في ابن أخي محمد ، والله إنه أكبر منهم حالا وأعظم هيبة وجمالا وشرفا وكمالا ، وبماذا تستكبر عليه خديجة ؟ إن كانت تتكبر بمالها وجمالها وتطلب منه شيئا لايطيقه لأركبنّ جوادي وأطوف الفلوات وأدخل على الملوك والسادات حتى أجمع لمحمد كل ما تطلب منه خديجة من المال ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : مَعاشِرَ الأعْمامِ قَدْ أطَلْتُمُ الكَلامَ وأكْثَرْتُمُ المَقالَ ، قُومُوا مِنْ وَقْتِكُمْ هَذَا واخْطُبُوا لي خَدِيجَةَ فَما عِنْدَكُمْ مِنَ العِلْمِ مِثْلَ ما عِنْدِي مِنْها . قال : فنهضت صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم وقالت : اعلموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق اللهجة واضح الحجة ، فان كانت خديجة مازحة في قولها ، فأنا أبين لكم باطن الحديث .



ثم إنها لبست ثيابها وسارت إلى منزل خديجة ، فلقيها بعض جوارى خديجة فى الطريق ، فسبقتها ومضت إلى مولاتها وأخبرتها بقدوم صفية عمة النبى صلى الله عليه وسلم وكانت فى أعلى الدار ، فنزلت لقدومها وفتحت لها الباب ولاقتها بالرحب والسعة والإكرام ، فقالت لها صفية : يا خديجة ما جئناك لأكل الطعام والشراب ، ولكن أتيتك يا بنت العم لأنه قد نقل إلينا من أجلك حديث ، وقد جئت أسألك عنه كيف هو صحيح أم لا ؟ فقالت خديجة : إن كان الحديث الذى نقله إليكم محمد قرة عينى وحبيبى فهو صحيح صحيح ، إن شئتم تخفونه وإن شئتم تفشونه ، فانى قد خطبت محمدا صلى الله عليه وسلم لنفسى فلا تكذبوه أبدا إن نقل إليكم حديثا ، فانى قد علمت أنه مؤيد منصور من رب السماء ولابد منه على كل حال إن رضيتم وإن لم ترضوا ، فلما سمعت صفية كلامها ضحكت وفرحت واستبشرت وقالت يا خديجة : إنك معذورة فيمن أحببت من غير ملامة ، فوالله يا خديجة ما شاهدت عينى مثل جبينه يزهر من تحت عمامته ، ولا أعذب من كلامه ولا أحلى من نطقه . قال : ثم إن صفية عزمت على الخروج من عند خديجة فقالت لها : أمهلى قليلا ههنا حتى آتيك . ثم إن خديجة مضت وأتت بخلعة سنية فاخرة وأعطتها صفية وضمتها إلى صدرها وقبّلت ما بين عينيها وقالت : يا صفية برب الكعبة العظيمة إلا ما ساعدتينى على ما أطلب من قرب محمد صلى الله عليه وسلم لعلى أفوز بوصاله ؟ قال : وخرجت صفية من عندها طالبة منزلها ، فلما أقبلت على أخواتها قالوا لها : ما وراءك يا صفية يا بنت الصّادقين ؟ قالت لهم : والله إن خديجة عندها من الرغبة والوداد والمحبة والاشتياق شىء عظيم ، فان كنتم تعزمون فقوموا من وقتكم وساعتكم هذه ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم ما نطق لكم إلا بالحق ولا تكلم إلا بالصدق ، فقال لهم العباس : يا إخوتاه ما جلوسكم ههنا وقد حصل السؤال والقصد والمراد ؟ قال : فنهض أولاد عبد المطلب قاصدين منزل خديجة ، وقد لبس النبى صلى الله عليه وسلم أفخر ثيابه وتقلّد بسيفه وركب جواده جوادا أدهم أغر محجلا له سرج مذهب مرصّع بالدُّرّ والجوهر ، وقد دار أعمامه حوله محدقين به ، وساروا حتى وصلوا منزل خديجة ، فلحقهم أبو بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه وقال : إلى أين عزمتم يا أولاد



عبدالمطلب ، لقد كنت قادما إليكم فى حاجة خطرت ببالى ، فقال له العباس : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : رأيت فى المنام كأن نجما قد هوى من السماء وهبط إلى الأرض فى منزل خديجة ، ودخل معها تحت الثياب ، فهذه رؤياى فأخبرونى إلى أين تذهبون ؟ فقالوا : هانحن والله سائرون إلى خديجة وعلى خطبتها مستعجلين . قال : ثم ساروا قاصدين حتى وصلوا منزل خديجة ، فسبقتهم الجوارى إلى خديجة وأخبروها بقدومهم ، وأخبروا خويلدا بذلك فقام إليهم ، فلما رأى أعمام النبى صلى الله عليه وسلم تلقاهم بأحسن ملتقى وحياهم بأحسن تحية وقال : أهلا وسهلا ومرحبا بكم يا أصحاب المكارم ويا سكان البيت الحرام ، مرحبا مرحبا بكم أيها الكرام ، وقال لهم : انزلوا بالرحب والسعة والكرامة . فلما جلسوا قال أبو طالب : اعلم ياخويلد أننا نحن وإياك سواء ، نحن بنو أب واحد وأم واحدة ، ونحن مقاديم العرب وسادات مكة شرّفها الله تعالى ، وليس أحد فضله كفضلنا وشرفه كشرفنا ، ونحن من الأشراف وسكان الحرم والصفا ومكة والبطحاء ، وقد أتينا إليك راغبين ولابنتك خديجة خاطبين وفى وصلك رائدين فهل أنت راغب فيمن رغب فيك ؟ قال خويلد : ومن الخاطب ؟ قال أبو طالب : الخاطب هو ابن أخينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فلما سمع كلام أبى طالب تغير لونه وازورّ وجهه وقال : والله إن فيكم الكفاية ، وأنتم منا ونحن منكم وأنتم أحبابنا وأعز الخلق عندنا ، غير أن خديجة امرأة قد كمل عقلها وملكت رأيها ، وهى ترى فى نفعها مالا أراه ، ولها عقل كامل دون عقلى ورأيها دون رأيى ، وأنا لاتطيب نفسى بتزويجها أبدا ، فقد خطبتها الملوك والأشراف فأبت عنهم ، فكيف أزوّجها برجل فقير صعلوك . قال : فقام له الحمزة بن عبد المطلب وقال : يا خويلد لاتقدّر اليوم بالأمس ولا يشاكل القمر بالشمس ، ويلك يا قليل العقل ويا صاحب الجهل ، كأنك قد ضل رشدك وغاب عنك عقلك ، تثاب سيدا كريما فاضلا عظيما ، وتعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ابن أخينا وسراجنا وبدرنا ، إذا احتاج إلى أموالنا وأرواحنا قدمناها فداءه وحضرنا الجميع إليه ، ولكن سوف ننبئك ونبين لك غبّ فعلك . قال : ثم إن الحمزة قام قائما على قدميه ونفض ثيابه وهو مغتاظ وإخوته كلهم ومضوا إلى منازلهم .



قال : فبلغ الخبر ووصل إلى خديجة أن أولاد عبد المطلب مضوا من عند خويلد من غير رضا ، فأرسلت جاريتها وكشفت لها الخبر ، فقالت الجارية : سيدتى إن أباك قد رد السادة ولم يقبل منهم خطبة وقد رجعوا خائبين . قال : فلما سمعت كلام الجارية زاد بها الويل والثبور والحزن والكمد والغيظ ، فقالت لجاريتها : يا سعادة عجلى واقصدى منزل عمى ورقة وقولى له : إن سيدتى تدعوك لأمر قد عرض لها فلا تتأخر عنها . قال : فمضت الجارية عجلة فى سيرها وقصدت إلى بيت ورقة وقالت له : يا سيدى مولاتى بنت أخيك السيدة الكريمة خديجة تدعوك لأمر قد عرض لها فى هذه الساعة فلا تتأخر عنها ، فقال ورقة حبا وكرامة لله ولها . قال : ثم إنه قام وأقبل مع الجارية إلى خديجة . فلما رأته خديجة قامت إجلالا له وإكراما لقدره ورفعت مجلسه وقالت له : مرحبا بك أهلا وسهلا يا عم الشقيق ، لاغابت عنى طلعتك ولا عدمت مؤانستك ورؤيتك . ثم إن خديجة أطرقت رأسها إلى الأرض وبكت وقطبت حاجبيها ، فقال لها ورقة : حاشاك يا خديجة من السوء والغم والحزن الذى قد نزل بك وتعلّق بقلبك . قالت خديجة : يا عم ما حال السائل ؟ قال ورقة : فى حسن الحال ، وأراك يا خديجة تخاطبيننى بمثل هذا الكلام كأنك يا خديجة تريدين الزواج ؟ قالت : نعم ، قال : يا خديجة اعلمى أنه قد خطبك الأشراف من القبائل والعرب والملوك والسادات من ذوى الرتب ، وخطبك الكرام من الرجال والأبطال ولم ترضين بأحد ؛ قالت له : ياعم لست أريد رجلا يأخذنى ويخرجنى من مكة شرّفها الله تعالى ويبعدنى عن أهلى وعن وطنى ، ولست أتزوّج إلا بمن يكون من سكانها ، فقال لها : يا بنت أخى قد خطبك شيبة ابن ربيعة ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبو جهل بن هشام ، والصلت بن أبى المخزوم فأبيت أن تتزوّجى بأحد منهم . قالت : يا عم ما أريد من يكون فيه عيب أبدا . ثم قال : يا خديجة أتعرفين عيوبهم ؟ قالت : نعم يا عم ؛ قال ورقة : أحب أن تصفى لى عيوبهم ؛ قالت : يا عم أما شيبة بن ربيعة فان فيه سوء الظن وكثرة الكلام فى عرض الناس ؛ قال : يا خديجة صفى لى عيب الثانى ، قالت : وأما أبو جهل فانه بخيل متكبر وكبير النفس بئس القرين ؛ قال : صفى لى الثالث ، قالت : وأما الصلت بن أبى المخزوم فانه رجل كثير



الغضب ملول النساء مطلاق وكذا عقبة ، قال : وهذا بئس القرين . قالت : يا عمى هل خطبنى أحد غير هؤلاء ؟ قال : نعم ، خطبك محمد صلى الله عليه وسلم ، قالت : نعم ، صف لى عيوبه ؛ قال : فلما سمع عمها كلامها أطرق رأسه إلى الأرض وقال : أصف لك عيوبه يا خديجة ؟ قالت : نعم ، قال ورقة : أما محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فان أصله وفرعه جليل وطرفه كحيل وخلقه جميل وفضله عميم وجوده عظيم ، والله يا خديجة ما كذبت فيما قلت ، فقالت يا عم صف لى عيبه كما وصفت لى فضله ، فقال ورقة : يا بنت أخى إن محمدا صلى الله عليه وسلم وجهه أقمر وجبينه أزهر وطرفه أحور ، ولفظه أحلى من السكر ، ونكهته أطيب من ريح المسك والعنبر ، إذا مشى كان وجهه كالقمر إذا بدر ، بل هو أنور وأبهى وأسنى وأزهر ، فقالت : يا عم صف لى عيبه ، قال ورقة : يا خديجة إن محمدا صلى الله عليه وسلم مخلوق من الحسن والجمال والبهاء والكمال ، أصله عال شامخ ، وهو أحسن الناس سريرة وأفضلهم سجية ، لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللاصق ، إذا مشى يتحدر شعره كظلام الليل البهيم ، وخده أنور وجبينه أزهر ووجناته كالورد الأحمر ، وريح أنفاسه أطيب من المسك والعنبر . قال : فلما سمعت خديجة كلام عمها ورقة ، قالت له : يا عم كلما قلت لك صف لى عيبه أكثرت فى مدحه ، فقال لها : يا خديجة وهل أمدحه أنا وحدى أو كل الناس تمدحه . وأنشأ يقول :

لقد علمت كل القبائل أنَّ حبيب الله أطهرهم قلبا

وأصدق من فى الأرض قولا وأفضل خلق الله كلهم قربا

عليه صلاة الله ثم سلامه ما سارت الحجاج وعبدوا الربا

قال الراوى : قال ورقة : يا خديجة أخبرك بأن محمدا صلى الله عليه وسلم سيد كريم حليم فاضل رحيم ؛ قالت خديجة : يا عم أرى الناس يثلبونه مثل أبى لهب وأبى جهل لعنهم الله ؛ قال ورقة : اعلمى يا بنت أخى ما يثاب محمدا صلى الله عليه وسلم إلا أولاد الزنا فكيف يا خديجة يثلبونه ؟ قالت : يقولون إن محمدا صلى الله عليه وسلم فقير لا مال له ولا ثروة ؛ فقال ورقة : يا خديجة أما سمعت قول الشاعر :

ألم تعلمى أن السباع خوامص　　من الجوع والطير الشريف حواسر
فما المال إلا مثل زرع ببلدة　　فجاء سموم الصيف أصبح خاسر
إذا سلم الإنسان من عطب الردى　　فما المال إلا مثل قلم الأظافر

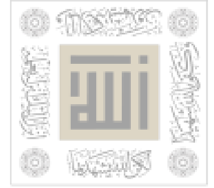
قال الراوى : فلما سمعت خديجة كلامه رفعت رأسها من الأرض وقد تهلّل وجهها فرحا وسرورا ، ثم قالت : يا عم أصبت فيما وصفت ، وإن كان محمد صلى الله عليه وسلم ماله قليل كثرناه ، وإنى أحبه وقد داخلنى من محبته الشوق والغرام ، وأزال عنى نوم المنام ، فبالله عليك إلا ما كتمت أمرى يا عم وساعدتنى بوصاله وفرحتنى . قال : فلما سمع كلامها ورقة قام إليها وقبّل رأسها وعينيها وقال : والله يا بنت أخى إن فعلت ما قلت فقد سعدت وأفلحت فانك ترشدين وتعزين ، فانه نبى كريم ورسول عظيم ، فوالله يا خديجة إنه نبى الأمة وسراج الظلمة وكاشف الغمّة . فقالت خديجة : يا عم إنى أحبه محبة عظيمة ولا لى عنه صبر ولا جلد ، وقد أتانى يوما من الأيام وذكر لى الخطبة فذكرت له بأن يخطبنى من عند أبى خويلد . فلما قدمت عليه السادات والأشراف من أولاد عبد المطلب ومعهم محمد صلى الله عليه وسلم وذكروا له الخطبة فأبى عليهم أن لا يكون ذلك أبدا ، وأنا إنما أردت أن تفرج همّى وتكشف غمّى وتكون دليلى إلى هذا الأمر . قال : فلما سمع ورقة ذلك من خديجة ضحك فى وجهها وقال : يا خديجة إن زوجتك بمحمد صلى الله عليه وسلم فما يكون حقى عليك وما تعطينى حتى أجدّ فى هذا الأمر هذه الليلة ؟ قالت خديجة : يا عم وهل لى شىء دونك ، أو أخفى عليك المال ؟ فان أموالى وذخائرى ومنزلى كلها بيدك ، وأنا كما قال الشاعر :

إذا تحققتم ما عند صاحبكم　　من الغرام فذاك العذر يكفيه
أنتم سكنتم بقلبى وهو منزلكم　　وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

قال الراوى : قال ورقة : يا خديجة أنا ما أريد منك شيئا من حطام الدنيا ، وإنما أريد أن تضمنى لى الشفاعة من محمد صلى الله عليه وسلم ، قالت خديجة : يا عم مالك ذلك منى ، فقال يا خديجة اعلمى أن بين أيدينا حسابا وعقابا ومناقشة وعذابا ، وما ينجو من ذلك إلا من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وصدق برسالته ، ويا ويل من زحزح عن الجنة وأدخل النار .



قال : ثم خرج ورقة من عند خديجة ودخل على أخيه خويلد ، وقد رآه جالسا يشرب الخمر وقد غلب عليه السكر ، فنهض لأخيه ورقة وأجلسه إلى جانبه وقال له : يا أخي ما تشرب من هذا الشراب ؟ فقال ورقة : كيف يقبل الشراب من يقتل أخاه ، فقال خويلد : وكيف يقتل من هو جالس في بيته وليس للناس عنده تبعة ولا طلابة ؟ فقال له ورقة : كيف لاتقتل وأنت بالأمس قد رددت الأشراف والسادات الكرام أولاد عبد المطلب وقلوبهم تغلي عليك كغلي القدور على النار الحامية ، وقد حلف عليك الأسد القاصم والشجاع الهاجم حمزة بن عبد المطلب بأنه يهجم عليك في دارك ويقطع آثارك ؛ قال خويلد : وقد طار السكر من رأسه ، فيا أخي أيّ ذنب كان مني وأي جُرم بدا مني في بني هاشم حتى يفعلوا بي هذا الذي تقول ؟ قال ورقة : يا أخي سمعت عنك بأنك تثالب ابن أخيهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، تقول إنه فقير ، فان كان هذا الكلام صدر منك فانك مستحق للقتل والصدق أنجى وأوفى وأعفى ، والله والله يا خويلد ما وطئ الثرى وأظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ولاأكرم ولا أحسن منه ، أنسيت ما جرى له في سفره من الدلالات والمعجزات ، وما ظهر له في صغره وكبره ، فما يثلب محمدا صلى الله عليه وسلم إلا الفاجر اللعين اللئيم . قال خويلد : والله يا أخي ما يثلب هذا الرجل أبدا ، وإني أعلم يقينا صادقا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم خير مني ، وإنما هو طلب مني أن يتزوج بخديجة . قال ورقة : وإن طلب محمد خديجة فلماذا تتكبر عليه ؟ قال خويلد : والله يا أخي ليس لنا عليه تكبر ولا شرف ، غير أني خشيت من أمرين : الأول أن تسبني العرب حيث رددت أكابر مكة وأزوّجها بفقير ، والثاني أنها لاترضى . قال ورقة : أما العرب فما منهم من أحد إلا ويشتهي أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم نسيبه ، وأما ما كان من خديجة فلما رأت من فضله وفخاره رضيت به ، وأما أنت فقد جلبت لنفسك العداوة على القتل ، وإنهم يهجمون عليك ويقتلونك ويخمدون أنفاسك في جوف الليل أو في هذه الساعة أو بعدها وليس لك عن قتلهم مفرّ ، وإني أعلم يقينا أن كل من يلقاك منهم يقتلك لامحالة سيما ذلك الأسد الهجوم والسبع القصوم والقضاء المحتوم حمزة بن عبد المطلب ،




فوالله إن قبلت مني وقمت معي ودخلت على القوم نسألهم أن يرفعوا عنك يد العداوة وتزوج خديجة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يصالح لها إلا محمد صلى الله عليه وسلم . قال خويلد : والله يا أخي إن نفسي تحدثني عنهم بما أكره ، وليس أجسر على القدوم عليهم ، وأخاف أن يكون ذلك سبب تلف الروح حيث إنهم غضبوا مني ولم يمش لي معهم حال . قال ورقة : عليّ ضمان هذا الأمر ، إني لأدعهم يفعلون فيك مكروها أبدا ولا ينالك سوء . قال خويلد : قم أنا وأنت يا أخي ، فنهضا جميعا وسارا حتى دخلا إلى دار بني هاشم فوقفا على الباب ، وكان من الأمر المقدور أن ذلك الوقت كان أولاد عبد المطلب جلوسا وهم مجتمعون وبينهم النبي صلى الله عليه وسلم كالقمر المنير ، وهم يتذاكرون الأمور التي جرت من خويلد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له حمزة : يا سيدي وقرة عيني جعلت فداك لوأمرتني بخويلد لهبطت عليه وهدمت داره على رأسه وضربت عنقه ، وكان من الأمر المقدور أن خويلدا وأخاه ورقة وقوف على الباب وهما يسمعان الحديث والمقال من حمزة بن عبد المطلب . قال خويلد لأخيه ورقة : اسمع يا أخي حديث حمزة ، فقال ورقة : اسمع أنت ما جرى منك وأنا ما قلت لك إلا ما جرى وما وقع ، وإني خائف عليك منه ، قال خويلد : يا أخي الآن نرجع ، فقال ورقة : الآن ترى ما أصنع بهم ولا تخف ، فان القوم صادقو اللهجة واضحو الحجة ما يبعدون من قريب منهم ، ولا يهجرون من دخل عليهم وخضع . قال : ثم إن ورقة قرع الباب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الآنَ يَكُونُ دُخُولُ خُوَيْلِدٍ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى ، فقام الحمزة ليفتح الباب ، فوجد ورقة وخويلداً وقوفا على الباب ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

قال الراوي : فقال أبو طالب بعد أن رأى ورقة مع خويلد ويده في يد أخيه قال : انصلحت الأمور باذن الواحد الغفور . فلما دخلا نادى خويلد وقال : أنعمتم يا أولاد عبد المطلب صباحا ولقاكم الله فلاحا وأعطاكم سرورا ونجاحا ، ودفع عنكم الأسى والقضا والبؤس والشرور في كل صباح ومسا ، ياسكان الحرم والصفا ، يا أولاد زمزم والبطحا وأبي قبيس وحرا ، فناداه أبو طالب : وأنت يا خويلد كفاك الله تعالى كل ما تخاف وتحذر وتخشى ،

ولا شمّت الله بك الأعداء ، فقال الحمزة : لامرحبا بك يا خويلد ولا أهلا ولا سهلا بمن طالب منا البعد والجفا ، وأرانا الصدود والقلى ؛ قال خويلد : يا ابن عبد المطلب العذر العذر إلى الله منى إليكم يا سادات العرب يا ذوى المعالى والرتب ، وإن كان هذا الأمر قد وقع منى فهو بغير اختيارى وأنتم تعلمون بأن خديجة ابنتى كاملة العقل وافرة المال حسنة الحال والخصال ، جيدة الذهن مالكة لنفسها ، وقد تكلمت بهذا الكلام على غير عقل منى ولا ذهن ، والآن لما وجدت أن الأمور الآمرة بولدكم رضيت وفيكم طالبة وراغبة ، وقد جئت إليكم لتقبلوا عذرى وتغفروا ذنبى ، فانى الآن محب لكم كما قال الشاعر :

ومن عجب الأيام أنك هاجرى   وما زالت الأيام تبدى العجائبا
ومالى ذنب أستحق به الجفا   وإن كان ذنب أتيتك تائبا

قال الراوى : ثم قال خويلد : والآن يا أولاد عبد المطلب فان خديجة لكم محبة وأنا أيضا موافق لها لأجل القرابة والنسابة ، فلا تشمتوا بنا الأعداء وكونوا كما قال القائل حيث يقول :

واعدونى الوصال فالوصل عذب   وارحموا فالفراق والهجر صعب
زعموا حين عاينوا جرمى   فرط حبى لهم وما ذاك ذنب
وحق الخضوع عند التلاقى   وما جزاء من أحب ألا يحب

قال الراوى : قال حمزة : والله يا خويلد أنت عزيز كريم ، وما جئناك إلا مختارين وصلك وقربك دون غيرك ، فكيف يا ابن العم لما جئناك تطردنا ومن قربك تبعدنا ؛ فوالله يا ابن العم ما قلت لك إلا كما قال القائل :

عليك بحصن من رجال فاننى   رأيت حصونا من صخور تهدّمت
ففى عزمات الأمر تلقى مساعفا   فكم حدود للمواخى تثلّمت

قال الراوى : فلما سمع ورقة وخويلد شعر الحمزة بن عبد المطلب قال ورقة : والله يا حمزة إننا لمحمد صلى الله عليه وسلم محبون ولقولكم سامعون ولأمركم مطيعون ، وإنما أريد أن تكون هذه الخطبة معلومة يسمعها الخاص والعام ، فقال ورقة لحمزة : اعلم أن هنا كلاما نعلمكم به ، اعلموا أن أخى له لسان كان لايخلص به عند العرب ، وأريد بحضرتكم أن يوكلنى على عقد النكاح وأمر الخطبة ، فاذا وكلنى كنت أنا المجيب عنه والمتكلم بين أيديكم ،



وأنتم تعلمون أنى قد قرأت فى الكتب والتواريخ وتفقَّهت فى سائر الأديان والأحكام ؛ قال حمزة بن عبد المطلب : هو يوكلك ، قال ورقة : يا قوم اسمعوا كلامه ؛ قال خويلد : يا بنى هاشم إنى أشهدكم جميعا بأنى قد وكلت أخى ورقة على تزويج ابنتى خديجة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قبلت منه سائر الأمور والأحوال . قال ورقة : أريد أن تكون هذه الأمور كلها عند الكعبة شرّفها الله تعالى . قال : فقاموا من وقتهم وساعتهم ومضوا إلى الكعبة ، فوجدوا العرب كلهم مجتمعين عندها وحولها حافين بين زمزم والمقام ، وهم جلوس يتحدثون مثل : النضر بن الحرث ، ومطعم بن عدى ، والصلت بن أبى حازم المخزومى ، وسلام بن الحجاج ، وهاشم بن المغيرة ، وأبى جهل ابن هشام ، وعثمان بن المبارك العميرى ، وأسد بن غوياب الدارمى ، وعقبة ابن أبى معيط ، وأمية بن خلف ، وأبى سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية وسادات مكة كلها .

قال الراوى : فلما أشرف ورقة وخويلد عليهم نادى ورقة أنعمتم أيها السادات صباحا ، وكفيتم شر الإيذاء رواحا ومساء ، وقمع الله عنكم رءوس الأعداء يا أولاد زمزم والحرم والصفا وأبى قبيس وحراء ومن إليهم تضرب الأقطار فى جميع الورى . قال : فتكلم كل من حضر من العرب وقالوا : مرحبا بك وأهلا وسهلا يا أبا البيان . قال ورقة : اعلموا يا قريش وبنى زهرة وبنى مخزوم وبنى النضر وبنى الحارث وبنى لؤى وبنى غالب ، ويا جميع من حضر أنى أسألكم فى مسألة فما تقولون ؟ فقالوا بأجمعهم : قل ما بدا لك من الأمر ، قال ورقة : أيها السادات الأشراف من قريش ما تقولون فى خديجة بنت خويلد وحسنها وجمالها وكمال عقلها ومالها ، فقالوا : هنيئا لها لقد ذكرت والله يا ورقة ذات الشرف الأوفى ، وذات النسب الأعلى ، وذات الأصل وذات الجمال والكمال الأسنى ، فقال ورقة : أتحمدون أنها تكون بلا بعل ؟ قال الحاضرون : هذا الأمر لايكون أبدا ، واعلم يا ورقة أن الخطاب لها كثيرون وأبت عن فى تزويج بأحد منهم . قال ورقة : يا سادات العرب اشهدوا أن أخى خويلدا هذا قد وكلنى فى تزويج ابنته خديجة وإنها أيضا أعلمتنى أنها تريد سيدا من سادات قريش ، وسألتها عن اسمه فأبت أن تعلمنى ، وأشتهى أن



تسمعوا منها الوكالة وأريد أن تحضروا فى غداة غد إن شاء الله تعالى فى منزل خديجة فما يسعكم غيره ، فاذا حضرتم تنظر هى إلى أى سيد من السادات يكون مطلبها وتشير إليه بالعقد والإرادة . قال : فلما سمع الحاضرون كلام ورقة ما فيهم أحد إلا وفرح واستبشر وقال فى نفسه : والله ما لها رغبة إلا وأنا المطلوب ، ثم قالوا بأجمعهم : يا ورقة أنت نعم الوكيل ونعم الكفيل ؛ قال ورقة لأخيه خويلد : يا أخى تكلم بلسانك ما دامت السادات حاضرين حتى يشهدوا على نطق لفظك بالوكالة لى ، فقال خويلد : اشهدوا علىّ أيها السادات والأكابر والأشراف من قريش أنى قد نزعت نفسى من وكالة ابنتى خديجة ، وقد صرت متخلفا من الوكالة ، وخلعتها منى لأخى ورقة ، فانه ولى أمرى وشقيقى وكفيلى ووكيلى فيها ، لاأمر فوق أمره أبدا ، ولا كلام فوق كلامه أبدا ؛ قال ورقة : اسمعوا يا سادات الأمم والأشراف من قريش ، ويا جميع العرب اسمعوا كلامه وهو غير مقهور ولا مجبور ولا مجنون ولا مخمور ، أنى صرت وكيل ابنة أخى خديجة بنت خويلد أزوّجها بمن تريد ومن تشاء ، قالت العرب : سمعنا وشهدنا بجوار البيت الحرام .

قال الراوى : وخرج خويلد وهو فرح مسرور ، فلما نظرت خديجة إلى ورقة قد أقبل إليها قالت له : أهلا وسهلا ومرحبا بك يا عم ، قد قضيت لى حاجة ؟ قال ورقة : يهنيك الأمر والسلامة والفتح بالخير والكرامة ، قالت خديجة : يا عم وما الأمر الذى أتيت به تبشرنى ؟ قال : وقيت العنا ولك الفرح والسرور فقد صرت أنا وكيلا وكفيلا على أمر التزويج ، وقد خلع أبوك نفسه ؛ قالت له خديجة : آثرك الله بالسعد يا عم ومتى يكون هذا الأمر ؟ قال فى غداة غد إن شاء الله تعالى .

قال الراوى : فلما سمعت خديجة كلام عمها ورقة لم تتمالك من عقلها شيئا من شدة الفرح والسرور ، ثم إنها خلعت عليه فى ذلك الوقت خلعة سنية فاخرة تساوى ألف دينار كان قد اشتراها لها غلامها ميسرة من بلاد الروم بسمائة دينار أحمر ؛ قال ورقة : يا خديجة مالى رغبة فى حطام الدنيا ، فما أنا راغب ولا أريد سوى الذى كان بيننا ، قالت خديجة : ولك ذلك يا عم ما طلبت . ثم قال لها جهزى أمرك وخدمك وأخرجى ذخائرك وعلقى ستورك وانشرى



حللك واكمدى عدوك وحاسدك ، فما يدخر المال إلا لمثل هذا اليوم ؛ واصنعى وليمة لاينقص منها شيء ، فإن العرب فى غداة غد يجتمعون فى منزلك . قال : فلما سمعت خديجة كلام عمها ورقة نادت فى عبيدها وجواريها : أخرجوا كل ما كان عندكم من الذخائر والوسائد والمساند والبسط والزوالى والروميات وجميع ما كان عندكم من الألوان المختلفة ، والحلل الكثيرة الأثمان والعقود والقلائد ، وقد رأوا فى تلك الليلة فى منزل خديجة برسم الخادم من الجوارى والعبيد والإماء مائة وستين جارية التى كانت برسم الخدمة وحمل الآنية فى البيت وثمانين أجيرا وأربعين مرهونا ، وكان لخديجة مال عظيم لايعد ولا يحصى . قال : وأمرت خديجة بذبح الذبائح وعقر العقائر ونحر النحائر وعقد الحاويات المعقودات من القند والتمر وغير ذلك ، وجمعت فواكه كثيرة من اليمن ومن الطائف وما يناسب ذلك ، وإن ورقة لما خرج من عندها قصد منزل أبى طالب فوجد إخوته مجتمعين حول محمد صلى الله عليه وسلم فناداهم وقال : ما يقعدكم عن إصلاح شأنكم ، انهضوا إلى أمر خديجة ، فقد صار أمرها إلىّ ، وفى غداة غد أزوّجها بمحمد صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى ، وما فعلت ذلك إلا محبة منى فى ابن أخيكم ، فعندها قال النبي صلى الله عليه وسلم : لاأنْسَى اللهُ تعالى لَكَ هَذه الفعالَ وَلَكَ عِنْدِى الفَضِيلَةُ والإحسانُ يا وَرَقَةُ . قال : ثم نادى أبوطالب : الآن قد طاب قلبى وعلمت أن ابن أخى بلغ المنى ، فقال لهم ورقة : جهّزوا أحوالكم وأصلحوا شأنكم . فبادر بنو هاشم فى إصلاح شأنهم ، وخرج ورقة فرحا مسرورا ، ونهض أبوطالب لعمل الوليمة وإخوته من حوله مجتهدون معه ، فعند ذلك اهتز العرش والكرسى عجبا وطربا وفرحا وسجدت الملائكة كلهم ، وأوحى الله تعالى إلى رضوان خازن الجنان أن يزينها ويصفّ الحور العين والولدان ، ويصفّ أقداح الشراب ويزين الكواكب والأتراب ، وأوحى الله تعالى إلى الأمين جبرائيل عليه السلام أن ينشر لواء الحمد على الكعبة شرفها الله تعالى ، وتطاولت الجبال وسبّحت بحمده ملائكة الملك المتعال بما خص الله تعالى نبيه وحبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وفرحت الأرض واستبشرت وأظهرت الفرح والسرور وأزهرت ، وأخرجت سائر النبات كرامة وشرفا وفخرا بما خص الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ، وباتت



مكة تلك الليلة شرّفها الله تعالى تخلى بأهلها كغلى القدور على النار .

قال الراوى : فلما أصبح الصباح أقبلت الطوائف والأكابر من القبائل والعشائر وجميع سادات مكة شرفها الله تعالى ، ودخلوا منزل خديجة رضى الله عنها ، فوجدوها قد أعدت لهم المسانده والوسائد والكراسى والمراتب ليجلس كل واحد منهم فى مرتبته ، فدخل أبو جهل لعنه الله وهو يسحب أذياله ويتبختر فى مشيته ويجر أطماره وقد رفع عذبة عمامته من ورائه ، ورد حمائل سيفه على عاتقه ، وقد أحدقت به بنو مخزوم ، فنظر إلى صدر المجلس ، وقد نصب فيه أحد عشر كرسيا ، وقد صفت فى أعلى مكان لم ير أحسن منه ، فتقدم وزعم أن ذلك المكان له ، فصاح به ميسرة رحمه الله يا سيدى تمهل قليلا ولا تعجل فقد وضعت منزلك فى بنى مخزوم ، فرجع أبو جهل لعنه الله وهو خجلان وجلس ، فما كان إلا قليل وإذا بصيحات قد علت وصرخات قد نمت والعرب قد وثبت ، وقد أقبل حمزة والعباس عليهما السلام إلى جانبه وسيوفهما مجردة فى أيديهما وهما يناديان : يا معاشر السادات أهل المراتب الزموا الأدب وأقلوا الكلام وانهضوا على الأقدام ولا تطيلوا الملام ودعوا الكبر ، فقد جاءكم راعى الذمام والداعى غدا إلى دين الإسلام ، وناصر دين الملك العلام ، ومبيد دين الأصنام ، محمد صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله بن عبد المطلب ، المتوّج بالأنوار صاحب الهيبة والوقار قد وفد عليكم . قال : فنظرت العرب وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم قد دخل وهو متعمم بعمامة خضراء يلوح جبينه من تحتها ، وعليه قميص عبد المطلب وبردة إلياس ، وفى رجليه نعلان جديدان لجده عبد المطلب ، وفى يده قضيب ابراهيم الخليل عليه السلام ، وفى يده خاتم من العقيق الأحمر ، وقد شمّر طرف بردته والناس قد أحدقوا به للنظر إليه ، وقد أحاطت به عشيرته وحمزة يحجبه وقد شخصت له الأحداق ونظر إليه بالآماق جميع المخلوقات بالبشارات يسلّمون عليه ، وذهلت لهم الأمم ، وقام كل قاعد منهم على قدم ، وأخرست منهم الألسن ، وما فيهم من يتكلم بكلام حتى سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسلام ، وأشار إليهم بالكلام ، فنهضوا لهيبته قياما على الأقدام ، ولم يبق منهم أحد جالسا فى المجلس سوى أبى جهل لعنه الله ، وقال فى نفسه : إن كان لخديجة رضى



الله عنها إرادة ، فوالله لاتأخذ إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فنزل به الحسد والكمد وظهر منه البغض والعداوة ، واحمرّت عيناه وعادت فى أم رأسه وذرفت ، وانتفخت أوداجه ، ومد يده إلى قائم سيفه . فلما رأى ذلك الحمزة ابن عبد المطلب قام إليه وسلّ سيفه من غمده وقال : يا ويلك اجلس لاجلست وقم لاسلمت ولا نجوت من المصائب يا أبا جهل يا ملعون ، فعند ذلك ازداد أبوجهل غيظا وحسدا وأراد الفتنة ، فقبض الحمزة بن عبد المطلب على يده اليمنى وكبسها وقال : ويلك يا أباجهل ، فهل أنت ممن يكون ينكر على مصباح الحرم والنور اللامع فى ديجورالظلام محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، لم لاتقوم خاضعا له وكرامة مثل أصحاب الشرف والفضل .

قال الراوى : فاضطرب أبوجهل لعنه الله تعالى مثل اضطراب الأسد على الفريسة ، فوكزه الحارث وقال : يا ويحك يا ابن هشام فما أنت عديل ولامثيل لمن نهض إليك ، فان لم تقعد ليقطعن الأسد رأسك ويخمد أنفاسك ، وأخاف أن خديجة تكون قد علمت بما جرى منه ، وكان قد طمع أن يتزوج بها .

قال الراوى : فاستقرّ بالناس الجلوس ، وإذا بخويلد قد أقبل ودخل على خديجة وصار معها خلف الحجاب وقال لها : يا خديجة أين مضى عقلك وسوددك وشرفك ، إنك ما رضيت بالملوك ولا بالسادات ولا بالأبطال من قريش ، وقد بذلوا لك الجزيل من المال والعطايا والمواهب فلم ترضى بأحد من هؤلاء أبدا ، ولم ترض نفسك كيف هذا اليوم ترضين بطفل صغير يتيم فقير ، وهو كان لك بالأمس أجير واليوم لك بعل ، إذا كان هذا منك فانى لاأرضى أبدا ، ولو ضربت عنقى بسيفى كان خيرا لى من الحياة ، واحذرى أن تذكرى هذا الأمر العظيم أو يطرأ على بالك ، فان رضيت به لأضربنّ عنقك بسيفى هذا ، اليوم لاشك أن تسفك فيه الدماء وترمل فيه النساء ، ثم نهض قائما على قدمه وشهر سيفه من غمده ، وخرج ينادى بأعلى صوته فى القبائل : يا أصحاب المحافل ويا جميع السادات هيهات هيهات أن يكون هذا الأمر العظيم هيهات هيهات ، فان دون هذا الأمر إهراق الدماء وقطع الرءوس وإتلاف النفوس . ثم إن خويلدا أخذ لأمة حربه وركب على متن جواده ، وغدا يهدر مثل الجمل الهائج ، ويرغى مثل الأسد الواثب حتى دخل الأبطح وعاد إلى

منزل خديجة ووقف على رءوس الناس وقال : اعلموا يا معاشر العرب ويا سكان الحرم ويا قريش ويا بني زهرة ويا بني عبد المطلب ويا بني عبد مناف ويا بني مخزوم ويا بني لؤي ويا بني غالب ويا بني عبد دارم ويا أشراف الأمم ويا أهل الصفا وزمزم ، أشهدكم أنني لم أرض محمدا صلى الله عليه وسلم لابنتي زوجا ولم أرضه لها بعلا ولو دفع لي وزن أبي قبيس وحراء ذهبا وفضة ، ومن يلزمني به ؟ فما بيني وبينه حكم غير هذا السيف ، فما مثلي أن يخدع بشرب الكاس والمدام بالطاس ، فمن كان يتطاول بزواج ابنتي خديجة لا كان ولا عمرت به الأوطان ، ثم إن خويلدا أنشأ يقول :

ولو أنها قالت نعم لعلوتها بشفرة سيف للجماجم فاصل
فمن رام تزويج ابنتي بمحمد وإن رضيت يا قوم لست بفاعل
فليس زواج الشرب بنافع وهذا مقال الحق هل من قائل

قال الراوي : فلما سمع الحمزة كلام خويلد اغتاظ عليه غيظا شديدا وكاد أن يقطع ثيابه من حرارة مزاجه حنقا عليه ، وقال أخوه أبو طالب : يا أخي ليس هاهنا مكان جلوس ولا مقام ولا أدري هذا الإنكاث من هذا الغادر قدام الناس ، وإنما أردت أن أبرز إليه وأخمد ناره وأقطع آثاره ، فقال أبو طالب لأخيه الحمزة : يا أخي اصبر قليلا حتى ننظر ما يكون من عاقبة أمره ، وإنما خويلد وقومه عندنا كمثل العصفور الجائع في مخلاب الباز . قال : فبينما هم كذلك يتلاومون في أمر خويلد ، وإذ قد أقبلت جارية خديجة رضي الله عنها وقالت : يا مولاي إن مولاتي تقول كلّمها من وراء الحجاب ، فدنا أبو طالب من الستر المضروب على الحجاب ، فلما قرب منه بدأ بالسلام وقال : يا خديجة بنت خويلد ، فقالت : أنعم الله صباحك وأدام الله سلاحك يا سيد الحرم ، لاتغتر بشقشقة هذا ، فانه لسان بلا عقل وحاله ينصلح بأقل الأمور ؛ ثم إنها أخرجت كيسا من الذهب الأحمر فيه ألف مثقال ، ثم قالت خديجة رضي الله تعالى عنها : يا سيدي خذ هذا الكيس ، وسر إلى خويلد أبي كأنك تعاتبه بالكلام وخذ هذا المال وصبه في حجره .

قال الراوي : فأخذ أبو طالب ذلك الكيس ولحق بخويلد في جنب الطريق وقال له : يا خويلد ادن مني ، فقال له : لا أدنو منك أبدا إلا بالسيف .



قال أبو طالب : يا خويلد اسمع الكلام منى فان لك فيه صلاحا وخيرا ، فان لم يرضك وإلا فما أحد يغصبك . قال : ثم إن خويلدا أطاع وذهب غيظه ودنا من أبي طالب ففتح أبو طالب الكيس وصبه فى حجر خويلد وقال له : يا خويلد هذه الدنانير خذها من ابن أخى محمد صلى الله عليه وسلم غير مهر ابنتك ، فلما رأى خويلد المال أطفئت ضرائم ناره وأخمدت شراره وسكن غضبه ، فأقبل حتى وقف فى الموضع الأول على رءوس السادات والأبطال من قريش ونادى يا معاشر العرب والأشراف من قريش ومن جميع القبائل اسمعوا كلامى وافهموا نظامى ، فوالله العظيم ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ولا أكرم منه قدرا عند الله وعند الناس ، ولقد أغرانى أمر الجهالة وكلام المفسدين والحسّاد ، والآن قد رضيت بمحمد صلى الله عليه وسلم كفؤا لابنتى وبعلا ، لأنه أكرم الخلق وأعزهم ، وقد رضيت به لخديجة فكونوا على ذلك من الشاهدين . قال : فماجت العرب والدور بسكانها وصاروا يتعجبّون من كلامه ، والذين شهدوا المال جعلوا يقولون : يا شآمة عليك ، ساعة تذمه وساعة تمدحه . ثم قام العباس على قدميه وقال : يا معاشر العرب لم تنكرون الفضل عن أهله وأنتم تعرفونه وتحولون الشمس عن موضعها وهل تقدرون تزيلونها عن طلوعها وأنتم تعرفون موضعها ، وهل يسقيكم الغيث إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكم له عليكم من أياد وكرامات كتمتموها ، وهل اخضرّ زرعكم إلا بكرامة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكم له معجزات رأيتموها وبراهين ضيعتموها ، وبالله العظيم أقسم إن ما فيكم أحدا يعادل صيانته وعفته وأمانته وكرامته ونقاءه وطهارته ، ولا أنتم والله مجيبون ولو رحل عنكم نساؤكم رحيله وشق عليكم بعادهم . واعلموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بخديجة رضى الله عنها لكثرة مالها ولا لكثرة رجالها ، واعلموا أن المال زائل والفخر دائم لا يزول ، فلا تظهروا الشر ولا تطيلوا الفكر . قال : فكأنه ألجمهم بلجام ، وكأنما أصمهم عن الكلام ؛ ثم إن خويلدا أقبل وجلس إلى جنب النبى صلى الله عليه وسلم وأمسك الناس عن الكلام . ثم إن خويلدا دارت الناس حوله عنقا واحدا ولم يتكلم أحد منهم بكلام ثم قال خويلد : يا أبا طالب ما الذى يؤخركم عما أنتم طالبون ، افصلوا الأمر



وانشروا الكلام بالعقد ، فلكم الحكم وأنتم الأحباء ، وإن لابن أخيكم عندنا الرضا وفوق الرضا ، وأنتم الرؤساء والفصحاء والخطباء ، فليخطب خطيبكم وليكن العقد لنا ولكم .

قال الراوى : فنهض أبو طالب وأشار إلى الناس اسكتوا عن الكلام بإذن الملك العلام ، فصمت الناس عن الكلام ، فقام أبو طالب على أقدامه وقال : الحمد لله الذى جعل من نسلنا الأخيار والأبرار ، وجعلنا من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأخرجنا من خلاصة الصفوة من ذرية إسماعيل عليه السلام ، ثم شرّفنا وفضّلنا على جميع العرب ، وأنزلنا فى حرمه وأسبغ علينا من نعمه وصرف عنا شر نقمه وجعلنا فى البلد القفراء وساق إلينا الرزق من كل فج عميق ومن كل واد سحيق ، والحمد لله تعالى على ما أولانا من النعمة وأعطانا من الفضل وحبانا من الكرامة وفضلنا على الأنام وخصّنا بالبيت الحرام والركن وزمزم والمقام ، وأمرنا بالمقاربة والوصال ، وذلك فضلا منه علينا وكرما وشرفا وسؤددا ليكرمنا بالنسل ، وبعد هذا يا معاشر قريش ويا من حضر ، اعلموا أن ابن أخينا المعظم المكرم قد خطب فتاتكم الكريمة المصونة وابنتكم الطاهرة المخدرة المذكور فضلها ، الشائع خبرها خطبت من أبيها على ما يحب من المال . ثم نهض ورقة قائما على أقدامه وكان فى جنب أخيه خويلد فقال : يا أخى كم تريد مهرها المعجل ؟ قال خويلد : أربعة آلاف دينار أحمر من الذهب ، ومائة ناقة أبكار حمر الوبر سود الحدق ، وعشرة حلل ، وثمانية وعشرين عبدا وأمة ، وليس ذلك بكثير عليكم ، قال أبو طالب رضينا بذلك ، قال خويلد : قد زوجت خديجة بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو لنا كفء كريم ، فقال أبو طالب : قبلت الزواج والنكاح لابن أخى محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : فنهض الحمزة بن عبد المطلب وكان عنده دراهم فنثرها على من حضر وكذلك باقى إخوته ، فقام أبو جهل لعنه الله وقال : واعجباه منكم ، رأينا الرجال يمهرون النساء ، وما رأينا النساء تمهر الرجال . قال : فنهض أبو طالب وقال : يا كلب الرجال مثل محمد صلى الله عليه وسلم يحمل إليه ويعطى ، ومثلك من يُهدى ولا يقبل منه ، ويعطى ولا يرضى به . ثم سمع الناس مناديا ينادى من السماء يسمعه القريب والبعيد يقول : أيها النـاس إن الله



زوّج الطاهرة بالطاهر والصادقة بالصادق والطيبة بالطيب ، ثم رفع الحجاب وقد خرج منه جوار بأيديهن النثار واللؤلؤ وينثرن ذلك على الناس ، وأمر الله عز وجل جبرائيل عليه السلام أن يخرج من طيب الجنة حُقّا ، ومن المسك حقا وينثر ذلك على الناس كلهم لإكرام محمد المختار صلى الله عليه وسلم ، وكان الرجل إذا اتى أحدا من أصحابه وأنسابه وأهله يقول له : ما هذا الطيب الذى معك ؟ فيقول : هذا من طيب محمد صلى الله عليه وسلم وطيب خديجة رضى الله عنها . قال : ثم إنهم نهضوا لإصلاح شأنهم وأعمال الولائم وعقر العقائر ونحر النحائر ، وانصرف الناس إلى منازلهم ، ومضى النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله فى بيت أبى طالب وأعمامه حوله ، واجتمعت نساء بنى عبد المطلب وبنى هاشم فى دار خديجة رضى الله عنها ، والجوارى من حولها والفتيان يضربون الدفوف والطارات ، ثم إن خديجة رضى الله عنها بعثت من وقتها وساعتها بأربعة آلاف دينار من الذهب الأحمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالت : يا سيدى يا محمد أنفذها إلى عمك العباس ينفذها لأبى خويلد ، وأنفذت معه خلعة فاخرة سنية تساوى ألف دينار .

قال الراوى : فسار أبو طالب والعباس إلى منزل خويلد وأوصلوا المال والخلعة . قال : فنهض خويلد وسار من وقته وساعته إلى منزل خديجة رضى الله عنها ، وقال لها : يا ابنتى ما انتظارك فى نفسك ، قومى بالسرعة والإجابة وجدّى وجددى فى هيئة الدخول ، فدونك مهرك قد أنفذوه إلىّ وقد وهبوا لى هذه الخلعة الفاخرة ، فوالله تعالى ما تزوج أحد من الناس بزوج مثالك فى الحسن والجمال والبهاء والكمال ، وفى العلم والكرم وفى الشجاعة والفضل مثل زوجك محمد صلى الله عليه وسلم فهنيئا لكما .

قال الراوى : فسمع ذلك أبو جهل لعنه الله ، فجعل يبوح به بين الناس ، فبلغ كلامه أبا طالب ، فتقلّد بسيفه واعتقل برمحه وركب على ظهر جواده ، فأقبل مسرعا حتى وقف بالأبطح والعرب مجتمعون فيه وقال : يا معاشر العرب والقبائل من قريش ، قد بلغنا عنكم قول قائل وعيب عائب ، فان يكن النساء قد قمن بواجب الرجال فقد أكرموا حقنا وعرفوا شرفنا وفضلنا فليس ذلك عيبا ، وإنما هو فضل وشرف وكرامة ، وأحق بالشرف والفضل فضلنا ، وليس



ذلك عيبا بل هو كرامة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فانه أحق من يعطى وإليه يُهدى ويكرم ويجبى ، فمن أغاظه ذلك وأساءه فعلى رغم أنفه ، ومن تكلم فى ذلك بعيب عجّلنا حتفه .

قال الراوى : فبلغ الخبر إلى خديجة رضى الله عنها ، فصنعت لهم طعاما ودعت نساء المبغضين ، فلما أكلوا وشربوا قالت لهن خديجة : يا معاشر النساء بلغنى أن بعولتكنّ أطالوا علىّ فيما فعلت ، وأنا أسألكنّ أيتها النساء هل بمكة شرّفها الله تعالى أحسن منه حسنا ، وأصبح وجها ، وأكمل عقلا ، وأفصح لسانا ، وأكرم كفا ، وأصدق جوابا ؟ وهل فى رجالكم كلها أحد يشاكل محمدا صلى الله عليه وسلم أو يعادله قدرا وعلوّا وفضلا وشرفا وكرامة ، وهل فيه عشر ما فيه من الأخلاق المحمودة المرضية والأحوال الملكوتية ، وأنا ما خترته إلا لما رأيت منه وسمعت عنه من الأخبار والمشاهدة ، وقد رأيت منه أمورا عظيمة لم يرها أحد ولا توصف دلائله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمعن كلامها رضى الله عنها زاد بهنّ الحسد والكمد . قال : ثم إن خديجة رضى الله عنها قالت لعمها : يا عم خذ هذه الأموال والخلع والهدايا التى بعثها إلىّ محمد صلى الله عليه وسلم وسر بها إليه ، وقل له إن هذه الأموال كلها والخلع هدية منى إليه وسلم عليه وقل له إن جميع أموالى وخيلى وجمالى وعبيدى وجوارى وما حوته يدى وروحى كله فى ملكه يتصرف فيه كيف يشاء وكيف أراد .

قال الراوى : فأخذ ورقة الأموال والخلع كلها وسار بها من وقته وساعته حتى وقف بين زمزم والصفا وبين الركن والمقام ، ونادى بأعلى صوته : يا معاشر العرب والسادات من بنى عبد المطلب ، ويا جميع قريش وبنى زهرة وبنى مخزوم ، ويا سادات القبائل ويا كرام المحافل ، اعلموا أن ابنة أخى خويلد خديجة رضى الله عنها ، قد وكلتنى بالإبلاغ لكم بمقالها ، وإنى أشهدكم بأنها قد وهبت نفسها وروحها ومالها وخيلها وركابها وجواريها وعبيدها كلها لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا المال أرسلتنى به إليه هدية منها له ، وذلك إجلالا وإكراما ورغبة وشرفا فيه فكونوا على ذلك من الشاهدين . ثم إن ورقة تركهم ومضى يطلب منزل أبى طالب ، وكانت خديجة رضى الله عنها قد أرسلت جارية ومعها خلعة سنية فاخرة وقالت : اذهبى بها إلى محمد صلى الله



عليه وسلم ، فاذا دخل عمى ورقة وجلس يخلعها عليه ، لكى يزداد فيه محبة وشرفا ورغبة .

قال الراوى : فلما دخل ورقة عليهم قدم إليهم الهدية ، ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم أفرغ عليه الخلعة وزاده خلعة أخرى ، فلما خرج ورقة تعجبت منه الناس من حسن لباسه ؛ ثم إن خديجة رضى الله عنها أخذت فى جهازها وأعدت الأوانى من الفضة والذهب وفيه الطيب والياسمين والمسك والكافور والعنبر ، فلما كانت الليلة الثانية دخلت عمة النبى صلى الله عليه وسلم ونساء بنى عبد المطلب وبنات عبد مناف والفتيان ومعهن الطارات والمزاهر ومجامر البخور ، وجعلن ينشدن الأشعار ويذكرن اتصال خديجة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، واجتمع السادات والأكابر فى اليوم الثالث كعادتهم ، ثم إن العباس قام وأنشأ يقول :

أبشروا بالمواهب آل فهر وغالب
افخروا يا آل قومنا بالسنا والرغائب
شاع فى الناس فضلكم وعلا فى المراتب
قد فخرتم بأحمد زين كل الأطايب
فهو كالبدر نوره طالع غير غائب
قد ظفرت خديجة بجليل المواهب
بفتى هاشم الذى ماله من مناسب
جمع الله شملكم فهو رب المطالب
أحمد سيد الورى خير ماش وراكب
فعليه الصلاة ما سار عيس ماشيا أو راكب

قال الراوى : ثم إن خديجة رضى الله عنها قالت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم له عندى من الجاه والقدر شىء عظيم وفضل عميم وجود جسيم وشأنه كبير . قال : ثم إن خديجة رضى الله عنها نثرت على النساء من المال شيئا عظيما من الذهب والفضة والمسك والكافور والعنبر والطيب حتى دهشت عقولهم وتحيرت أفكارهم ، وشجرة طوبى فى الجنة نثرت الدر والمرجان من أغصانها على الحور العين يلتقطن النثار ، وجرت زينة بينهم إلى يوم القيامة .



قال : ثم إن خديجة رضى الله تعالى عنها أرسلت إلى منزل أبي طالب غنما كثيرة وبرا وسمنا وأرزا وعسلا وسكرا ودراهم كثيرة وثيابا حسنة ، وقالت لهم يجهزون أمرهم ويعملون ولائمهم . قال : فعمل أبو طالب وليمة عظيمة وألزم نفسه بخدمة الناس فى وليمة العرس وأعمام النبي صلى الله عليه وسلم كذلك يخدمون ، وأنفذت خديجة رضى الله عنها إلى الطائف ، ودعت الصناع إلى منزلها وصاغت المصاغ والحلىّ ، وفصلت الحلل من الثياب وعملت الشموع والمشاعل المعمولة بالمسك والعنبر والكافور ، ولم تزل فى عمل شغل العرس مدة ستة أشهر كوامل حتى فرغت من كل ما تحتاج إليه ، وعلقت ستور الديباج وفرشت البسط والزوالى ، ونقشت فى الستائر الشمس والقمر ، وفرشت المجالس بالديباج والخز والمساند ، وفرشت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا على سرير تحته الإبريسم ومن كل شيء غالى الثمن ، والسرير من العاج والأبنوس مصفّحا بصفائح الذهب والفضّة ، وألبست جواريها وخدامها ثياب الحرير والديباج مختلفات الألوان ، ونظمت شعورهن باللؤلؤ وسوّرتهنّ ودملجتهنّ وجعلت فى أرجلهن خلاخيل مقرطقة بالذهب والفضة ، ووضعت فى أعناقهن قلائد من الذهب والمرجان ، وأوقفت الخدام بأيديهن مجامر الذهب والفضة وفيها البخورات من كل طيب من الندّ والعود والعنبر والكافور وبعضهن بأيديهن المراوح المنقوشات بالذهب والفضة ، وأوقفتهن عند المجلس الذى يجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ودفعت إلى بعضهنّ الطارات والدفوف والمزاهر ، وبعضهن بأيديهنّ الشموع والمشاعل ، ونصبت فى وسط الدار شمعا كثيرا على أمثال النخل . قال : فلما فرغت خديجة رضى الله عنها من ذلك كلّه دعت بنساء أهل مكة شرفها الله تعالى ، فأقبلن إليها . وأما عمات النبي صلى الله عليه وسلم فإنها رفعت مجلسهن بأعلى مرتبة لأنهنّ بيت النبوّة ، وأرسلت إلى أبي طالب يحضر وقت الزفاف . فلما كان تلك الليلة أقبل النبي صلى الله عليه وسلم بين أعمامه عاكفين على رأسه كالنجوم الزواهر ، وعليه ثوب من قباطى مصر وحرير أخضر وعليه عمامة خضراء ، وبأيدى عبيد بنى هاشم الشموع والمشاعل والمصابيح ، وقد اختلف الناس فى شعاب مكة ، والسموات قد نارت والملائكة قد حارت بالفرح ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم أناس كثير قد وقفوا على السرادقات والنور يخرج من بين ثناياه

وقد فرح المحبون واغتم المبغضون ، والناس ينظرون إلى فضله المشهور . فلما وصلوا إلى دار خديجة رضى الله عنها ، دخل النبي صلى الله عليه وسلم هو وأعمامه وغلقوا الأبواب ، وقد هيئوا خديجة للجلوة ، فخرجت عليهم أول مرة وعليها ثياب مطرزة وعلى رأسها تاج من الذهب الأحمر مرصع بالدر واللؤلؤ ، وفى رجليها خلخال من الذهب منقوش بالفيروز ، وعليها قلائد من الزبرجد واللعلع والياقوت . فلما برزت ضربت القيان المزاهر والطارات والدفوف وجعلن يقلن :

أضحى الفخار لنا عزا شامخا ... ولقد سمونا من بنى عدنان
نلت العلى فينا وتعلو فى الورى ... وتقاصرت عن مجدك الثقلان
فلك المكارم والمعالى والبها ... ما غنَّت الأطيار على الأغصان
فتطاولى فيه خديجة واعلمى ... أن قد خصصت بصفوة الرحمان
صلى عليه الله ما غرَّدت ... ورق الحمام تغرد الألحان

قال الراوى : ثم إنهم أقبلوا بها بالجلوة الثانية على فراش النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أشرق نوره على جميع المصابيح والشموع ، وقد علا نور خديجة رضى الله عنها وزادها الله حسنا فوق حسنها وفاقت على جميع نساء العالمين ، وعليها ثوب أسود مرصع بالذهب والفضة والإبريسم الأحمر والأخضر واللؤلؤ الأبيض ، وكانت خديجة طويلة بيضاء دعجاء سمينة معتدلة ما كان فى أهل مكة أحسن منها ولا أكمل عقلا ، وخرجت صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم ومعها نساء بأيديهن الطارات ، فقالت :

أنوارنا قد أقبلت ... والحال فينا ينصلح
بمحمد المذكور فى ... كل المفاوز والبطح
لو أن يوازن أحمد ... بالخلق عليهم رجح
ولقد بدا من فضله ... لقريش أمر قد وضح
جاء السرور والفرح ... ومضى النحوس مع الترح
تم السعود لأحمد ... والسعد عنه ما برح
بخديجة خص الكريم ... وبحر نائلها طفح
يا حسنها بحليها ... والحلم فيها متضح
هذا الأمين محمد ... ما فى مدائحه كلح

قال الراوى : ثم أقبلت عليها النسوة وهى فى أحسن الحلى والزينة والطرب حتى وقفن بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذوا التاج من فوق رأس خديجة ووضعوه على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ضربوا الدفوف وقالوا : يا خديجة لقد خصصت بشيء عظيم ومرتبة عالية لم ينلها أحد من الأولين والآخرين ، فهنيئا لك يا خديجة بما قد وصل إليك من العز والشرف والفضل والكرامة ، وخرجت فى الجلوة الثالثة وعليها ثوب أصفر وعليها حلى وجوهر ، وقد أضاء الموضع كله من لمعان النور فى وسط الإكليل ياقوتة حمراء ، وقد أشرقت الدار كلها من ضياء الجوهر . وأقبلت ابنة عبد المطلب أمامها وهى تنشد وتقول :

أخذ الشوق موثقات الفؤاد ... وليالى اللقا بنـور التناد

فزت بالفخر يا خديجة إذ نلـ ... ـت شرفا خـلال طول البعاد

عطر الكون نشر فشـذاه ... كعبيره يفوح فى كل ناد

وغدا شكره على الخلق فرضا ... شاملا فى كل حاضر وباد

ثم دخل بها النبي صلى الله عليه وسلم ، واجتمعت قريش لما رأوا قد نزلت عليه الرسالة وكبرت المصيبة من الحسد والبغض ، واتفقوا على حجة يحتجون بها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلم الله ما فى قلوبهم من المكر والحيلة ، ونزل جبريل عليه السلام وبشر محمدا بالمعجزة الظاهرة الفاخرة ، وهى انشقاق القمر ، والله أعلم .

إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ،
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً



حديث انشقاق القمر

لنبينا سيد البشر صلى الله عليه وسلم

قال البكرى رضى الله عنه : لما نزلت هذه الآية وهى قوله تعالى - وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ - قال : فاجتمع أبوجهل برجل من شعب بنى مخزوم فقال له : ياويلك قد زاد ذكر محمد صلى الله عليه وسلم حتى فى النبوة وهو كان يقول أنا عالم حكيم ، وقد زاد أمره وشاع ذكره حتى قال : أنا نبى مرسل ، وحق اللات والعزّى والهُبَل الأعلى لئن لم ينته محمد عن هذه الأفعال ليكونن مشئوما على أصحابه ، فقال الرجل : يا أبا جهل ما نعلم بما تذكره ، فقال أبو جهل لعنه الله : امض إلى محمد وقل له يرجع عن هذا الكلام ، فخشى الرجل أن تثور فتنة بين قريش وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه ، فأتى الرجل إلى بيت خديجة رضى الله عنها وقرع الباب فقالت له الجارية يافلان : إن سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه الحمزة والعباس فى منزل أبى طالب ، فسار الرجل إلى منزل أبى طالب ، فرحب به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال الرجل إنى أتيتك لأخبرك بأمر سمعته من أبى جهل بن هشام أفتأمرنى أن أفشى لك الكلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قُل ما بَدَا لك ، فقال الرجل : خرجت من شعب بنى مخزوم فلقينى أبوجهل بن هشام ، وقال لى كذا وكذا .

قال الراوى لهذا الحديث : فبينما الرجل يشاور النبى صلى الله عليه وسلم ويحدثه إذ لقيه عبد لعثمان بن عفان رضى الله عنه يقال له مليح ، فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن مولاى بعثنى إليك وقال : ابصر إن كان النبى صلى الله عليه وسلم فى منزله أتيته فى أمر قد أهمنا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : اصْبِرْ فانِّى سائِرٌ إلى مَنْزِلِى . قال : فمضى الغلام وأخبر عثمان فجاء عثمان ودخل على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا رسول



الله إن أبا جهل بن هشام لعنه الله قد أتى عندى وقال : إن محمدا قد جمع أهله وعشيرته وقومه وبنى عمه وقال لهم : قد أوحى الله عز وجل إلىّ أن ـ أنذر عشيرتك الأقربين ـ فلما سمعت ذلك ذهب عقلي ، وقد مضيت وجمعت سادات العرب من أهل مكة ورؤساء الكعبة وبنى الأبطح ، وقد وعدتهم أن يركبوا على ظهور خيولهم ويمضوا إلى حبيب بن مالك بن عوف بن مسلم ابن عياض المازنى ـ وأنت تعلم أنه عالم العلماء وسيد الحكماء ، وله من العمر مائة وأربعون سنة ، وقد تهوّد وتنصّر وما ترك كتابا إلا وقد درسه وقرأه ـ أن يأتى فى قومه وعشيرته وبنى عمه ، وهو يركب فى عشرين ألف فارس ، واسأله أن يتقدم إلى الأبطح ويجمع أهل الحرم وسادات مكة وينادى من تخلف ضربت عنقه ، ويحضر بنى هاشم مع سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم ويعجزه حبيب بن مالك ويخجله فأنا أعلم أنه ينقطع ، فاذا ظفرت به فوحق اللات والعزى والهبل الأعلى لأبذلنّ مالى لحبيب بن مالك مع أموال العرب ، ولأحلقنّ وجوههم وخيولهم ووجوه أصحابه ، ولأجعلن على قوم محمد الرماد والسواد ، ولا يركب أحد تحت ركاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا سوّدت وجهه ، ثم أسوّد وجوه بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى عبد مناف وهم مسودون الأثواب ومحلقون الوجوه ، ثم نحيط بهم فلا نبقى منهم باقية أبدا . قال الراوى : فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، أطرق رأسه على الأرض وبدا عرقه كاللؤلؤ المنظوم ، فنظر إليه أصحابه وقد عرق جبينه وقالوا : يارسول الله لايصعب عليك ذلك الأمر ، فان الله تبارك وتعالى لايصعب ذلك عليه ويطفئ كيدهم ويبطل حجتهم ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : وأنَا واثِقٌ بِاللهِ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ . قال : فبينما هو كذلك ، إذ هبط الأمين جبريل عليه السلام ، وكان إذا هبط يلف بين الهواء والفضاء بصورته التى خلقه الله تعالى فيها ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كشف له الوحى يتطاول ويعرق جبينه ويشخص إلى السماء ويرعد من هيبة الوحى ، لأنه كان يهبط فى صورته التى خلقه الله تعالى فيها ، له ألف ألف جناح من المشرق إلى المغرب ويقول



له : ربك العلى الأعلى يقرئك السلام ويقول لك : فوعزتى وجلالى وارتفاعى فى مكانى ما خلقت خلقا أعز على منك يامحمد ، لاتفزع ولا تخف ، وأنا الله الذى لاإله إلا أنا ، أنا خلقتهم وصورتهم ورزقتهم ، وعزتى وجلالى لأمهدن لك الأرض وليأتين بين يده كل عربى وعجمى ، ولأجعلن لك مع حبيب ابن مالك معجزة تفتخر بها على سائر العرب ، وسيقدم عليك حبيب بن مالك ومعه بنت خلقها الله بلا يدين ولا رجلين ، ولا تسمع ولا تبصر وهى سطيحة ، وقد تزوجها الأمير ابن عباس المزنى وقد حمل إليها مائة ناقة حمراء ومائة فرس وعشرة آلاف درهم وسيطلب منه زفافها إليه ، وهو لايعلم أنها بلا يدين ولا رجلين ولا تبصر ولا تسمع ، وقال حبيب بن مالك إنى أريد أن أحملها إلى الكعبة وأطوف بها بيت الله الحرام وأفيض عليها من ماء زمزم وأسأل إله إبراهيم الخليل عليه السلام أن يرفع عنها العلل والأسقام ، وقال أيضا فى نفسه : أحملها إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأقول له : إن كنت نبيا ورسولا صادقا اسأل إلهك أن يبرئها ويرد عليها أعضاءها ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن انزل على حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم وقل له : ربك يقرئك السلام ويقول لك : سيقدم عليك حبيب بن مالك فى عشرين ألف فارس يدعوك إلى حضرته فاحضر ، فأنا لك ولاتجزع ولا تحزن ولا تخف . قال : فتلألأ وجهه صلى الله عليه وسلم . قال : ففرح فرحا عظيما وذهب حزنه ، ولم يخبر أحدا بشىء حتى دخل على خديجة رضى الله عنها وخرج من كان عنده من قومه .

فلما كان يوم من الأيام ركبت مشايخ قريش وسادات الحرم يقدمهم أبو جهل بن هشام لعنه الله والعبيد بين أيديهم حتى أتوا إلى حبيب بن مالك ، فأشاروا عليه بالدخول ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه وهو لابس ثوبا من الديباج وقاعد على سرير من الأبنوس مصفح بصفائح الذهب الأحمر ومرصع بالدر والجوهر ، فدخلت عليه قريش حتى وقفوا بين يديه وسلموا عليه ، فرحب بهم وطرح لهم الكراسى وقال : مرحبا بسادات الحرم وأهل الصفا وزمزم ، فيم أتيتم ؟ ، فقال له أبو جهل بن هشام لعنه الله : أيها السيد المطاع والملك الشجاع ، أنت تعلم أن بنى هاشم أصحاب البيت وزمزم والمقام ، وأهل المشاهد



العظام والشرف والعرب من قديم السلف ، ونحن عارفون بحقهم ومرجحون لقدرهم وقد ظهر بينهم غلام مات أبوه وهو فى بطن أمه ، وبعد ذلك ماتت أمه وهو ابن ست سنين ، وكفله عمه أبو طالب ، قال : ويبغض إلهنا وينهرنا إذا سجدنا للأصنام ،وقد كنا نصبوا إليه فلا نضمر شرا له ولا نرد أمره حتى قال : إنى نبى مرسل أرسلنى رب العالمين إلى الأبيض والأسود وإلى الإنس والجن ، ويقول : إنى أرى شخصا كل وقت ينزل من السماء ويرعدنى فنظن أنه مجنون ، وإذا سألته عن ذلك يقول : قال لى هذا الأمين جبرائيل عليه السلام قد أتانى يأمرنى وينهانى . واعلم ياحبيب أنا قد جئناك قاصدين وبك مستجيرين ونريد أن تمضى أنت وقومك إلى الأبطح وتجمع أهل مكة شرفها الله تعالى ورؤساء سادات الحرم وبنى هاشم ، وتحضر الغلام وتقاضيه وتسأله وتناظره فى العلم بين الجماعات والقبائل حتى يعلموا أنه لايناظرك ولا يقدر يقاربك ،فاذا انقطع ولم يجاوبك ملنا عليه وعلى من معه فقتلناهم ومزّقناهم كل ممزق ، وجعلنا السواد والرماد فى حاجبيه ، وإذا فلجته وظهرت حجتك عليه بيّضنا وجهك ووجوه بنى عمك وأصحابك ، ونثرنا عليكم المسك والعنبر . قال : فلما سمع حبيب بن مالك مقالتهم أجابهم إلى قولهم ، وأقاموا عنده بالكرامة والضيافة ، وذبح لهم الذبائح وقدم لهم الخمور . فلما أكلوا وشربوا قال لهم : غداة غد آتيكم . قال : فركب حبيب جواده ونادى فى قومه أن ارحلوا إلى الأبطح . قال : فرحلوا بالهوادج والقباب ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخرج إلى الناس ومعه المغيرة بن شعبة والناس متفاوضون . وكان أبو بكر رضى الله عنه عارفا بالناس قبيلة بعد قبيلة ، ولم يزل يعدهم واحدا بعد واحد ويقول : هذا فلان وهذا فلان ، حتى عد عشرين ألفا بالأبطح ممن يعرف . وضرب لحبيب بن مالك قبة من الديباج الأحمر وبين يديه قومه ، وطرح له كرسىّ من الحديد الصينى يجلس عليه ، ودارت العرب من حوله ، فأتى أبو بكر الصديق رضى الله عنه عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك .

قال الراوى : وأقبل أبوجهل لعنه الله والمشايخ معه مجتمعون وأهل الحرم والناس يهرعون إليه من كل شعب وواد ، وأبوجهل جالس بين يدى حبيب



ابن مالك يأمر وينهى ، قال : أيها الشجاع والملك المطاع ، اعلم أنه لم يتخلف عن مجلسك هذا إلا بنو هاشم وبنو عبد المطلب . قال : فأمر حبيب بن مالك باحضارهم وقال : ادعوا أبا طالب ، فقام روساء أهل مكة وكبراؤها وأتوا إلى أبي طالب ، فقال لهم : ما حاجتكم ؟ فقالوا له : إن حبيب بن مالك يدعوك إلى حضرته أنت وإخوتك . قال : فدخل أبو طالب ولبس ثوب الزينة ، وكان قميص آدم عليه السلام ورداء شيث عليه السلام وحُلّة إبراهيم الخليل عليه السلام وثوب إسماعيل عليه السلام ونعل سليمان عليه السلام صلوات الله عليهم أجمعين ، واستدعى بإخوته ، فحضر العباس بن عبد المطلب وحجل بن عبد المطلب وصخر بن عبد المطلب وعبد العزيز بن عبد المطلب والمغيرة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب ، وعليهم العز والوقار وعلا قدرهم ، وما كان في قريش أحد مثلهم ، وسار الجميع حتى أشرفوا على الأبطح ، فوسع لهم المجلس ، فابتدأ أبو طالب عليهم بالكلام وسلم وأحسن فردوا عليه السلام ورحب بهم حبيب بن مالك وعظم بني هاشم وعبد المطلب . قال : فتطاولت إليهم الأعناق ، وشخصت إليهم الأبصار ، وأنصت الناس لاستماع الكلام . فقال حبيب بن مالك : يا بني هاشم شكركم الله وفضّلكم على جميع القبائل وعلى الأسود والأبيض ، فنحن مفتخرون بفخركم ، وأنتم أهل الأبطح وسادات الصفا ؛ واعلموا أن الناس ما اجتمعوا إلا بسبب غلام قد نشأ بينكم ويدّعي أنه مصطفى ورسول مبعوث ، والأنبياء لهم دلالات واضحات ، وإني أحب أن تظهر نبوّته ببيان وبرهان ، فاذا نظرت العرب إلى ذلك صدقوه في مقاله وآمنوا بدلالته ، وأول من يؤمن به أنا ، وإن يكن مجنونا كما زعموا فاحذروا عليه وردوه عن فعله ، وإن هذا الأمر لايتم له بين أهل مكة وروساء العرب وقد استشوروا على قتله ، وأنا أخاف أن ينجرّ إلى سفك الدماء ، فنحب أن تحفظوا شرفكم وعلوّ قدركم ومنزلتكم .

قال الراوي : فقال أبو طالب : إن ابن أخينا محمدا صلى الله عليه وسلم ما يأتي إلا بدلالات واضحات ، ويدعوكم إلى من اسمه رب الأرباب ، له الحاضر والغائب والقريب والبعيد والعرب والعجم والأسود والأبيض ، لاإله إلا هو الرحمن الرحيم ، مقدر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم



مسخّرات بأمره ، تبارك الله أحسن الخالقين ، فالق النور والظلمات سبحانه وتعالى عما يشركون ، ومع هذا يا حبيب اسألهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ما كانوا يسمونه فى صغره ؟ فقالت العرب : كنا نسميه الصادق الأمين .

قال الراوى : قال الحمزة بن عبد المطلب : يا قوم من كان فى صغره أمينا كيف يكون فى كبره خائنا كذابا ؟ فقال حبيب : لقد أحببت أن أرى هذا الغلام الفصيح الصبيح وأسمع كلامه ، فقال بنو هاشم : أنفذ إليه رسولا من عندك . قال : فأنفذ إليه خادمه ، فقال له أبو طالب : إذا وقفت بباب الدار فاسأل عن منزل خديجة بنت خويلد ونادها ، فاذا أجابتك فقل لها أنا خادم حبيب بن مالك يدعو محمدا إلى حضرته وعمومته عنده فيحضرهم . قال أبو جهل ابن هشام لعنه الله : يا أبا طالب إن محمدا إن حضر طوعا وإلا يحضر كرها ، فقال العباس : ويلك إنى خائف عليك ، فعضّ على لسانك عض الله فاك . قال : فمضى الخادم إلى منزل خديجة رضى الله عنها .

قال الراوى لهذا الخبر الظريف : وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى منزل خديجة وهو ينظر إلى أمر القوم ما يكون وخديجة تقول : يا سيدى مالى أراك مهموما ما عندك وهذه الصناديق كلها مملوءة ذهبا أحمر وغير ذلك ، فخذها وفرّقها على العرب ، وقاتل من يعاندك ، وأعط من والاك حتى تفلج حجتك وتظهر كلمتك ؛ فبينما هو كذلك إذ ضرب الخادم الباب ، فقالت خديجة : من بالباب ؟ فقال : غلام حبيب بن مالك ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم يخطر فى مشيته كالبدر فى أفق السماء ، فلما رآه الخادم رجف قلبه وذهل عقله وترجّل عن فرسه إجلالا وإعظاما له صلى الله عليه وسلم وأخذ يده وقبّلها وقال : يا سيدى إن بنى عبد مناف وبنى هاشم وحبيب بن مالك يدعونك إلى حضرتهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : حُبًّا وَكَرَامَةً اقْدَمْ إِلَيْهِمْ وأَعْلِمْهُمْ أَنِّى فى أَثَرِكَ . قال : فرجع الغلام وأعلمهم أنه فى أثره . ثم دخل النبى صلى الله عليه وسلم وأفرغ عليه ثياب الزينة ولبس عمامة خضراء فيروزية ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم له شعر حسن فأرسله على متنه . قال : فبينما هو كذلك وقد تردّى برداء كان لعبد المطلب وقد هَمّ



بالخروج وخديجة رضى الله عنها قائمة رافعة خمارها من درعها وهى تقول : إلهى وسيدى انصر بعلى محمدا صلى الله عليه وسلم على من عاداه ، وأعل كلمته وثبت دعوته وانصره على قريش ، والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت إذ هبط الأمين جبريل عليه السلام فى الصورة التى خلقه الله تعالى فيها وبيده حربة الغضب وفيها شعبتان : شعبة إلى المشرق وشعبة إلى المغرب ، فنادى : السلام عليك يا خير مولود وخير مبعوث ، ربك يقرئك السلام ويخصك بالتحيّة والإكرام ويقول لك : وعزتى وجلالى ما أرسلت رسولا إلى أمة أكرم علىّ منك ، يا محمد لاتخف ولا تفزع ، فانى معك حيث كنت ، وعن يمينك وعن شمالك ، ولا تخاو منى ولا تدركنى الأبصار وأنا بالمنظر الأعلى ، وقد استهلّت إليك ملائكة الصف الأعلى فى ثلاثين ألف قبيلة ، منها ثلاثون ألف ملك نزلوا معى ، ارفع رأسك يا محمد ، فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم فرأى الملائكة بين الفضاء والهواء عليهم التيجان وبأيديهم حراب ، لو أن حربة طرحت على أهل الأرض لماتوا عن آخرهم خوفا وهم يقولون : السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا سيد المرسلين ، السلام عليك يا إمام المتقين ، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم ، السلام عليك يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، فردّ النبي صلى الله عليه وسلم عليهم السلام ، ثم قال له جبريل عليه السلام : يا محمد امض إلى حبيب ، فهؤلاء الملائكة محتفظون بك حتى تصدع بحجتك ، فليس لهم عليك سبيل ، فانك بشير ونذير . قال : فعند ذلك تلألأ وجه النبي صلى الله عليه وسلم فرحا وسرورا ، فخرج إلى الأبطح ، فوالله لقد خرج من وجه النبي صلى الله عليه وسلم نور شعشعانى حتى بلغ عنان السماء وعلا أعلى مكة ، ولم يبق بمكة بيت إلا وقد دخل نوره فيه فسار النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة يمشون على مشيه حتى وصل إلى الكعبة وصلى ركعتين وخرج من الباب المعروف بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وكان كل من بمكة شرفها الله تعالى خرج إلى الأبطح لينظر إلى حبيب بن مالك والناس حوله مجتمعون قياما بين يديه . فلما طلع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاذا النور قد علا وتلألأ ، فشخص الناس ينظرون إليه صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الحاجب وهو يقول : هذا محمد قد طلع ،



فالتفت الناس ينظرون ، وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حبيب ابن مالك ، فقام له وقام الناس كذلك ، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم وهو بينهم كالبدر الطالع ، وقد شخص الناس بأبصارهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى حسنه وكماله وبهائه وكماله ، فما بقي بعير يسمع ولا فرس تصهل ولا حمار ينهق ولا يتحدث مع النبي صلى الله عليه وسلم أحد ، والناس شاخصون إليه بأبصارهم ينظرون إليه وإلى حبيب .

قال الراوي لهذا الخبر الظريف : فعند ذلك تنحنح حبيب بن مالك وقال : يا أبا القاسم ما على وجه الأرض نبي مثلك ولاولي مثل ابن عمك علي بن أبي طالب ، لأنك خير مولود وسميت محمدا الصادق الأمين ، وكنيت أبا القاسم ، وعلي خير مولود وكني أبا الحسن . اعلم يا محمد أن هؤلاء الشيوخ والشباب يقولون : إنك نبي مبعوث ، أرسلك رب العالمين إلى الحاضر والغائب وإلى الأسود والأبيض ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا حَبِيبُ بْنَ مالكٍ أنا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ أرْسَلَنِي اللهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ والمُشْرِكُونَ ، فقال له حبيب : ألك معجزات ودلالات واضحات نفتخر بها ونعلم أنك صادق فيما تقول ، وأنت تعلم أن نوحا عليه السلام كانت دلالته السفينة ، وداود عليه السلام كانت دلالته كلام الطير ، وإبراهيم عليه السلام كانت النار عليه بردا وسلاما ، وإسماعيل فدى بذبح عظيم - وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ - ويونس عليه السلام التقمه الحوت ولبث في بطنه أربعين يوما ثم أخرجه الله سالما ، وموسى عليه السلام كانت دلالته العصا حين ضرب البحر وأغرق الله عدوّه ونجى نبيه ومن معه وكانت أيضا ثعبانا ، وعيسى بن مريم عليه السلام كلّمته الجمجمة وأحيا الموتى وأبرأ الأعمى والأبرص وغير ذلك ، وأنت تقول إنك رسول مثل هؤلاء ، فأتنا بمعجزة مثل ما جاء به المرسلون . قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما تَطْلُبُ يا حَبِيبُ قال حبيب : إذا غربت الشمس فاسأل إلهك أن يجعل الليل ظلمة مدلهمة حتى لايكاد أحد ينظر لأحد ، ثم تقف على جبل أبي قبيس وتنادى القمر



وقد مضى من الشهر خمسة أيام وتقول له : أيها القمر استدر واستكمل كليلة أربعة عشر فى كماله ، ثم اركض إلى السماء ركضا ، ثم انزل حتى تقف بباب الكعبة ، فاذا وقف قل له طف أشواطا ، ثم تأمره أن يسجد ، ثم تناديه أن يرقى إليك وهو ساجد ويقف بين يديك ويناديك بلسان طلق فصيح عربى مبين لايشكل علينا ولا يستعجم ، ويسمعه البعيد والقريب ويقول : السلام عليك يا رسول الله ، ثم يدخل فى كمك الأيمن ويخرج من كمك الأيسر ويدخل فى جيبك ويخرج من ذيلك ، ثم ينشق نصفين نصف إلى المشرق ونصف إلى المغرب ، ثم يركض إلى السماء حتى يلتئم كما كان كاملا مشرقا . فصفّق أبو جهل لعنه الله كفا على كف وقال : لقد أحسنت يا حبيب وحق اللات والعزى والهبل الأعلى لقد فرّحت القلوب ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : اجْلِسْ وَاصْمُتْ يا كَلْبَ قَوْمِهِ وأَنْجَسَ عَشِيرَتِه وأَهْلِهِ . ثم أقبل النبى صلى الله عليه وسلم على حبيب وقال : أَتُحِبُّ غَيْرَها ؟ قال حبيب : نعم ، اسأل إلهك يعلمك ما فى نفسى وما أريد أن أسألك إياه . قال : فأطرق النبى صلى الله عليه وسلم رأسه ثم قال له : يا حَبِيبُ مَعَكَ ابْنَتُكَ وَهِىَ بِلا يَدَيْنِ ولا رِجْلَيْنِ ولا تَسْمَعُ ولاتُبْصِرُ ، فَقُمْ إِلَيْها تُكَلِّمْكَ بإِذْنِ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ رَدَّ اللهُ إِلَيْها يَدَيْها وَرِجْلَيْها وَسَمْعَها وَبَصَرَها وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، قال : فلما سمع حبيب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثب قائما وأسرع فى مشيته حتى أتى إلى ابنته فاذا هى أحسن من البدر فى ليلة كماله . فلما أتى إليها أبوها صار باهتا ذاهل العقل واللب . قال : ثم رجع عاجلا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أَعْجَبَكَ ما رأَيْتَ يا حَبِيبُ ؟ فانَّ الَّذِى رأَيْتَهُ قَلِيلٌ مِنْ قُدْرَةِ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ . قال : ونهض النبى صلى الله عليه وسلم من عندهم ونهض معه على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، وكان عمره ست سنين وقيل عشر سنين ، ونهض بنوهاشم وبنو عبد المطلب ، وجعلوا يتخطون رقاب الناس والنبى صلى الله عليه وسلم يمشى بينهم كالبدر المنير حتى أتى إلى منزله .



وأما ما كان من حبيب بن مالك ، فانه قال للعرب : لا يبرح أحد منكم . قال : فجعل الناس يهرعون من كل جانب ويغمزون بعضهم بعضا ويقولون : الليلة يفتضح محمد وبنو هاشم وتذل كلمتهم وينقص سلطانهم . قال : فقام أبو جهل لعنه الله ونادى بعبيده ، فقال لهم : يا ويلكم اخلطوا الرماد ببول الإبل ، فاذا أصبحتم فلا يرى أحد منكم هاشميا أو مطلبيا إلا سوّدتم وجهه وثيابه ، فان محمدا قد مضى ولم يقدر على ما سألناه عنه فافعلوا ما آمركم به . قال : فلما أقبل النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزل خديجة رضى الله عنها قال لها : ما شأنُكِ يا خدِيجَةُ أتَظُنِّينَ أنَّ اللهَ يُخْلِفُ وَعْدَهُ ، وهى راكعة ساجدة وقد احمرّت عيناها من شدة البكاء والدموع ، قد بلّت الأرض بسبب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : يا خدِيجَةُ طَيِّبِي نَفْسَكِ وَقَرِّي عَيْنَكِ ، فقال على بن أبى طالب : ما رأيت مثل جموع الناس فى هذا اليوم ، ولم يبق شريف ولا عربى إلا وقد حضر ، وأنا واثق بالله سبحانه وتعالى أن يثبت محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : طِبْ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا يا أبا الحَسَنِ ، فقال بنو هاشم : يا سيدنا لا تفضح قومك بين أهل مكة وقبائلها فتصير شهرة ، فقال بنو عبدالمطلب يا سيدنا لا تفضح هذه الشيبة : يعنى أبا طالب بين هذا الجمع العظيم ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : طَيِّبُوا أنْفُسَكُمْ وَقَرُّوا أعْيُنَكُمْ ولا تخافُوا ولا تحْزَنُوا واسْكُتُوا عَنْ هَذِهِ الظُّنُونِ ، فإنِّى قَدْ وَعَدَنِى رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ بِمَا أرَدْتُ ـ إنَّمَا أمْرُهُ إذَا أرادَ شَيْئًا أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ـ . قال : فسكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى محرابه وصلى ركعتين ووضع خده على الأرض وقال : وَعْدُكَ وَعْدُكَ يا مَنْ لا يُخْلِفُ المِيعادُ . قال : فناداه جبرائيل عليه السلام : ارفع رأسك يا محمد ، فان الله تبارك وتعالى يقول لك : وعزتى وجلالى وارتفاعى فى علوّ مكانى ، لقد أمرت القمر لك بالطاعة إلى ما سألك القوم عنه من قبل أن أخلق أباك آدم عليه السلام بألفى عام ، فاذا دنا الليل فناد القمر وأمره بما تريد ، فانه يطيعك بما تأمره وبما تريد ، وعزتى وجلالى



لولاك ما خلقت أرضا ولا سماء ولا جنة ولا نارا ولا شمسا ولا قمرا ، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم وخر ساجدا لله تعالى وهو يقول في سجوده : الله أكبر الله أكبر ، فقال له جبريل عليه السلام : يا محمد ها أنا بين يديك والملائكة صفوف إلى أن تفرغ معجزتك وتقيم دلالتك . قال : فزاد النبي صلى الله عليه وسلم فرحا وسرورا ، ولم يبرح بنو هاشم في منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن غابت الشمس ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم يتبختر في مشيته وبنوهاشم وأولادهم يمشون بين يديه وهم يومئذ سبعمائة هاشمي ومطلبي ، وكان أقربهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأعزهم عليه على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، والحمزة والعباس عن يمينه وشماله ، وأبو طالب وجميع بني هاشم محدقون به وهو يمشي بينهم كالبدر في كماله حتى أتوا إلى الكعبة شرّفها الله تعالى ، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم وأذن وأقام الصلاة وصلى المغرب ، فلما فرغ من الصلاة رقى إلى جبل أبي قبيس وأهل مكة ينظرون إليه وإلى معجزته ، ورقى معه أربعة : حمزة والحسن والعباس وعلى بن أبي طالب حتى أتوا رأس الجبل . فلما قربت صلاة العشاء أذن وصلى ، وما كان على وجه الأرض من يوحد الله تعالى إلا النبي صلى الله عليه وسلم والحمزة والعباس وعلى بن أبي طالب كان دينهم ظاهرا ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد فرغ من صلاة العشاء فناداه حبيب بن مالك : يا محمد قد صليت العشاء فأظهر معجزتك ، فأطرق رأسه صلى الله عليه وسلم ، فناداه جبرائيل عليه السلام : يا محمد ارفع رأسك وسل ما تريد ، فان الله قد أجاب دعاءك . قال : فعند ذلك رفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه ورمق نحو السماء ونادى : يا سامِعَ الدُّعاءِ ويا عالِمَ السِّرِّ والنَّجْوَى ويا مُدْرِكَ الأبْصارِ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ . قال : فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى الملك الموكل بالظلمة أن يخرج من الظلمة مثل سم الخياط ، ففعل الملك ما أمره ربه سبحانه وتعالى ، فاسودّت الدنيا من المشرق إلى المغرب والسهل والجبل والبر والبحر ، حتى لم يبق أحد ينظر إلى أحد أبدا وأظلم الخافقان .

قال الراوي : فلما رأت الناس ذلك فزعوا فزعا عظيما ، وكادت الأرواح تنفطر وتشقّ وتخرج ، فنادت : حسبك حسبك يا محمد ، فناد القمر كما



سألناك فناد القمر كما سألناك ، فنادى صلى الله عليه وسلم بأعلى صوته : أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطِيعُ اطْلَعْ مَطْلَعِ السَّائِرِ سَرِيعا وَأَخْرِجْ الْوَدِيعَةَ الَّتِى فِيكَ وَالْمُعْجِزَاتِ ، فأنا مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : فما استتم كلامه حتى أتى القمر يركض ركضا والناس ينظرون إليه حتى وقف تحت أستار الكعبة شرفها الله تعالى ، ثم استدار قمرا مضيئا ، ثم طلع وطاف حول الكعبة سبعة أشواط والناس شاخصون بأبصارهم ثم أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يختضّ كالسفعة ، ونادى : بلسان طلق فصيح .

قال الراوى : وكان كل من حضر بمكة يسمعه وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا خيرة الله ، السلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا محمود ، السلام عليك يا سيد مضر ، السلام عليك يا خاتم الأنبياء ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأنك محمد حبيبه ورسوله . ثم دخل فى كمه الأيمن وخرج من كمه الأيسر . ثم دخل فى جيبه وخرج من ذيله ، ثم انشقّ نصفين ومضى نصف إلى المشرق ونصف إلى المغرب . ثم رجع وصار قمرا منيرا مستديرا ونادى ثانية : السلام عليك ياحبيب رب العالمين ، السلام عليك ياسيد الأولين والآخرين ، السلام عليك يا محمد ، السلام عليك ياأحمد .

فلما نظر القوم إلى ذلك بهتوا وقالوا : إن هذا لأمر عظيم . قال أبو جهل لعنه الله : إن هذا لسحر عظيم ، فنادى حبيب بن مالك وقال : والله ما هذا سحر و إنما هى آية كبرى ، والآن علمت يقينا أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فأسلم حبيب بن مالك وأفلح وخابت المشركون ، وأسلم مع حبيب بن مالك تلك الليلة ستمائة رجل من قومه ، وأسلم ستون رجلا من سادات مكة ، وأقام الله سبحانه وتعالى حجة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم هبط الأمين جبرائيل عليه السلام من رب العالمين وقال : يا محمد اقرأ ، قال : وما أقرأ ؟ قال : إقرأ ـ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ـ . قال : وجعل العباس والحمزة وأبو طالب يقبلون يد النبي صلى الله عليه وسلم ، ونارت وجوههم ووجوه بنى هاشم



وبنى عبد المطلب ، والناس يقولون : ما رأينا مثل هذه المعجزة قط . قال : فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم وهم محدقون به . فلما دنا من القباب تلقته خديجة الكبرى بنت خويلد وضمته إلى صدرها وقبّلته وقالت : يا سيدى وقرة عينى رأيت القمر يوم أقبل إليك ورأيتك على جبل أبي قبيس وأنا كما يعلم الله حزينة حتى رأيت المعجزة ، فما والله رأت عينى مثلها أبدا ، وكذلك قال الحمزة والعباس . قالت خديجة : والله لقد خاطبتنى الجنينة التى فى بطنى ، وهى تقول : أتخشين على أبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو سيد المشارق والمغارب ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا خَدِيجَةُ إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى ما أعْطَى نَبِيًّا شَيْئًا إلا وَقَدْ أعْطانى مِثْلَهُ قَوْلُهُ تَبارَكَ وَتَعالى ـ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتالَ وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ـ قال : فبقيت خديجة عند النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن انتقلت من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، ولم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم ما دامت فى قيد الحياة إلى حين ماتت رحمة الله عليها ، واشتد عليه فراقها رضى الله عنها .

قال البكرى :

أعظمها القرآن جلّ الذى ... أنزله معجزة باهره

وفى انشقاق البدر للمصطفى ... وحبس الشمس آية ساهره

كذاك نبع الماء من كفه ... يجرى كالسحب الماطره

وقد أطعم الجيش وأرواهمو ... هذه أيضا آية فاخره

وكم بقعة يابسة قد غدت ... بوطء أقدامه مخضرة نادره

وكم أتى الوحش له ناطقا ... مسلّما يسمع من حاضره

وكم سقيم صحّ من لمسه ... وكم شفى من علة بائره

وردّ عينا ذهبت كلها ... إلى قتادة انقلب ناظره

وللميت أحيا أنفسا ... بقدرة الباعث فى الآخره

وأطلعه الله على غيب ما ... يكون فى الدنيا وفى الآخره

علوم كل الناس من علمه ... وهو عليهم زادت مفاخره



فنفضله أعيا الورى عدّه أفهامهم من حصره قاصره
عليه صلاة الله ما أسبلت سحب بدمع وأكف ماطره
عليه صلى ربنا دائما صلاة زكية عاطره
ثم على العترة أهل التقى أكرم بهم من عترة طاهره
كذا على صحبه فهم قدوة للناس كالأنجم الزاهره
فنسأل الله بهم رحمة تعمّنا باطنة وظاهره

هذا ما انتهى إلينا من كتاب الأنوار ، ومولد النبي المختار صلى عليه الله الملك الجبار على التمام والكمال ، وأستغفر الله من الزيادة والنقصان إنه عفوّ غفور منان ، والحمد لله رب العالمين .

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه ، قد تم طبع كتاب :

الأنوار ومصباح السرور والأفكار

لأبي الحسن أحمد بن عبد الله البكري رحمه الله تعالى

مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برياسة : الشيخ أحمد سعد على

القاهرة في { ٠٧ جمادى الآخرة ١٣٧٠ / ١٥ مارس ١٩٥١

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي